

احمد اسامة

رواية

حفلة دم



حفلة دم

الكتاب:حفلة دم

الكاتب: أحمد أسامة

تصميم الغلاف:

تدقيق لغوي:

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

الطبعة الأولى: 2017



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت:35860372 02 -27772007 011

Noon_publishing@yahoo.com

أحمد أسامة

حفلة دم

رواية




رواياتي
Rwaiaty.com

إهداء

إلى زهرتى عمرى جنى وجاسمين، لا أذكر كيف كانت حياتى قبلكما ولكنى متيقن بأنها لم تكن أبدًا بهذا القدر من الجمال.

أسأل الله أن يسعدكما وأن يديم سعادتى بكما.


رواياتي
Rwaiaty.com

إهداء.. إليهم..

إلى من اقتربوا ولم ينالوا، إلى من ذاقوا ولم يرتووا، إلى من آمنوا ولم يَسلموا إلى من أوفوا ثم خانوا، إلى من ذابت بسمتهم على شفاهم وضلت الطريق إلى قلوبهم، إلى من احتبست الدموع فى عيونهم، ووقفت الكلمات فى حلوقهم..

لكم أنتم هذا العمل.


رواياتي
Rwaiaty.com

أما أنت الرجوع لا تفكر فيه
لا تحن إلى مصير أسهل من هذا بكثير
قدماك فوق أرض لم تُطرق من قبل
عيناك فى مواجهة ما لم تره قط

لويس ثيرنودا


رواياتي
Rwaiaty.com

(1)

عاصم

(مارس 2015)

مرير هو الواقع وساخر فى نفس الوقت، لقد جبتُ بلدان كُثر طولًا وعرضًا وتنقلت بين قارات العالم أجمع، لكنى لم أتصور أبدًا أن تكون النهاية على سطح واحدة من الجزر التى لم أدرِ لها مكانًا أهى فى المحيط الهادى أم الأطلسى أم وسط أحد البحار فى أحد بقاع الأرض، أم أنها لا تمت لعالمنا بصلة؟ اسمها لا يهم ولا أعرفه على أية حال، كل ما أعرفه أنها غير خاضعة لأى قانون، خاضعة لحكم ذاتى من سكانها، هنا تغفل عنك عيون العالم بضمير مرتاح سواء كان عن جهل أو عن قصد فالنتيجة واحدة، لا أدرى كيف حدث هذا، لكنها أغرب ما سأشهده قبل موتى، لا أمل فى الخلاص ولا أثر لنجاة تلوح فى الأفق فى هذا الظلام وأنا محاط بهذا الكم من الحراس وهذا الكم من القضبان، بالطبع لم يدُر بخلدى وأنا المصنف كواحد من أمهر القناصين العسكريين خدم وطنه سنوات طوال أن ينتهى بى المطاف داخل أحد الأقفاص الحديدية المتراصة جنبًا إلى جنب على كلا الجانبين يمينًا ويسارًا فى رواق واسع أبعد ما يكون عن النظافة، لم أحصها ولكنها تقترب من عشرة أقفاص

بكل جانب، يفصل بين كل قفص والتالى جدار أسمنتى قوى، يمكننى الجزم بأن الثلاثة أقفاص التى تقع أمامى فارغة بينما على يمينى ويسارى هناك سجناء مثلى على الأقل خمسة من جنسيات مختلفة، أسمع أصوات فتح الأبواب وغلقها، حبيس أنا فى قفص لا تتجاوز مساحته ثلاثة أمتار فى ثلاثة أمتار كحيوان بائس بحديقة حيوانات يشاهده الجمهور ويُقدم له ما يبقيه فقط على قيد حياة موحشة تترفع عنها الكلاب، قفص يلفه ظلام مدلهم اتخذ من المكان مستقرًا ومقاماً طوال ساعات الليل فقط يقطعه بصيص من ضوء فى ساعات النهار عبر فتحة فى الجدار على ارتفاع 6 أمتار أو يزيد أو مع دخول الحارس من باب عملاق بفتات طعام لا طعم له إلا كريه أو ليملأ الإناء القذر بقليل من ماء، عبر مشاعل معلقة على الجدران تشعرك وكأنك عدت ثلاثمائة عام للوراء. أذنى هنا لا تلتقط سوى دبيب خطوات الحراس وصرير أبواب وخشخشة مفاتيح، ودقات قلب يعمل فى رتابة تغمره لا مبالاة وبعض كلمات حانقة وصرخات من الأقفاص المجاورة بلغات لا أفهمها.

فهنا يحوى كل قفص مجرمًا آثمًا تم اصطياده من بقعة ما من العالم ليكتمل فريق من المجرمين الخطاة سيلقى كل منهم عقابه بطريقة عجيبة لم تخطر له ببال، لذا فسيتم زجى بعد ساعات داخل حلبة قتال معصوب العينين مقيدة يُسراى بسلسلة معدنية لا يتجاوز طولها المترين تربطنى بخصم أجهله تمامًا علىّ مواجهته داخل حلبة مغلقة لا فكاك منها، لا أدرى من هو ولا كيف تبدو هيئته ولا ما هى جريمته؟! ولكنه سيكون حتمًا معصوب العينين مقيدًا مربوطًا بنفس السلسلة لمواجهتى، على الأرجح هو مجرم من وجهة نظرهم ارتكب ما يستوجب دخوله الحلبة، بعد هذا

اللقاء أحدنا فقط من سيغادر الحلبة حيًا، سنتقاتل حتى يسقط أحدنا صريعًا يلفظ أنفاسه الأخيرة ويلفظ قبلها الكثير من الدماء وتغادر روحه جسده، نهاية سيئة على أحدنا أن يلقاها، ما أصعب أن تغادر الحياة بعيون لا ترى عقب علقة موت، نهاية أسوأ مما لاقاها مصارعو روما القديمة، ربما هذه هى دقائقى أو ساعاتى الأخيرة، حقيقة لا أدرى كم هو الوقت اللازم لإنهاء حياة إنسان ضربًا بالأيادى ولا مقدار الألم الناتج عن ذلك، لابد أنه مقدار عظيم يجبر روحك نفسها على الفرار. ليس لدى علم إن كان هناك مزيد من الأقفاص فى أروقة أخرى غير ذلك الذى يحتوينى، حتى الأقفاص التى فى الجوار لا أتبين كم منها شاغر أو كم منها مسكون، ولكنى أسمع أصوات أقفال تفتح وتغلق، لابد أن هناك كائنات حبيسة مثلى فى الجوار يُقدم لها الطعام وتنتظر مصير مشابه. وعلى الأرجح خصمى موجود هنا يُمنى نفسه بقتلى من أجل مزيد من الساعات تحمل له مزيد من المعاناة.

الرائحة هنا قذرة للغاية، رائحة العرق تختلط بروائح البول والبراز، حيث إن هذا القفص هو حيزك المسموح لك فيه بكافة العمليات التى يمارسها جسدك بشكل أوتوماتيكى، وبرغم اعتيادى لهذه الرائحة إلا أن مجرد تذكرها يهيج حواسى من جديد، تُرى ماذا تحمل لى الدقائق القادمة؟ أو بصيغة أخرى ما الذى أتمناه لنفسى فى الدقائق الأخرى؟ ميتة مؤلمة والتخلص من هذا العذاب الذى يبدو بلا أمل فى الانقطاع أو التوقف، أم الاستمرار فى هذا الكابوس فى انتظار مزيد من الأهوال، عسير تقبل فكرة أن أترك نفسى للموت مهما بدا القادم أسودًا خاصة وأنا متأكد بأن نهايتى هذه ستكون على يد مجرم لم أعرف بعد جريمته، بالطبع جريمته ليست هينة،

ولكنهـا مـن النـوع الـذى يسـتوجب وجـوده هنـا، لابـد أنـه متحفـز لقتـلى، عـلى الأغلـب هـو رجـل بـلا قلـب، المـوت هـو أخـر مـا يجـول بخاطـره قبـل قدومـه هنـا، متيقـن أنـا مـن أنـى لـن أغـادر هـذا القفـص إلا لقـبرى سـواء كان حفـرة فى الأرض أو فى قـاع المحيـط ، لطالمـا كان المـوت أمـر غـير مسـتبعد فى كل مهمـة شـاركت فيهـا، لا أدرى هـل سـأعود أم لا، أودع أمـى وزملائـى قبـل كل عمليـة وداعًـا قـد يكـون أخـيرًا، وفى السـنوات الأخـيرة التـى تسـبق وجـودى هنـا كان المـوت يحـوم حـولى فى اشـتهاء حاصـدًا أكـبر قـدر مـن الأرواح، أوقاتًـا جنونيـة عشـتها، جثثًـا بالعـشرات تناثـرت حـولى شـيوخ ونسـاء وأطفـال، كنـتُ مهـددًا فى أى وقـت بتلقـى رصاصـة تـودى بحياتـى، كنـتُ مهيئًـا تمامًـا لذلـك، بـل إنـى تعجبـت مـرارًا مـن تأخـر موتـى، كل مـا مـررت بـه مـن قبـل جعلنـى متقبـلًا فكـرة المـوت كـما يتقبـل الطفـل غضـب أمـه، لم أكـن أعلـم بـأن هنـاك ميـناء آخـر بعيـدًا سترسـو عنـده سـفينة عمـرى للأبـد، فقـط كنـت آمـل فى ميتـة سريعـة لا يسـبقها كثـير مـن الألم.

كانـت حياتـى سلسـلة مـن المرتفعـات والمنحـدرات حتـى سـقطت فى بئـر عميـق ظننتـه سيشـهد نهايتـى. ولكـن البدايـة كانـت قبـل ذلـك بقليـل.

كل المآسـى بـدأت بمقتـل المقـدم يحيـى، كان أقـرب الرجـال لقلبـى، فلطالمـا عشـت بـدون والـد وبـدون إخـوة وحتـى بـدون أصدقـاء، لقـد رحـل والـدى مبكـرًا وأنـا طفـل، لا أذكـر كثـيرًا مـن ملامحـه إلا مـن خـلال الصـور، نشـأت وحيدًا مـع أمـى وترعرعـت فى كنفهـا وأحاطتنى بحنانهـا ورعايتهـا حتـى جعلـت منـى رجلًا يرتـدى بذلـة عسـكرية يهابه الجميـع ويجلـه ويوقـره الكبـير قبـل الصغـير، كنـت مثـالًا بـين أقرانـى للالتـزام والانضبـاط وهـو مـا جعلنـى محظيًـا لـدى رؤسـائى.

لقد منحتنى الأقدار بصرًا حادًا وكأنى استعرته للأبد من عينى صقر، أثناء الدراسة كنت الأول دائمًا فى مسابقات الرمى، نياشين عدة وأوسمة حصلت عليها ومديح صار ينهال علي من المحيطين حتى بت واحدًا من أشهر القناصة وأكثرهم مشاركة فى عمليات واسعة داخل وطنى وخارجه، عشت بلا أصدقاء تقريبًا حتى قابلته، كان منقولًا حديثًا من القاهرة واشترك معنا فى أولى عملياته، عرفته مقاتلًا بارعًا يتمتع بلياقة بدنية هائلة وعزيمة وإصرار لا حدود لها، على وجهه نظرات غضب لم أكن أعرف موجهة لمن كانت تخيفنى كثيرًا، كانت كلماته دائمًا قليلة معبرة، لا شيء قادر على إبهاره ولا حتى مهارتى فى الرمى والتصويب، فقط يمنحنى نظرة بسيطة تنم عن رضاه، أحببت العمل معه وأظنه كذلك حتى صرنا قريبين للغاية وحين جاء خبر اغتياله، شعرت بتيتمى ثانية على الرغم من أن الفارق السنى لم يكن بالكبير جدًا بحيث يصبح لى أبًا، كانت هذه المرة الأولى التى أبكى فيها منذ سنوات، لم ألمح دموعًا فى عينى من قبل منذ كنت طفلًا تُجاب كل طلباته، ولكن حين جاء خبر اغتياله اهتزت الأرض تحت قدمى، فى البداية لم أصدق ولكن كافة الدلائل تشير إلى رحيله، وحين قابلت زوجته بعدها وأكدت بأن لديها ما يثبت بقائه على قيد الحياة تشبثت بوميض الأمل هذا، ولكن لم نعثر على أى دليل يرجح كلمات زوجته، لقد قتل الرجل لا شك، حتى وإن اختفت جثته على يد مغتاليه، لا أدرى لماذا تستدعى ذاكرتى هذه الذكريات الآن، لعلها وسيلة لتمضية وقت ثقيل كجبل لا يتزحزح، صحيح أنه ليس هناك داعٍ للعجلة فنهايتى قادمة قادمة ولكنى أفضل الموت فورًا عن انتظاره،

فليقتلونــى الآن إن أرادوا وبــأى وســيلة مهــما بــدت شــنيعة ولكــن ســيعقبها موتــى ســيعقبها راحتــى.

بعد اغتيال المقدم يحيى بشهور تم استدعائى إلى اجتماع........

إثــر جلبــة واضحــة فى الخــارج انقطــع فجــأة ســيل ذكرياتــى، أصــوات متداخلــة تترامــى عــلى مســامعى، عينــاى لا تسـعفانى بسـبب الظـلام الدامـس، لا أعـرف كـم الوقـت ولكنـه الليـل أسـدل سـتائره منـذ سـاعات ولا يريـد أن يمـضى بيـد خاويـة، أسـمع مزاليـج تُعالـج وخطـوات قادمـة تقـترب أكثـر وأكثـر ومـع بلوغهـا القفـص تنـار أضـواء سـاطعة أعمـت عيونـى فى البدايـة ، أخـذت وقتًـا طويـلا حتـى تتمكـن عينـاى مـن الرؤيـة بوضـوح عقـب ظـلام ألفتـه وألفهـا، فى الأيـام السـابقة عنـد إدخالهـم الطعـام للقفـص كانـت أضـواء خفيفـة تتـسرب للقفـص ومحيطـة مـن المشـاعل المعلقـة عـلى الجـدران تسـمح للحـراس بتبـين موضـع أقدامهـم ومعالجـة أقفـال الأقفـاص، أمـا الآن فالإضـاءة سـاطعة للغايـة وكأنـك فى قلـب صالـة مغطـاة تسـطع بهـا أضـواء كاشـفة تجعـل الرؤيـة كـما لـو كانـت نهاريـة أو تقـترب مـن ذلـك، إذن فالظـلام هنـا وسـيلة تعذيـب تـتركك مـع خيـالات وأوهـام سـوداء غـير محببـة، بعـد قليـل حـين اعتـدت هـذا الضـوء، لمحـت حـراس تقـف عنـد البوابـة الوحيـدة للـرواق عـلى بعـد مـا يزيـد مـن 12 مـترًا مـن قفـصى، يبـدو أنهـم فى انتظـار قـادمٍ مـا أو فى انتظـار تلقـى أوامـر جديـدة . الحـراس هنـا ملثمـون لسـببٍ لا أعرفـه حتـى الآن، لا أدرى هـل هـم مـن أهـل الجزيـرة؟ هـل هـم مأجـورون؟ ولكنهـم غالـب الأمـر صامتـون، ينفـذون التعليـمات دون النطـق بكلمـة واحـدة، لا تشـفى ، لا إهانـة، فقـط أخبرونـى بشـأن المواجهـة القادمـة، لهـم ملبـس ثابـت، سـترة جليـة بنيـة اللـون عاريـة الكتفـين مطـرزة بقطـع

معدنيـة صغـيرة عـلى الصـدر، أسـفلهما قميـص أبيـض ذو كمـين بجانب سروال أسـود اللـون، وقطعـة مـن القـماش الأسـود تـدارى رؤوسـهم ووجوههـم، جميعهـم أقويـاء البنيـة، أشـداء مختاريـن بعنايـة وذلـك متوقـع فى مـكان كهـذا، اعتدلـوا باتجـاه الأقفـاص، هنـاك مـن يجاورهـم، اثنـان منهـما تقدمـا نحـو قفـصى، يعالجـان القفـل بمفتـاح كبـير نوعًـا، يقفـان عنـد المدخـل، هنـاك قـادم آخـر يدلـف مـن بـاب الـرواق، إنـه هـو تونـى!

تونـى الـذى يكرهنـى أكثـر مـن كـره البـشر للمـوت، والسـبب الأول لوجـودى هنـا، كان بإمكانـه قتـلى بـأى طريقـة تـروق لـه، ولكنـه فضـل ميتـة أليمـة يتلـذذ بهـا، فجـاء بـى إلى هنـا، يقـف أمـام القفـص بقامتـه الفارعـة وشـعره الأشـقر الطويـل نسـبيًا ووجهـه المائـل لحمـرة تواريهـا الأضـواء، يدلـف إلى القفـص ويقـف عنـد حافـة قدمـى الممـددة عـلى الأرض، يثنـى جسـده، ويقـرب رأسـه مـن رأسـى وابتسـامة غـل تعلـو وجهـه :

- الأن سـتواجه ميتـة شـنيعة تـروق لى كثـيرًا، لم أكـن أتوقـع أن شـيئًا كهـذا يمكـن أن يروقنـى يومًـا، لا أظـن أنـك سـتفلت الليلـة مـن المـوت، صحيـح أنـك قنـاص، وطالمـا كنـت صيـادًا بارعًـا تقـدم المـوت لضحايـا كثيريـن ولكنـك اليـوم سـتتحول إلى فريسـة مزريـة، فريسـة بـكل مـا تعنيـه الكلمـة، فريسـة تـؤكل وتمضـغ وتهضـم، خصمـك اليوم لا يسـتهان بـه أبـدًا ، لـو كنـت مكانـك لأفرغـت معدتـى قبـل لقائـه فى أى مـكان، أمـا فى حالتـك فمعدتـه تشـتاق لـك كثـيرًا، لأنـه آكل لحـوم بـشر بالمعنـى الحـرفى للكلمـة، تغـذى عـلى العـشرات مـن الأبريـاء قبـل أن يعلمـوا سره ويلقـوا القبـض عليـه، ولأنهـم حمقـى كـما هـى عادتهـم ،

حاولـوا علاجـه بإحـدى المصحـات، فكانـت النتيجـة هروبـه و لاحقًـا اختفـاء الممرضـة التـى كانـت تتابـع حالتـه، يمكـن بقليـل مـن ذكاء معرفـة أيـن ذهبـت الآن ومـا آل إليـه مصيرهـا، ولكنـه الآن فى حوزتنـا ولسـوء حظـك لم يتنـاول شـيئًا منـذ ثلاثـة أيـام، لـذا لا يعتـبر لقـاؤك اليـوم مواجهـة بقـدر مـا يعتبرهـا وجبـة عشـاء»

كان يتحـدث بحـماس حقيقـى كمراهـق يـروى قصـة فيلـم أعجبـه «آكل لحـوم بـشر، إنهـم بارعـون فى اختيـار أهدافهـم، وقـادرون عـلى إدهاشـى حتـى قبـل موتـى» هكـذا قلـت فى نفسـى.

لم يخيفنـى مـا قالـه، فكـما ذكـرت المـوت قـادم حتى لـو تأخـر ولكنـه سـيحمل لى راحـة أشـتاق إليهـا كثـيرًا، لـن أهتـم بـما سـيفعل بجسـدى مـا دمـت ميتـًا، ولكنـى سـأقاوم حتـى آخـر نفـس.

قبـل أن ينـصرف أعطـى أوامـره للحـراس بإعـدادى للمواجهـة، جـاءوا بقنـاع معدنـى ثقيـل وضعـوه عـلى رأسـى غطـى وجهـى بالكامل وربطـوا طرفيـه مـن الخلـف وأحكمـوا إغلاقـه، بينـما مـن الأمـام مـا يشـبه نظـارة معدنيـة ذات عدسـات كبـيرة تجعـل الرؤيـة مظلمـة باهتـة بشـكل يثـير الأعصـاب، ثـم أنهضونـى واقتادونـى للخـارج لمواجهـة مصـيرى.



«ما ينبغي لفتاة أن تكون بهذا الجمال وإلا صارت شمسًا تحرق الأخرين وتلقي بالضحايا يمينًا ويسارًا.»

(2)

يحي - القاهرة

عام 2003

الآن أنت تخرجت من كليتك العسكرية يا يحيى كما خطط لك والدك رجل الأعمال الذى لا يعرف سوى العمل ثم العمل ثم العمل بعد رحيل والدتك فى سن مبكر، لم تكن متحمسًا لذلك لكن والدك عقد العزم ولن يتراجع، فما كان منك إلا الاستجابة لرغبة محمومة غير قابلة للنقاش، بفضل جهدك وبزوغك فى العمل تدرجت فى المناصب حتى وصلت لرتبة نقيب، هنا شعرت بأن الحياة ليست على ما يرام، هناك شىء ما خطأ، لا يجب أن تخدع نفسك أكثر من ذلك، أنت بحاجة لنصفك الآخر الذى تأخر جدًّا فى الظهور، أين هى تلك المجنونة، متى ستأتى إذن؟ إنك على مشارف الثلاثينات وحياتك جافة كحلق تائه فى الصحراء نفد منه الماء منذ أربعة أيام، عليك أن تعترف أنه كان هناك ذلك الحاجز النفسى فى تعاملك مع الجنس الأخر، نشأت وحيدًا دون إخوة وحتى أصدقائك فى المدرسة والكلية جميعهم من الذكور، لولا وجود بعض الفتيات فى عائلة والدك تتبادل حديث قصير معهم كل فترة فى الزيارات والمناسبات لانعدم أى حوار بينك وبين هذا

الجنس تمامًا وكأنهم لا ينتمون لنفس الأرض التى تعيش عليها، لقد أشار والدك مرارًا لضرورة الارتباط ولكنك ظننت دومًا بأنه لم يحن الوقت بعد، ربما كان رفضك لفكرة زواج الصالونات وراء ذلك، لكن الجميع من حولك يتخذ هذا المسلك فى نهاية المطاف، حسنًا لا مفر ستستعين بصديق جدير بالثقة يساعدك فى الاختيار وأنت من سيقرر، فى هذا التوقيت يعرض والدك خدماته ويعلن بأن فتاتك لديه، ولكنك تصر هذه المرة بكل حسم، يبدو أن الحياة العسكرية طبعت على سماتك الكثير وأثار الزمن لم تترك لوالدك إلا الوهن، فتاة تلو الأخرى تعرض عليك فى لقاء عابر أو صدفة مدبرة أو حتى زيارة علنية، لكن دومًا النتيجة واحدة رفض من جانبك، ليست هى أحداهن ولسن هن هى. كن جديرات بك حسبًا ونسبًا ويتمنينك بوضوح زوجًا ولكن شكلًا وموضوعًا ينقصهن شىء ما ، لا تدرى ما هو حتمًا ستعرفه حين تعثر عليها، أسبوعًا وراء أسبوع وشهرًا وراء شهر، لقد تملكك الغيظ منها، عذرها الوحيد أنها لا تهرف أنها هى هى .

نال منك التعب، ودنا منك اليأس ، لكن وظيفتك علمتك أن اليأس كلمة خارج القاموس ولا محل لها من الإعراب، لا مانع من مواصلة البحث .

مازال والدك يؤكد بأن عروستك تنتظر، ربما لن تنتظر طويلًا، لذا عليك أن تسرع، رفضك لمبدأ الاعتماد على والدك يتلاشى، إنها فقط محاولة وتحت أى ظرف لن يجبرك والدك على شىء

– لقد دعانا السيد محمود التلوانى لقضاء أمسية معهم يوم الجمعة القادم.

لم تسـأل عـن التفاصيـل كان يقينـك بأنهـا محاولـة لـن يُكتـب لهـا النجـاح كسـابقاتها.

فى بنايـة شـاهقة فاخـرة أغلبهـا مـن الزجـاج واجهتهـا تطـل عـلى النيـل مبـاشرة فى حـى الزمالـك كان الموعـد، ارتديـت ثيابًـا عاديـة بنطلونًـا رماديًـا وقميصًـا باللـون السـماوى زادك وسـامة عـلى وسـامتك، بشرتـك البيضـاء احمـرت مـن شـدة حـرارة الجـو، يجـب أن تعـود للونهـا الطبيعـى كـى لا يبـدو هـذا الاحمـرار خجـلاً وتوتـرًا، تسـتقلا المصعـد حتـى تصـلا للطابـق الثامـن، تدقـان الجـرس فتفتـح لكـما خادمـة لتقـول فى أدب «تفضـلا» ثـم دلتكـما إلى مدخـل الشـقة الواسـعة. كان منـزلًا أنيقًـا بديعًـا يمتلـك أصحابـه ذوقًـا رفيعًـا لا يمكـن التغـاضى عنـه، تجلـس ووالـدك عـلى أريكـة عريضـة مريحـة امتصـت جسـديكما ، واضـح أنكـما سـتبذلان جهـدا كبـيرًا وقـت النهـوض، جـاء صديـق والـدك ليحيكـما فى سـعادة وود شـديدين، عينـه لم تنـزل مـن عليـك، لقـد رقـت لـه كـما هـو واضـح زوجًـا لابنتـه.

حسـنًا هـذا الرجـل يتمنـى إتمـام هـذه الزيجـة ربـما أكثـر مـن والدك، ولكـن هيهـات عـلى الأرجـح دقائـق وسـتكون الصدمـة مصـير كليهـما حسـبما تظـن، ثـم تجـىء زوجـة المضيـف، امـراة خمسـينية تمتـاز بقـصر القامـة وقـوام بعيـد نسـبيًا عـن الرشـاقة، ولكـن يبـدو عليهـا السـكينة أكثـر مـن زوجهـا المتحمـس كـما أن لهـا وجهًـا لطيفًـا، اختفـت المـرأة مـن جديـد، لتبقـى وحـدك مـع الصديقـين اللذيـن أخـذا يتبـادلان ضحـكات وقفشـات عفـا عليهـا الزمـن مـن وجهـة نظـرك، ولكنـك تضطـر للابتسـام مجاملـة وعـلى مضـض.

مـرت سـاعة كاملـة دون ظهـور للفتـاة، مـا هـذا الملـل؟

يبـدو أنـك سـتنصرف وتتركهـم يسـتكملون أحاديثهـم السـقيمة تلـك، ولكـن فجـأة دون مقدمـات، تعـود الزوجـة لتدعوكـم للعشـاء، تفكـر إنـك ربـما كنـت مخطئًـا، لعـل الزوجـين ليـس لديهـما فكـرة عـن سـبب الزيـارة، ولدهشـتك تخطـر ببالـك فكـرة ربـما ليـس لديهـما فتيـات للـزواج، سـيكون هـذا أكـبر مقلـب مـن والـدك، لابـد وأنـه يضحـك بداخلـه كثـيرًا عـلى ذلـك، نظراتـه لـك بـين الحـين والآخـر تحمـل سـعادة مفرطـة أتراهـا مـن قسـوة تلـك الدعابـة؟

كانـت وليمـة بالفعـل حـوت جميـع أصنـاف الطيـور، ربـما تغيـب فقـط لحـم النسـور والخفافيـش عـن هـذه المأدبـة، ثـم يقـع بـصرك عـلى طبـق كبـير تتوسـطه فخـذة مـن الضـأن، مشـهد أقـوى مـن سـخريتك، ينسـيك سـبب الزيـارة وسـط هـذا الكـم الماجـن مـن الطعـام، فلتذهـب فكـرة الـزواج والعـروس المنتظـرة نفسـها للجحيـم، سـتتناول العشـاء وتمـضى لحـال سـبيلك، غافـرًا لوالـدك وصديقـه وقتـك المهـدر ودعاباتهـما السـمجة.

جلـس أربعتهـم عـلى المائـدة، المضيـف عـلى رأس المائـدة وعـلى يمينـه زوجتـه وعـلى يسـاره والـدك الـذى تقبـع بجـواره وقـد نسـيت أنـت نفسـك سـبب الزيـارة، فقـط تنتظـر إشـارة بـدء السـباق، تلاحظ قبـل بـدء عمليـة نسـف السـفرة بـما عليهـا وجـود مقعـد وحيـد شـاغر بجـوار الزوجـة وفى مواجهتـك مبـاشرة وأمامـه اسـتقرت شـوكة وسـكين وطبـق ولكـن دعـوة الرجـل لبـدء تنـاول الطعـام أذهبـت هـذه الملاحظـة أدراج الريـاح، وذلـك قبـل أن تسـمح أرق مسـاء الخـير وعتهـا أذنـك طـوال حياتـك، ترفـع بـصرك لصاحبـة الصـوت القادمـة مـن السـماء، هـذا جمـال لم يولـد عـلى الأرض، أجـارة القمر هـى؟ أم اسـتعار القمـر هـذا الاسـم مـن هـذه الواقفـة أمامـك،

وقبل أن تجيب على أسئلة ليست موجودة إلا بذهنك، تسقط الملعقة من يدك احتجاجًا على شرودك طالبة قدرًا أكبر من الاهتمام، صاحب سقوط الملعقة ارتباك واضح عجزت معه شفتاك عن نسج كلمة واحدة مفهومة، لكن عينيك سرعان ما تعاود التعلق بهذا الضياء الساطع حبيس هذه المساحة المتناهية الصغر رغم اتساع المنزل، يبدو أنه لابد من إعادة تعريف الجمال بعد ما رآها، كان مشدوهًا بحق، تُملي عينك منها بينما عيون الجميع مثبتة عليك، أما هي فكانت تتناول الطعام فى هدوء، دون أن ترفع عينيها باتجاهك ولو لمرة واحدة على سبيل الخطأ، لم تذق لقمة واحدة بينما ناظريك يلتهمانها، شعر فاحم سائح على كتفيها، أنف دقيق صغير، شفتين شهيتين، يا لك من وغد! لقد فصصت كل تفصيلة فى وجهها فى محاولة شاقة كى لا تفوتك لفتة لهذا الوجه الوضاء ذى البشرة الخمرية. تردد بداخلك ما ينبغى لفتاة أن تكون بهذا الجمال وإلا صارت شمسًا تحرق الأخرين وتلقى بالضحايا يمينًا ويسارًا.

أنهت طعامها بالتزامن مع الآخرين، أما أنت يا لك من مسكين، سقطت فى بئر سحيق لا منقذ منه ولا معين إلا كلمة أو حتى نظرة ولم تظفر بأى منهما، انتهى اللقاء لا تدرى كيف، ولكن قرارًا قد اتُخِذ بداخلك وأنت عازم تنفيذه في أقل وقت ممكن، تخبر به والدك فور مغادرتكما، يبتسم فى مزيج من مكر وسعادة ونظرة من طراز « ألم أقل لك؟ « بينما أنت لا تدرى أتلومه لأنه لم يضغط عليك بشكل كافٍ من قبل أم تلوم نفسك لأنك كنت أحمقًا عنيدًا حرمت نفسك من هذا السحر لبعض الوقت؟

فى اليوم التالى يخبرك والدك برد الفتاة على لسان والدها والصدمة تعلو وجهه والحسرة تغلف صوته:

- مرفوض أنت !

بعد قليل من الصمت - لماذا ؟

- لا أدرى ولا حتى والدها هكذا رفضت دون إبداء الأسباب

أى جنون هذا؟! تستعيد مجريات أحداث الأمس، ألم يكن مظهرك على ما يرام؟ لم يكن عاديًا وليس ممتازًا كذلك، أتفوهت بما لم يعجبها؟ إنك لم تنطق ببنت شفة فى حضرتها، يعتريك حزن معجون بالغيظ ولكنك تقرر ألا تستسلم، ها هى اقتحمت قلبك واحتلته ببراعة فى دقائق، ليس هذا بالغريب، الغريب أنك لم تبدِ أى مقاومة وسلمته لها بطيب خاطر، ما العمل الآن ؟ تعتصر ذهنك بحثًا عن وسيلة أو طريقة تعيد بها تقديم نفسك.

تفعل كما المراهقين تنتظرها أسفل البناية عدة أيام حتى تظهر أخيرًا لتستقل سيارتها ، تذهب ورائها ، تدلف إلى نادٍ اجتماعى شهير، تدخل وراءها مستغلا كونك ضابط شرطة لا يمكن رفض طلبه بالدخول، تجلس وحيدة دون أن تلحظك فى ركن هادئ بالحديقة الظليلة كوردة متفتحة وسط باقى الزهور، ينتابك التردد، ما هى الخطوة التالية، تتذكر أنك ضابط لا يعرف الانسحاب، فتقرر الاقتحام.

- مساء الخير

تدير نظرها إليك فتزيدك ارتباكًا وتزلزل كيانك، فتكرر التحية فى إلحاح حتى ترد فى ثقة

- مساء النور

- تسمحى لى بالجلوس

ثـم تجلـس قبـل أن تسـمح فيمتعـض وجههـا فتلحـظ أنـت ذلـك فتنتبـه لتقـف معتـذرًا قبـل أن تتـدارك هـى الموقـف وتشـير لـك بالجلـوس «تفضـل»

– كنت سعيدًا جدًا وتشرفت باللقاء الذى تم فى منزلكم.

تـرد بالسكوت فتلقـى بالسـؤال الـذى أرقـك فى الليـالى الماضيـة « هـل لى أن أعـرف سـبب رفضـك ؟» تـصر هـى عـلى السـكوت فتؤكـد « هـذا مـن حقـى أن أعـرف سـبب رفضـك «

– حقيقـة ليـس رفضًـا لـك بـل رفـض للطريقـة التـى تـم بهـا الأمر، وقـد أخـبرت والـدى بـه قبـل مجيئكـم ولكنـه أصر بـأن أمنحـك وأمنـح نفسـى فرصـة حتـى اللقـاء، أرجـوك لا تأخـذ الأمـر بشـكل شـخصي أبـدًا، أنـا لا أريـد زواجـًا تقليديـًا، عريـس مناسـب تقـدم لفتـاة راقـت لـه فقـرر أن يتملكهـا باقـى عمـره دون أن يعبـأ بحقيقـة مشـاعرها أو حتـى يسـمع منهـا كلمـة واحـدة، هـذا زواج محكـوم عليـه بالفشـل.

كانـت الكلـمات تنسـاب عـلى شـفتيها فى رقـة بصـوت شـجي رغـم قسـوة مـا يرمـى إليـه، لا تـزال مفتـون وستسـتمر كذلـك مـا دامـت أمامـك، ألجمتـك صراحتهـا فعجـزت عـن النطـق لثـوانٍ قبـل أن تقـول:

– وإذا أخبرتـك بأنـه ليـس مجـرد إعجـاب ولا زواج تقليـدى، يبـدو أنـى فهمـت أخـيرًا الحـب مـن أول نظـرة، وأنـا أنضـج مـن أن أعـترف بـه دون أن أعنيـه

ارتجفـت شـفتاها وخفضـت عيناهـا فى خـدر جميـل، تلحـظ ذلـك بنفسـك فتكتسـب مزيـدًا مـن الثقـة لتضيـف:

– إيَّـا كان مـا تريدينـه سـتحصلين عليـه، لأنـى لـن أسـمح بـأن تضيعـى منـى.

كنت حازمًا صادقًا مباشرًا وقبل أن تكمل كلامك، إذا بصديقة لها تقف جوارك فى محاولة لفهم الموقف، فتستأذنها فى الانصراف قبل أن تلمح ظل ابتسامة ترتسم على جانب شفتيها المكتنزتين

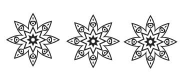
تتكرر اللقاءات بنفس الطريقة بعدما علمت بالأيام التى تقضيها فى النادى، لم تصدق أنك بهذا الجنون ولا أنت نفسك، لقد عبرت الحاجز ويتبقى لك تثبيت الأقدام، نمت قصة الحب من جانبها فى هدوء بينما كانت مشتعلة لديك من النظرة الأولى، شهور مرت قبل أن تتقدم لخطبتها ثانية ليتم الزواج بعدها بأقل من عام وسط سعادة ومباركة العائلتين.

هل الجنة موجودة على الأرض؟ سؤال لن تتمكن من الإجابة عليه بشكل صحيح إلا لو كانت زوجتك هى داليا، وقد اكتفت الأرض بها هدية من السماء وفزت أنت بها أيها التعس.

بعد فترة لم تطل من الزواج يمنحك القدر طفلًا يشبهك لتكتمل أركان السعادة وسط بهجة الأهل بالمولود وفرحة الزوجين، أعوام مرت كأنها أيام وأنت تنهل من نبع السعادة كيف تشاء ومتى تريد، زواج سعيد ونجاح فى العمل جرعة مكثقة من السعادة تحتاج لقرون من السعادة لتُعاش، لا مجال لنكران ذلك، لقد أخذت نصيبك من الهناء دفعة واحدة، وحان الوقت لتنقلب حياتك رأسًا على عقب وتعيش على قطع من الجمر باقى حياتك هذا إذا ما اعتبرنا القادم من عمرك حياة!

آه ليت العدل يوجد، حتى لو حرمت أنا منه، فسوف يسعدنى وجوده، ولو أصابنى أنا نفسى بسوء.

«برتولت بريشت»



(3)

روبيرتو روسّى

لا أحب الحياة، لا أدرى متى تحديدًا تيقنت من ذلك، ولكنه كان شعورى الدائم ورأيى الذى لم يتغير، الحياة كريهة ومنفرة ومن الأفضل ألا تعاش، تحتها بالوعات تسكنها الجرذان والسحالى وفوقها دخان يخنق الجميع، الناس ولدوا وعانوا وعاشوا دون أن يتمتعوا، وعما قريب سيفنوا كما ستفنى هذه الأرض، هؤلاء هم الطيبون منهم، أما الآخرون فيلعبون بامتياز دور سمكة القرش التى تلتهم العشرات والمئات كروتين يومى لا يستوجب القلق بشأنه، وكأن الآخرين خُلقوا ليُفترسوا.

لا بهجة دائمة على سطح هذا الكوكب، ولا خير يُعمر قليلًا إلا بعد دفع ثمن بقائه تضحيات كبرى، حتى الأمل لم يوارب الباب من أجلنا وكلما وجدنا إليه منفذًا أغلقه فى وجوهنا، سوف ننتهى وينتهى الزمن ولن ينتظرهم إلا الموت والعفن، ألم أقل لك إننا كائنات ناقصة ذات وجود معذب تعيش فى عالم يفتقر لشبه اكتمال، يفتقر إلى العدل، هذه هى الحقيقة دون تجميل والخلاصة دون تزييف، من الخير للمرء ألا يبشر بخير غير موجود، وقتها سيُلعن من القلوب وسيُنعت بالمخادع الكذاب، فليروا الحقيقة كما هى،

حتـى وإن أعمـت عيونهـم، لقد طـال طمسـها بفعـل الحمقـى والمجرمين ولكنهـا متـى سـطعت فلتعيهـا بعقلـك وتحفظهـا بقلبك.

أرجـو ألا يفهـم مـن كلامـى بـأن حياتـى كانـت صعبـة بائسـة، لا تحمـل همًـا مـن أجـلى أرجـوك، لقـد عثـرت مصادفـة عـلى سـاعات عشـتها سـعيدًا سـعادة لم ينلهـا أحـد، حققـت عديد مـن أمنيـات لم تتحق لملايـين البـشر ولكـن أحلامـى التـى لم تتحقـق أكثـر منهـا بكثـير، ومـا يشـقينى حقًـا فى اللحظـة الراهنـة يقينـى بأنهـا لـن تتحقـق أبـدًا، كنـت أتمنـى أن أتـرك العـالم خـير مما وجدتـه عليـه ولكنهـا تبـدو غايـة عسـيرة المنـال برغـم أنـى حاولـت وحاولـت كـما لم يفعـل أحـد قبـلى، فالظلـم يعيـث فى الأرض فسـادًا والظالمـون يعـدون أنفسـهم للعيـش ألـف عـام كأنهـم مخلـدون عظـام، لا يفكـرون أبـدًا فى انقضـاء الأجـل.

هــذه هــى خلاصـة تجـارب رجـل عـاش عـلى الأرض سـنوات طـوال واقـترب بشـدة مـن الرحيـل، ولـدت فى عـام 1935 أى قبـل اشـتعال الحـرب العالميـة الثانيـة اللعينـة بأربـع سـنوات، وبعدهـا بثلاثـة أعـوام ولـد أخـى الصغـير الوحيـد اليسّـاندرو، وأعقـب ذلـك بعامـين وفـاة والدتـى وهـى لم تتجـاوز الثلاثـين مـن العمـر نتيجـة إلتهـاب رئوى مزمـن، هـل رأيـت؟ حتـى المـرض قـد يأتـى فى اللحظـة غـير المتوقعـة مـع الأشـخاص الذيـن لم يرتكبـوا جرمًـا واحـدًا يعاقبـون عليـه، وكأنـك تدفـع ضريبـة العيـش فى سـلام بـما يخالـف قوانـين هـذه الأرض، لم يكـن مـن الوالـد سـوى أن يتـزوج بواحـدة لأجـل أن ترعانـا وترعـاه، ظنهـا مـلاكًا مـن السـماء ينقصـه جناحـين ليرفـرف بينـما كانـت هـى شـيطانة لا ينقصهـا سـوى قرنـين حُمـر، أمـام والـدى تتظاهـر بالحنـان والـبراءة ومـن خلفـه لا تكـف عـن سـبى وضربـى أنـا وأخـى، كانـت دائـمًا تلعـن أمـى التـى تركتنـا لهـا، وكأنـه كان لزامًـا عليهـا أن تصحبنـا معهـا إلى العـالم الآخـر،

كل مـا كانـت تفتعلـه أمـام أبـى مـن اهتـمام كانـت تجرعنـا أمامـه عذابًـا لا ينتهـى، وقتهـا كنـت طفـلًا لا حـول لـه والمـرة الوحيـدة التـى حاولـت فيهـا لفـت نظـر والـدى، حصلـت عـلى علقـة لسـوء تربيتـى وعـدم تقديـرى لتلـك المـرأة التـى تعانـى مـن أجلنـا، كان ذلـك كفيـلًا بـأن يسـمح لهـا بـأن تفعـل لاحقًـا كل مـا يحلـو لهـا ولم تكـن تتـورع أبـدًا عـن ذلـك، فى عـام 1943 قتـل والـدى مـع ألاف مـن المدنيـين إثـر اقتحـام جيـوش الحلفـاء إيطاليـا وحينهـا صرت يتيـمًا لا يتجـاوز عمـره الثمانـى سـنوات وأخ خمـس سـنوات وشـيطانة لـن تتوانـى عـن أكلنـا لـو شـعرت بالجـوع، هـذا كان حـال البشريـة فى أربعينـات القـرن المنـصرم يـا صديقـى، ملايـين يموتـون قتـلًا وتحريقًـا بنـاء عـلى قـرارات لحفنـة مـن الأغبيـاء يحكمـون العـالم وبيـد قـادة لم يبـارح لـون الدمـاء ورائحتهـا أياديهـم حتـى ولـو غسـلوها مائـة عـام.

ألم أقـل لـك بـأن الجنـون كان ولازال مسـيطرًا سـائدًا؟! وحـده لـه الكلمـة العليـا واليـد الطـولى، لا تقـل لى بـأن مـن اتخـذ قـرارات قتـل وتعذيـب وتشريـد الملايـين أنـاس يملكـون عقـولًا مثلنـا تفكـر وتـوزن الأمـور، أو عـلى الأقـل لـو كانـت لديهـم عقـول فهـى ليسـت فى رؤوسـهم ربـما فى مؤخراتهـم ليتخـذوا هـذه القـرارات القـذرة، كل طـاغ متمسـك بوجـوده لأقـصى درجـة حتـى لـو سـحق ملايـين مـن البـشر، جميعهـم لا يـرى سـوى أن العنـف هـو الوسـيلة الوحيـدة لبقائـه، حتـى صـار العنـف سُـنة الجميـع، هـذا عـلى مسـتوى الساسـة أمـا الرعيـة فكانـوا سـباقين فى ذلـك، فلـم تكتـف زوجـة أبـى بـما كانـت تمارسـه معنـا مـن عنـف بـل ازدادت الأمـور سـوءًا بعـد مقتـل والـدى، فتحولـت هـذه الخبيثـة إلى عاهـرة تجلـب إلى بيتنـا الرجـال، لم أكـن أطيـق رؤيـة أحدهـم فى بيتنـا، أفـر كمـن تطـارده السـباع للهـو مـع أصدقائـى

أو التسكع فى الشوارع حتى ساعات متأخرة لأضمن نومهم عند عودتى فى الصباح ولكن ما كان يفزعنى هو ما يرويه لي أخى وكان يجعلنى انتفض حزنًا كعصفور بللته أمطار الشتاء ، ذات يوم أخبرنى بأنه فى مساء أحد الأيام استضافت رجلًا فى المنزل وقد أعدت المرأة طعامًا لم تصنع مثيلًا له من قبل عددًا ونوعًا، أرز ولحوم وسلاطة، كان الرجل يشاركها الطهى، وبعد الانتهاء منه، أعدت صحنًا من الأرز لأخى وقالت له « أذهب إلى غرفتك، ولا تتناول حبة واحدة قبل أن تحصى عدد حبات الأرز فى هذا الطبق لتخبرنى به فى الغد، أى خطأ سيحرمك من الطعام فى اليوم التالى» كان أخى طفلًا صغيرًا بريئًا، أخذ الكلام على محمل الجد فى حين سخر الرجل وقال «لابد أنكِ تمزحين؟» ولكنها نفت «بالطبع لا» ثم أشارت لأخى بدخول الغرفة وتنفيذ ما قالته، بات أخى ليلته يحصى حبات الأرز وحين يخطئ يبدأ من جديد، ظل هكذا طوال الليل حتى غلبه النعاس دون أن يتذوق حبة واحدة، وحين استيقظ وجد حشرات تزحف بينها، فأزاحها بيده وبدأ العد من جديد، ليست المشكلة فى ذلك فقط ولكن حين أخبرها بالعدد قالت له «أنت كاذب لعين، ليس هذا الرقم الصحيح، محروم من الطعام حتى مساء الغد» للأسف لم أعرف بالأمر إلا حين بكى أخى جوعًا فى صباح اليوم التالى، عندها تسللت وأحضرت له قليلًا من الخبز وبعض قطع الخضر، أكلها كلها حتى شبع بينما أنا تمنيت لو كان لدى من القوة والشجاعة وقتها لأخنقها حتى الموت، ظلت تستضيف الرجال بحجة الحصول على مصاريف تكفى لسد رمقنا، وفى هذا الوقت بدأت تأمرنى بالعمل،

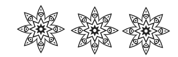
وكان العمل المناسب لها من وجهة نظرها لأمتهنه هو التسول، ألبستنى ملابس رثة، وحرصت على عدم تحميمى حتى لأبدو متشردًا بائسًا مثيرًا للشفقة، وفى الحقيقة كان ذلك حال الكثيرين وقتها ولكنهم لم يلجأوا لهذه الوسيلة الرخيصة، انتقت مكانًا مميزًا بجوار أحد المطاعم يتوارد عليه بعض ميسورى الحال وفى نهاية اليوم أعود لتحصل على كل ما جمعته، لم يوقفها ذلك عن ممارسة أنشطتها الليلية، وحين فطنت إلى مكرها وطمعها بدأت أنفق من هذا المال ببذخ قبل العودة للبيت وأسرب بعض الحلوى لأخى الأصغر، كثيرًا ما كانت تضربنى حين لاحظت ضعف الإيراد ولكنى كنت أتملص بصعوبة من يديها محاذرًا أن تخدشنى بأظافرها، بعد قليل أقنعتها بضرورة وجود أخى الأصغر معى لجلب مزيد من التعاطف، ولكن غرضى كان اصطحابه ليشاركنى تناول أطعمة شهية يسيل لها اللعاب، مرت سنوات على هذه الحال وفى هذا الوقت بدأت زوجة أبى إدمان الخمور والمخدرات، تصاعد الأمر معها تدريجيًا، حتى لاحظ الجميع سوء أحوالها واشتكى عدد من الجيران تصرفاتها، وكما تعلم كانت كل وسائلها للحصول على المال هو جسدها الذى ذبل بعد أن قطفت أيادى لا تحصى ثماره ولم ترويه إلا بسموم قاتلة، ازدادت شراستها فرحلتُ عن المنزل أسابيع وشهور، مرت ليالى كنت أبكى فيها على حال أخى، بت فى الشوارع والحدائق، امتهنت التسول فى أماكن جديدة، مرت شهور دون أن أرى أخى، وحين عدت بعد فترة انتظرته بالخارج وقابلته، احتضنته وقد تنامى بداخلى شعور الأبوة تجاه هذ المسكين، ولكن هالنى شكل الجروح وحجمها فى ذراعه، سمانته

وكذلك وجهه، لقد أشبعته قرصًا وعضًا، كان أخى ضعيف الحيلة لا يدرى أين ذهب أخوه ولا يدرى كيف يهرب مثله، لذا تحمل هذه الإهانات وهذا الألم مقابل بيتًا يؤويه، استشطت غضبًا وعزمت أمرًا وجعلته سرًا، وأخبرت أخى ألا يخبر أحدًا بمقابلتى ووعدته بالعودة، فما كان يعترينى من هم وألم لم يكن ذا بال مقارنة بإشفاقى على أليساندور وما كان يلقاه من ألم بشكل لا يستقيم مع طفولته، لذا راقبتها عدة أيام، علمت مقاصدها والطرق التى تسلكها حين تغادر البيت، وفى ذات ليلة شتوية غاب عنها القمر فى شهر ديسمبر من العام 1950 شرع روبيرتو روسّى فى أولى خطواته نحو تحقيق العدل وكان عمرى وقتها 15 عامًا.

اختفت هذه المرأة للأبد ولم يعثروا أبدًا على جثتها وكيف يفعلون وقد صارت طعامًا لأسماك البحر بعد أن وضعتها بيدى مربوطة بسلاسل من حديد فى قاع البحر؟ وهو الفعل الذى شكرنى عليه أخى لاحقًا لأنه بحسب روايته كان قد شرع فى البحث عن طريقة غير مؤلمة للانتحار، حسنًا فإذا كانت الحياة بين أخى الصغير وتلك المرأة حتمًا ستسفر عن جثة، فلتكن جثتها هى حيث لن يفتقدها أحد أبدًا تلك المدمنة العاهرة بل على العكس سيتمتع الجميع براحة فى عدم وجودها، بالطبع لم يمر الأمر مرور الكرام على رجال الشرطة، استمرت تحقيقات وتحريات لم تصل بهم لشىء؛ لأنه لا جثة، ربما هربت ماتت ولكن لا أحد يحاسب لاختفاء أحد.

كـما تعلـم يـا صديقـى كان الأمـر بسـيطًا، عـلى المـرء دائـمًا أن يتحمـل عواقـب أفعالـه ولا نلومـن رد الفعـل بـل اللـوم كل اللـوم عـلى مـن أفـرط فى الظلـم وتمـادى فى الـشرور وقـد أسـاءت كثـيرًا لى ولأخـى ونحـن صغـارًا ضعافًـا.

فيـما بعـد هـذه الحادثـة قررنـا أنـا وأخـى تـرك أمـر التسـول للأبـد، سـنعمل ونكـد ونجنـى ثمـرة عرقنـا، بـدأت الحيـاة تبتسـم لى ولأخـى تعويضًـا لنـا عـن سـنوات عمرنـا الأولى، لكـن ذلـك لم يمنعهـا مـن أن تديـر لنـا وجههـا البغيـض بـين الحـين والأخـر.



«فی ساحة القتال اسدِ لنفسك معروفاً ومت بسرعة!»

(4)

عاصم

الجزيرة - مارس 2015

كانت خطوات الحراس بطيئة وهم يقتادون عاصم لحلبة القتال التى ستجمعه بخصمه آكل لحوم البشر، لا يدرى هل يملكون أى مشاعر من أى نوع تجاهه أو تجاه خصمه، من سيشجعون أم أنهم فقط يؤدون عملًا مكلفين به؟ عبروا به باب الرواق ثم ساروا به عدة أمتار أخرى، كان يشعر بنعومة الأرض من تحته، عيناه لا تعمل بشكل جيد بفعل فاعل، وأذنه لا تلتقط سوى وقع خطواته هو والحراس، حارس على يمينه وآخر على يساره ويبدو أن هناك ثالث ورابع يسبقاهم، يسيرون جميعًا فى ممر ضيق طويل على جانبيه توجد مشاعل معلقة، هذا يفسر ارتفاع الحرارة التى تنبعث من الجدران الحجرية المطلية باللون الرمادى، بعدما عبروا الممر ارتقوا بضع درجات من الدرج، درجاته رخامية ملساء باردة الملمس، قبل أن يتوقفوا لمعالجة مزلاج آخر لباب آخر، لكن منصفين كانت خطوات عاصم هادئة لا تشعر معها بتردد أو خوف، هذه ليست خطوات رجل سيصارع آكل لحوم بشر، ليست خطوات رجل قد يلقى ميتة شنيعة بعد قليل، فقط هى خطوات رجل مشوش البصر.

المشـهد مـن أعـلى يبـدو عجيبًـا، هـذه ليسـت حلبـة قتـال معتـادة كحلبـات الملاكمـة والمصارعـة التـى تشـاهدها فى تلفـازك، إنهـا سـاحة نصـف دائريـة أو فلنقـل بيضاويـة يقـترب قطرهـا مـن الثلاثـين مـترًا محاطـة مـن الخـارج بسـور مـن قضبـان حديديـة عاليـة، أرضيـة هـذه السـاحة خشـبية تغطيهـا طبقـة رقيقـة مـن الرمـال الناعمـة، إذا ما سـاءك الحـظ ووقفـت فى قلـب هـذه السـاحة فسـيهولك المنظـر لأنـك سـتفاجأ بأنـك أمـام مـسرح حجـرى مـدرج كبـير يحيـط بالنصـف الدائـرة بشـكل مقـوس، أُعِـد خصيصًـا لحضـور الجماهـير لمـا سـيتم عرضـه فى السـاحة، لا داعـى لذكـر بأنـه لا سـقف أو غطـاء يقبـع فوقهـا، هـذه السـاحة مكشـوفة للسـماء، تحيـط بهـا كشـافات كثيفـة الضـوء مسـلطة عـلى السـاحة فى حـال إقامـة الجـولات ليـلًا كهـذه الجولـة، المـدرج مكتـظ بجمهـور يقـدر بالمئـات أغلبـه عـارى نصـف جسـده العلـوى وكأنـه فى حفلـة شـاطئية لـو أرهفـت السـمع ستسـمع غطغطـة المـوج وسـتلتقط أنفـك رائحتـه، قـد يكـون بإمكانـك هـذا لـو كنـت مشـاهدًا، أمـا كمقاتـل فلـن تشـم سـوى رائحـة الجنـون فى كل مـا يـدور.

وصـل عاصـم الى السـاحة، شـاب أسـمر رشـيق مفتـول العضلات، قـوى البنيـة، منكـوش الشـعر أشـعثه، كواحـد مـن أبطـال الأفـلام الهنديـة بعـد مواجهـة دسـتة مـن الرجـال وكمصـارع رومانـى قديـم يفصلـه عـن المـوت خطـوة واحـدة، القنـاع عـلى عينيـه حجـب عنـه بشـكل كبـير رؤيـة مـا ذكرنـاه سـابقًا بصـورة واضحـة بينـما أذنـه تسـمع صيحـات وصافـرات وتشـجيع لا يـدرى إن كانـت مـن نصيبـه أم نصيب خصمـه، عـلى أيـة حـال تعجـب فى قـرارة نفسـه مـن وجـود متفرجـين لهـذه المواجهـة، كان يظـن أنهـا مجـرد وسـيلة شـنيعة للقتـل ولكـن يبـدو أن القتـل ليـس الهـدف الأوحـد هنـا بـل للمتعـة هنـا مـكان.

كان عاصم قبل دخوله الساحة هادئًا ولكن بمجرد شعوره بأنه وسيلة ترفيه تسلل إليه الفزع والقلق بغتة، لا يدرى سببًا لذلك ولكنه ما حدث.

هنا غريزة البقاء هى الفيصل هى الحكم، من كانت لديه غريزة البقاء أقوى حتمًا سيمر. ومن يجتاحه الخوف سيشهد نهاية مروعة لم تزر كوابيسه من قبل.

فى مركز الساحة الدائرية وقف عاصم مأخوذًا جراء هذه الأجواء، إنه مقاتل طالما قهر أعداء ولكن فى قلب هذه الساحة كان جزءًا من لعبة غرضها الانتقام ووقودها الجنون، شعر بالحارس ليحرر يديه من قيدهما، ليربطه بقيد جديد، سلسلة معدنية طرفها الأول يلتف حول معصمه الأيسر مسببة له ألمًا بسيطًا، بينما الطرف الثانى ملتف حول معصم آخر لجسد ضخم يقترب وزنه من مائة وستين كيلو أى ما يقارب ضعف وزن عاصم الذى مازال يحتفظ بجسد رياضى ممشوق وعضلات لم تذبل بعد تزين هذا الجسد المنهك بلا شك جراء الحبس، يمتاز الخصم الذى سيقابله عاصم بضخامة كل جزء من جسده، رأس كبير حتى وهو مغطى، وكف عريض مفلطح وذراع طويل ممتلئ، هذا ثور آدمى قادم من أسطورة إغريقية قديمة وعلى عاصم قتله ليحتفظ بروحه ساعات أخرى لا يعلم ماذا ستقدم له من صنوف العذاب.

الصيحات تعلو من حناجر الحاضرين وأغلبهم من سكان تلك الجزيرة الصغيرة، عددهم يقدر بالمئات وهو عدد كافى

لإشعال الحماس فى المتنافسين وباقى الحضور الذين تباينت هيئاتهم بين ملابس رياضية وبين أزياء كلاسيكية بسيطة، تراوحت أحوالهم بين تصفيق ونظرات دهشة من عرض لا يتاح للكثيرين مشاهدته، حقيقة لا يشاهده إلا فئة محدودة للغاية، يمكن التمييز بوضوح بين كلا النوعين من الجمهور، خاصة وأن كلًا منهما يحتفظ بمكانه المخصص له داخل المدرج، ولكن من هؤلاء أشباه العراة المتجمعين فى جزء محدد؟ ومن هؤلاء المتأنقين الهادئين المدهوشين؟ يمكن بقليل من فراسة تخمين النوع الأول بأنهم من أهل الجزيرة، لذا يتعاملون كأصحاب مكان بحرية تامة من حيث الملبس وحرارة التشجيع وربما يعود ذلك لأن أغلب سكان الجزيرة لا يغادرونها إلا نادرًا والأكثرية العظمى لا تعرف عن العالم الخارجى إلا القليل، يعيشون حياتهم وفقًا لمعطيات الجزيرة وما تجود به الطبيعة هنا ومباراة قتالية كتلك التى يشهدونها حدث ممتع يتجمعون حوله تكفل لهم دقائق وربما ساعات من الإثارة.

دق جرس لا يريانه المتجالدين بشكل قوى فصار كل من الطرفين فى مواجهة الآخر، عاصم يرى بشكل مشوش جسد ضخم لا يتبين تفاصيله بوضوح ولكنه يجاهد حتى لا يفاجئه خصمه، والأخر ليس بقناص ولا حاد البصر بل يبدو أنه يعانى من ضعف فى البصر، وله جسد ضخم كالثور بدأت المواجهة بين خصمين يقتربان من العمى بشكل مقصود بفعل قناع يضر أكثر مما ينفع ، يثنى ذو الجسد الضخم نصفه العلوى ويتخذ وضعًا متحفزًا لتوجيه الضربات، بينما عاصم يتحسس قيده يحاول من

خلالـه استشـعار حجـم هـذا العـدو الماثـل أمامـه، بينـما تهـب عـلى رأسـه فجـأة كلـمات مقـدم يحيـى التـى وجهها لـه حـين سـأله قبـل إحـدى العمليـات هـل هـو خائـف أم لا فجـاءت إجابتـه «مقـدار الأدرينالـين الـذى سـيضخه جسـدك لـو خفـت، هـو نفسـه مقـدار الألم والمعانـاة التـى سـتتكبدها مـع كل مواجهـة، لا خـوف، لأنـه لا خسـارة، إمـا مكسـب أو مـوت، والمـوت عـلى أرض المعركـة شرف كل مقاتـل» تذكـر هـذه الكلـمات بينـما جسـده انجـذب فجـأة بشـدة واحـدة مـن خصمـه فسـقط عاصـم مكفيًـا عـلى الأرض عـلى وجهـه وقـد أدرك خصمـه بـأن منافسـه خفيـف الـوزن لا يماثلـه حجـمًا، لـذا وقبـل أن يفهـم عاصـم جذبـه مـرة أخـرى إليـه رافعًـا ركبتـه لتصطـدم ببطـن عاصـم ليباغتـه ألم شـنيع جـراء هـذه الضربـة، لم يلبـث بعدهـا أن أمسـكه الثـور الآدمـى مـن رأسـه بيـده المربوطـة ويسـدد لـه لكمـة أسـفل ذقنـه، قفـز الـدم عـلى إثرهـا مـن فـك عاصـم، كررهـا ثانيـة وثالثـة لتتناثـر الدمـاء حـول فـم عاصـم يخفيهـا القنـاع ولكنـه يشـعر بهـا ولكـن، هنـا يمسـك عاصـم بكـف الرجـل ليبـدو جليًـا الفـرق الشاسـع فى حجمهـما، وقبـل أن يتفـوق عليـه هـذا الثـور، وجـه لـه ضربـة ببطـن قدمـه اسـتقرت بـين فخذيـه، سـببت ألمًـا مريعًـا لصاحـب الجسـد الضخـم وأعـادت لعاصـم قليـلًا مـن الثقـة، وقبـل أن يسـتفيق غريمـه مـن الضربـة الأخـيرة يجـرى عاصـم موجهًـا رأسـه للجسـد الضخـم فيسـقط كلاهمـا، بينـما الحـماس يشـتعل فى المدرجـات، كان عاصـم خفيـف الحركـة فنهـض عقـب السـقوط وهـو يتحسـس بيـده هـذا الجسـد الضخـم، الآن أدرك الفـرق بـين كلا الوزنـين، قـد تبـدو هـذه نقطـة فى صالـح غريمـه ولكنهـا تعنـى بـطء حركتـه، لابـد مـن

وجـود نقطـة ضعـف يسـتغلها عاصـم، تبًـا لهـذا القنـاع، لا بـد وأنـه مصمـم لجعـل الرؤيـة شـاقة، بسرعـة سـقط عاصـم بكوعـه عـلى الجسـد الممـدد عـلى الأرض لتصـدر عنـه أهـة قويـة شـتتها أصـوات الحضـور تفاعـلًا معهـا، ثـم وجـه لـه عاصـم عـدة لكـمات أسـفل وجهـه، هنـا كل ضربـة تعتـبر مغامـرة لأنهـا إن لم تصـب الهـدف قـد تصطـدم بـالأرض أو تصيـب الهـواء وفى كل الأحـوال سـتمنح عـدوك فرصـة تعديـل أوضاعـه واسـتغلال ثغـرة منحتهـا لـه بنفسـك، وبينـما الضربـات تنهـال عـلى وجـه الجسـد الضخـم تتحـرك ذراعـه باتجـاه رقبـة عاصـم لتحكـم راحتـة قبضتهـا عـلى رقبـة عاصـم، تخـور قـوى عاصـم فجـأة يضـع يديـه عـلى يـد الرجـل فى محاولـة لتخليـص رقبتـه، ينهـض الرجـل جالسًـا عـلى الأرض يتمسـك بهـذه الوضعيـة، جحظـت عينـا عاصـم أسـفل غطـاء رأسـه وهـو يحـاول تخليـص نفسـه مـن هـذا الوضـع الـذى قـد يكلفـه خـروج روحـه لـو اسـتمر قليـلًا، يـده مازالـت قابضـة عـلى عنقـه، فى محاولـة مسـتميتة يمـد عاصـم يـده ليبعـد قبضـة هـذا الحيـوان عـن رقبتـه، ولكنـه قـد أحكـم زمـام الأمـور، هنـا يحـرك عاصـم وجهـه لأسـفل ليغـرز أسـنانه فى ظهـر كـف عـدوه، ضغـط عاصـم بأسـنانه عـلى يـد الرجـل التـى تخنقـه، عاصـم يعـض بقـوة لا مثيـل لهـا والرجـل أمامـه يـصرخ جـراء هـذه العضـة، حجـم الألم الناتـج عـن هـذه الوضعيـة بـدى عـلى الجـزء الظاهـر مـن وجههـا، تخـف قليـلا قبضـة الرجـل فيزيحهـا عاصـم بيـده الأخـرى بينـما باليـد الأخـرى للرجـل يوجـه لعاصـم ضربـة قويـة أسـفل أذنـه تتحـرر عـلى إثرهـا كـف الرجـل مـن بـين أسـنان عاصـم، هنـا يشـعر عاصـم بمـذاق كريـه فى فمـه، لقـد

استحوذ على جلد ظهر الكف فى فمه ومعه بعض قطرات من الدماء وإلا فما هو هذا السائل الذى يشعر به لسانه، تقزز قليلًا جراء الفكرة وكاد أن يفرغ ما فى معدته جراء شعوره بأنه تناول لحم آكل لحوم بشر ولكنه تماسك وتذكر ما كانوا يأكلونه عن طيب خاطر فى فرق الصاعقة من حيوانات كريهة ميتة، هنا أيقن بأنه سيفعل ما لم يفعله من قبل لقتل هذا الجسد الذى قضم جزءًا منه بالفعل. حتى لو وصل الأمر لشرب دمائه نقطة نقطة، نهض عاصم واقفًا بسرعة ليمسك برأس الرجل الجالس على الأرض إحدى يديه تمسك باليد المصابة التى تسبب له ألمًا شنيعًا، ثم بركبته وجه له عاصم عدة ضربات، عادت رأس الرجل لتسقط على الأرض من جديد وهو فى شبه غياب عن الوعى، شعر عاصم بالحماس جراء انتصاره المؤقت فغريمه نائم على الأرض يبدو فى حالة سيئة لن تنتهى إلا بخروج روحه كما يتمنى عاصم، وبسرعة يقفز عاصم فى الهواء عاليًا ليلقى بثقل جسده كاملًا على خصمه، مصحوبة القفزة بصرخة يحمس بها عاصم نفسه وقبل أن يصطدم عاصم بالجسد الملقى على الأرض، يرفع الجسد النائم ساقه لأعلى فيصطدم جسد عاصم بها لتلقى به بعيدًا قبل أن تعيده قليلًا السلسة المعدنية التى تربطهما ببعض فصارت العملية أشبه بلعبة اليويو ولكن كل جسد فى ناحية، الهتاف يتعالى من حولهما وكلاهما لا يفهمانه، من يشجعون هؤلاء، ماذا يقولون، ماذا يريدون؟ كلا المتصارعين لا يهتمان فلدى كليهما خصم يريد قتله، ينهض الرجلان فى نفس التوقيت تقريبًا وكلاهما يجذب السلسة المعدنية ليعرف اتجاه خصمه، وفى

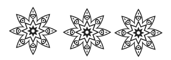
نفس اللحظة تقريبًا يتخذان نفس القرار وهو التقدم سريعًا تجاه الخصم، لكمة من الرجل تقابل رقبة عاصم بقسوة، لكمة من عاصم تقابل صدر الرجل فى وداعة، يشعر الرجل بقوته وسطوته من جديد فيقوم بسرعة بحمل عاصم لأعلى ثم إلقائه بعيدًا فتجذبه ثانية السلسلة، يتألم عاصم على الأرض، ينحنى الرجل للأمام يمسك بذراع عاصم ليضعه فى فمه، يغرس أسنانه فى لحمه، يتألم عاصم وهو يتخيل نفسه وجبة لهذا الحيوان، هنا يسدد له عاصم بقدمه ضربة فى قصبة رجله سببت الألم لكلاهما ودون تردد يوجه عاصم ضربتين جديدتين من قدمه لركبة هذا الجسد الهائل ليسقط متلويًا من الألم ، بينما أنفاس عاصم تتسارع وهو يلهث جراء ما دار فى ذهنه للحظات التالية ويصاحبها صوت المقدم يحيى فى ذهنه وهو يقول له من سنوات «لابد وأن السماء تسعد إثر قتل كل روح شريرة تصعد إليها»

يتحسس عاصم القدم العارية لجسد خصمه وكأنه يعاين شيء ما، لو كانت عيناه تعملان جيدًا ربما قد أنهى الأمر دون كل هذا الألم، ذهب إلى جسد الرجل وجه له اللكمات بيده وقدمه فى شتى أنحاء جسده بشكل هستيرى، شعر بثبات الجسد المسجى أمامه وهدوء أنفاسه، هل فقد خصمه وعيه بالكامل؟ هذا ما تمناه عاصم ، قبل أن يمسك قدمى الرجل ويباعد بينهما، ويتبعها بسرعة بقفزة عالية فى الهواء ليست على جسد خصمه ولكن بين فخذيه، سقط بركبتيه وثقل جسده على موضع حساس من الرجل، لتخرج بعدها آهة قوية من صوت شارف على الموت، جلس عاصم على الأرض والجماهير من حوله تتأوه

فى غايـة الإثـارة جـراء قفزتـه، يتحسـس السلسـة المعدنيـة لديـه، لا حركـة ولا صـوت نابـع عـن الجسـد الملقـى أمامـه، هـو أكثـر مـن يعـرف هـذا، فركبتـه شـعرت بـما قـد دهسـته منـذ ثـوان، بعـد قليـل وعقـب تناثـر الدمـاء بجـوار الجسـد النائـم عـلى الأرض، يدخـل الحـراس، يتفحصـون الرجـل، يجسـون نبضـه، لا شـىء، لقـد فـارق عالمنـا، يعلنـون انتصـار عاصـم وسـط حمـاس نـارى مـن الحضـور.

يغـادر عاصـم السـاحة دون أن يلمح فى الجهـة المقابلـة للمدرجات لافتـة مرفوعـة عـلى شـكل مسـتطيل محـاط بهـا إطـار ضوئـى متغـير كُتـب عليهـا بخـط أحمـر كبـير

(فى ساحة القتال، اسدِ لنفسك معروفًا ومت بسرعة!)



«إن الوحوش حقيقية، إنهم يعيشون داخلنا وبيننا، وأحيانًا يفوزون.»

ستيفن كينج

(5)

يحيى – القاهرة

عام 2011

مجنونة هى الأيام لا تبقى ولا تذر، وبضع من الكوارث تنتظر، حتى لو بدا غير ذلك.

الآن أنت فى أوج عنفوانك، تعيش زهرة سنوات شبابك قبل أن تذبل للأبد وقبل أن ينفصل ظلك عن جسدك، وصلت لرتبة مقدم وتحقق نجاحات متوالية فى عملك، ولديك أسرة صغيرة تتآلف من زوجة رقيقة وطفل صغير أسميته آسر قد آسرك بالفعل منذ اللحظة الأولى لمولده، هذا طفل من صلبك، يحمل كثير من قسماتك وعديد من صفات، وكأنه صورة مصغرة منك، كبر آسر وسعادتك به لا تحدها أسوار وتعلقك به ليس له سقف الآن تفهم لماذا كان والدك يسعى لتسيير حياتك وتحديد اختياراتك وفقًا لهواه، لم يكن هوى بقدر ما كانت خلاصة حياة، مشروع أخير غير مسموح فيه بالفشل، لن تألو جهدًا حتى يصير أسعد طفل ولن تتوانى عن تقديم كل الرعاية ليصير رجلًا ناجحًا، صحيح أنه ولِد مريضًا بالقلب مرضًا مزمنًا، لكن الأطباء أخبروك بأنه سيتلقى علاجًا دائمًا يحدُ من خطورة المرض وفى المستقبل سيمارس

حياتـه بشـكل طبيعـى مـا دام يتلقـى العـلاج، حتـى يتمكـن مـن إجـراء عمليـة جراحيـة فى مرحلـة عمريـة مـا تمكنـه مـن الحيـاة بشـكلٍ طبيعـى، بعـض مـن الهـم ينتابـك أنـت ووالدتـه جـراء هـذا المـرض المزمـن ولكنـك تتعايـش بمـرور الوقـت مـع هـذه الحقيقـة وهـذا البـلاء، ويومًـا وراء يـوم يكـبر آسر يتنـاول العـلاج بانتظـام ، لا تبـدو عليـه آثـار المـرض، ولكنـك عـلى الجانـب الآخـر لا تـدرى مـا تعـد لـك الأقـدار مـن مفاجـآت للأسـف ليسـت سـعيدة.

رغـم نجاحـك وسـعادتك فكيـف لـك أن تعـرف أن هنـاك مـن يُدعـى سـليمان المـلاح محكـوم عليـه بالإعـدام فى قضيـة مخـدرات وقتـل عـدد مـن أفـراد الشرطـة؟ وكيـف لـك أن تعلـم بأنـه يدعـى بأنـه بـريء وأن هــذه القضيــة ملفقــة لــه تلفيقًــا محكــمًا؟ وقــد حــاول المحامــى المكلـف بالدفـاع عنـه إعـادة المحاكمـة والحصـول عـلى حكـم جديـد إلا أن النتيجـة كانـت واحـدة فحكـم الإعـدام فى انتظـاره كقـدر لا مفـر منه. وكيـف لـك أن تعـرف بـأن هـذا المجـرم لـه ولـد وحيـد يُدعـى سـالم فى أواخـر العشرينـات يـكاد يمـوت قهـرًا عـلى والـده ويزعـم مثلـه بأنـه بـريء؟ وكيـف لـك أن تعـرف بـأن هـذا الابـن حـاول تهريـب والـده أثنـاء ترحيلـه إلى السـجن فى محاولـة فاشـلة تمامًـا لا تصـدر إلا مـن قبـل هـواة وليـس محترفـين قُتِـل فيهـا العديـد مـن رفقائـه بينـما تمكـن سـالم الابـن مـن الفـرار بأعجوبـة بعـد أن خلـف وراءه عـددًا مـن القتـلى مـن أفـراد الشرطـة ، لقـد صـار الابـن نفسـه قاتـلًا مجرمًـا مطلوبًـا عـلى وجـه السرعـة بعـد أن حـاول تهريـب والـده، وكيـف لـك أن تعلـم بأنـه مـازال يـصر بـأن والـده بـريء تمامًـا كطفـل رضيـع وأنـه مسـتعد لتقديم حياتـه نفسـها لـو كانـت معينًـا لـه فى تبرئـة أبيـه؟ كيـف لـك أن تعلـم بـكل ذلـك؟ ولكنـك حتـمًا سـتعلم بـكل هـذه القصـة بـكل تفاصيلهـا

صغيرها قبل كبيرها حين يقرر هذا الابن اللجوء لحيلة خطرة وقذرة، بعدما تمادى فى اللعب بالنيران وصار كالمجنون لا يمكن التنبؤ بخطوته القادمة، يقرر مساومة رجال الداخلية والعدل من أجل إيقاف تنفيذ الحكم وإعادة المحاكمة وكانت وسيلته لذلك جريمة لم تخطر ببال الشيطان نفسه؟ عملية خطف يُخطط لها بأحكام وتُنفذ بإتقان ودون إراقة نقطة دم واحدة، لم يكن ولدك هو الطفل الوحيد المخطوف بل أتوبيس مدرسة كامل تم توقيفه أثناء سيره فى منطقة هادئة نوعًا وقبل أن يفهم السائق دخل فى سبات عميق إثر جرعة مخدرة رشها أحدهم فى وجهه بينما الأطفال جميعهم فى حالة توجس مشوبة بذعر وقبل أن يفهموا هم أيضًا لحقوا بالسائق فى عالم الأحلام التى لم تكن سعيدة أبدًا هذه المرة، بالطبع كان طفلك أحدهم ومعه خمسة عشرة طفلًا آخرًا ومشرفة لم يكن مصيرها بأحسن حالا من باقى الأطفال، كانت الخطة بارعة بحق بمجرد أن نام الأطفال تم نقلهم لسيارة نقل أخرى توجهت على الفور لمكان مجهول بينما سيارة المدرسة ملقاة فى وسط الطريق بشكل استفزازى لافت يثير الحنق وليس بها أثر واحد أو بصمة تشير لهوية الخاطفين، فى ظرف دقائق انتقل الخبر بسرعة التيار الكهربى ليسود العناوين الأولى للقنوات والإذاعات، اختطاف ستة عشر طفلًا فى ظروف غامضة، لغز اختفاء الأطفال ومخاوف من مصير قاسٍ، تجارة الأعضاء البشرية ربما تكون المحرك الأساسى لعملية الخطف، شهادة حق ينبغى أن تُقال لقد برعت الصحف فى إثارة هلع الناس، واستغلت المادة الدسمة لخطف أطفال بهذا العدد أيما استغلال بل ونفذت حرفيًا ما خطط له المختطف من إثارة ضجة مدوية بهذا الحادث حتى إذا ما عرض مطالبه فإنها

تفتح مجالًا لإثارة تساؤل جاد بشأن ادعائه بمظلومية والده .

وبعد مضى 24 ساعة على اختفاء الأطفال تتلقى أنت تحديدًا دون سواك اتصال هاتفى قصير من صوت نزعت من قلبه الرحمة وحجبت عن عقله الحكمة ليخبرك بأن سلامة الأطفال مرهونة بطلبه الغريب والوحيد وهى إعادة محاكمة سليمان الملاح وفتح التحقيقات مجددًا مع أسماء بعينها ، تحاول إبلاغه بمرض ابنك والدواء اللازم تناوله تفاديًا لتعرضه لأى أزمة تجعل حياته على المحك ولكنه لم يمنحك الوقت لذلك بعد أن أغلق الخط .

تبكى زوجتك ووالديها بينما والدك يحاول التمسك برباطة جأش هشة تتمزق بمجرد أن يصير بمفرده، أما أنت فتقوم بالفعل الوحيد المنطقى الذى لا تملك سواه وهو إبلاغ الشرطة بشأن المكالمة المشئومة، لن تُجدى الدموع ولن يفيد الاعتراض على تصاريف القدر بأسئلة من قبيل لماذا نحن؟ وما الذى يمكننا فعله؟ ، لقد تم الأمر ولا مجال للخروج من هذا الموقف إلا بالتأنى والانتظار، فما يطلبه خارج استطاعتك، ربما كان الأمر أيسر لو كان المطلوب فدية أيًّا كانت قيمتها وقتها سيكون لديك فرصة للتفكير وحسم الصراع بين كونك أب يخاف على ولده وبين كونك عسكريًا لن يسمح لمجرم بابتزازه ولكن حتى هذا الاختيار العسير لم يتح لك، لقد أراد المساومة بأسوأ طريقة ممكنة، ربما كانت العشوائية وراء اختياره لهذا الاتوبيس وربما كان مقصودًا، على أية حال هذا سؤال لا يهم كثيرًا، المهم الآن الحالة التى عليها الأطفال؟

وكيف تتم معاملتهم من قبل هؤلاء المجرمين؟ أما ولدك فإنه بحاجة ماسة للحصول على جرعته من الدواء، إجمالا لم تكن

هـذه هـى الكارثـة الوحيـدة، ولكـن تعامـل الشرطـة مـع جريمـة الخطـف مخزيًـا مـن وجهـة نظـرك لقـد تعامـلا معهـا مـن وجهـة نظـر وحيـدة وهـى الحفـاظ عـلى هيبـة القانـون، لم يفكـروا مطلقًـا فى إعـادة فتـح المحاكمـة كـما طلـب المختطـف، فقـط تعامـلا معهـا كأى قضيـة اختطـاف بمحاولـة تعقـب المجـرم والتحقيـق فى كيـف تـم عمليـة الاختطـاف؟! وهـل كان لديـه معاونـون وسـؤال عـدد مـن شـهود لم يـروا أى شيء، بعـد يومـين وبينـما قلبـك منفطـر والنـوم رحـل دون أى بـوادر للرجـوع يأتيـك اتصـال جديـد مـن المختطـف، يتحـدث بنفـس النـبرة البـاردة القاسـية لا يسـتمع إليـك ولا إلى تهديـدك الـذى تحـول إلى رجـاء فى لحظـات مـن شـدة خوفـك عـلى ولـدك، فقـط يعطيـك اسـمًا بالـغ الأهميـة سـتحفظه عـن ظهـر قلـب (حسـام الميرغنـى) فى محاكمـة والـده ، يطلـب منـك إبلاغـه للمسـئولين ويلقـى عـلى مسـامعك جملـة لـن تُمحـى أبـدًا مـن ذاكرتـك

- حيـاة ولـدك متوقفـة عـلى إعـادة فتـح التحقيـق مـع هـذا الاسـم وإعـادة المحاكمـة

- ابنـى مريـض بحاجـة للـدواء، ابقـه سـليمًا حتـى يتـم لـك مـا تريـد

تنتهـى المكالمـة دون أن يعطيـك وعـدًا بذلـك، ويتحـول قلبـك لقطعـة مـن الجمـر تـكاد تحـرق باقـى جسـدك بينـما دموعـك تنهمـر لتحفـر طريقًا أسـودًا أسـفل عينيـك، لقـد مـرت ثلاثـة أيـام دون أن يتنـاول ولـدك جرعتـه اليوميـة مـن الـدواء وأنـت تـرى بعـين الخيـال ولـدك يعانـى جـراء مرضـه وتبـدو عليـه آلام لطالمـا حرصـت عـلى ألا تظهـر أبـدًا، وبعـد أن تخبرهـم بـما طلبـه منـك المختطـف، تُفاجـأ بطلبهـم المدهـش:

– اصمت.. فقط لا تخبر أحدًا وابنك سيعود.. إنها مسألة وقت، لقد اقتربنا من الوصول إليه

وفى اليوم التالى يصدر قرارًا بحظر النشر فى قضية كانت مادة دسمة للصحافة والإعلام، وقتها فقط تقرر دراسة هذه القضية بشكل تفصيلى، تحصل على أوراق القضية وتدرسها بشكل عاجل وتتطلع على حيثيات الحكم، هناك العديد من الأمور التى تجعل من اتهام هذا الرجل (حسام الميرغنى) أمرًا غير منطقيًا فما بالك لو كان الحكم هو الإعدام ، أما الاسم الذى ذكره لك المختطف والذى يُدعى حسام الميرغنى فهو لابن أحد كبار رجال الدولة، يكفيك فقط أن تلفظ بلقب العائلة ليتبادرإلى الذهن أشهر حامل للقب، الآن تبدأ الحقائق فى التكشف، وفقًا لخطة محكمة قد تم اتهام سليمان الملاح والتضحية به، بشكل ظاهرى ووفقًا للأوراق والمستندات فسليمان شيطان يستحق الشنق أو الصعق، وفقًا للفحص بعين خبيرة تفهم الثغرات وتعى الهفوات، هذه القضية ملفقة والاسم الذى ذكره المختطف يؤكد ذلك، لقد مر أسبوع دون جدوى ودون جديد، لا أخبار ولا معلومات كيف حال آسر؟ هل يتناول الدواء؟ هل يعامل بشكل جيد؟ أين يُحتجز؟ وما المصير الذى ينتظره؟ القلق والذعر يعبثان بأعصابك كيفما شاءا كما تعبث الريح بورقة، يصل خبر القضية إلى باقى أسر الأطفال وتتفقون جميعًا بأنه ما من سبيل للخروج من هذه الكارثة إلا باعادة فتح المحاكمة حتى يعود الأطفال ولكن الرد الغبى فى الانتظار

« وما مصير هيبة الدولة لو أقدمنا على ذلك؟ لو استجبنا له لتعرض أبناؤنا جميعًا للاختطاف لإعادة التحقيق فى قضايا مختلفة وأكثر تفاهة من تلك القضية، فقط الصبر من فضلكم!

أشعر بمصيبتكم وأقدر ألمكم ، لذا سأخبركما بأمر عظيم.. اليوم هناك عملية اقتحام لأحد الأماكن التى يُعتقد بوجود المجرم فيها، هذه معلومات سرية وأعلم أنكم ستكونون أحرص منى على عدم إعلانها للحفاظ على سلامة الأطفال»

لم يكن بيدك سوى الانتظار والدعاء بمرور هذه المحنة على خير لقد صارت الحياة كابوسًا طويلًا لا يحتمل ولكن هل يحمل لك الغد فجرًا جديدًا مشرقًا ؟!

بحثت عنك بالشك
لم أعثر عليك قط
إلى لقائك ذهبت
فيما هو أكثر عمقًا تغلغلت
لرؤية ما إذا كنت فى النهاية حاضرة
جرحت نفسى بالكرب
الممزق لنياط القلب

بدرو ساليناس- شاعر أسبانى

❊❊❊

(6)

روبيرتو روسّى– إيطاليا

عام 1955 1950-

تركنا أنا وأخى الماضى وراءنا واتجهنا إلى جنوة التى تقع فى شمال غرب إيطاليا وتعتبر واحدة من أهم الموانىء فى البحر المتوسط، مدينة يمكن لصبيين مثلى أنا وأخى البدء فيها والعثور على عمل، جنوة مدينة صغيرة جميلة تطل على البحر، عدد سكانها قليل، لكن رزقهم واسع،عشقتُ أنسامها وهمتُ بشواطئها، لذا كان عملى فى الميناء مدعومًا برغبة مضافًا إليها شعورًا بالمغامرة والإثارة، سفن تضحك قادمة وأخرى تصرخ مودعة، وجوه من شتى بلدان العالم، لهجات ولغات، أشكال وألوان لتجار وبحارة وقباطين، تدرجتُ فى العمل من حمال ينكسر ظهره جراء عمل شاق طيلة النهار إلى عامل مأجور بأحد الوكالات ثم مسئولًا عن مخزن، ثم تاجرًا وبحارًا، صفتين اتسمت بهما مهدا لى الطريق وفتحا لى القلوب، الأمانة والإصرار، وجودى فى هذا المكان علمنى بأن الأمانة صفة نادرة بين البشر، الجميع لا يتوانى ولا يتورع عن خسة أو دناءة بين الفينة والأخرى، وكأن الأصل فى الإنسان خسته، الطمع والرغبة

فى جمع الأموال تسيطر على العقول حتى لو كانت السبل لذلك ملتوية مشبوهة، فقط أدر ظهرك لمن تحسبه وفيًا وستكتشف لاحقًا أن كل الجروح التى تدمى ظهرك وقعت بسكينة وكل قطرات الدماء التى فقدتها سببها طعناته، وكان أكثر ما يؤلمنى هذا الشعور بالخيانة حتى لو لم أكن أنا المخدوع، فى سن الثامنة عشر حين كنت عاملًا بوكالة للاستيراد والتصدير كان هناك محاسبًا يجاهد لتزييف أرقام الصادرات والواردات حتى يضع جزءًا ليس يسيرًا فى حسابه الخاص، كنت وقتها صغير السن أنظر بعين الاعتبار لرجل متعلم مثله ولكنه لم يتوقف عن سرقة صاحب العمل، بل عرض علىّ رشوة بحجة إعانتى على صعوبات الحياة ولكنها فى حقيقة الأمر ثمن سكوتى، قبلتها بداية كان المبلغ كبيرًا ومغريًا ولكنى طوال هذه الليلة شعرت بدونيتى وخيانتى للأمانة تجاه الرجل الذى يجزلنى العطاء لمجهودى ورعايتى لعمله، لم أنم ليلتى وقد وقعت على ورقة انضمامى لصفوف الخائنين بقبولى هذا المال، فى اليوم التالى ذهبت إلى صاحب العمل أخبرته بما يدور وراء ظهره وطلبت منه الصفح، ربت على كتفى ثم استدعى الراشى كال له الاتهامات ونعته بما يستحقه من صفات ثم طرده من العمل وحرم عليه الاقتراب من تجارته وشكرنى على أمانتى. وفى الليلة التالية خرج على رجلين قطعانى ضربًا وركلًا ثم أهديانى طعنة سكين بجانبى، وتركانى فى غيبوبة أواجه الموت، لم يكن الاعتداء بهدف السرقة أو ما شابه ولكنه انتقامًا من المحاسب وكاد يردينى قتيلًا لولا بعض المارة كانوا شجعانًا بما يكفى لينقلانى لمستشفى تنقذ حياتى، أراك تضحك يا صديقى وتكاد تذكرنى بجريمة القتل التى ارتكبتها، وكأنك لم تتعلم شيئًا مما أقصه عليك، لا رادع لبشر ولا مجال للإصلاح،

ذلك المحاسب لم يصبه ندم جراء جشعه ولن يتوب عن خيانته بل سلط علىّ من يقتلنى بينما هو فى طريقه للبحث عن آخر ينال ثقته ثم سرعان ما يخونه، حتى هذه المرأة لم يشفع معها توسلات أخى ودموعه واستهزأت بنظراتى وظلت سنوات طويلة تواصل جرائمها تجاهنا، فما الذى ينبغى عمله تجاه هؤلاء؟ الصبر عليهم حتى مماتهم ليرتاح العالم منهم بعد أن يتكاثروا ويتوالدوا ليجلبوا مزيدًا من الفاسدين؟ أم أتركهم لضمائرهم التى دفنوها حية فى مستنقع آثامهم ولا أمل فى إحيائها من جديد؟

لا خير فى الصبر عليهم أو محاولة وعظهم والعدالة تقضى بالتخلص منهم عقابًا على جرائم اعتادوا عليها وظنوا إفلاتهم بها ورحمة بآخرين معرضين لغدرهم.

بعد هذه الحادثة قربنى صاحب العمل منه، تعاطف معى بلا حدود لكونى كنت على وشك الموت بسبب أمانتى، ائتمننى أكثر على تجارته وأمواله وكنت أثابر وأعافر لإثبات جدارتى بهذه الثقة، وحين بلغت العشرين عامًا تعرفت على فتاة رقيقة تعمل فى الميناء، وجودها يضفى نوعًا من البهجة بضحكتها المشرقة وخطوتها الخفيفة وشعرها الثائر، بسيطة هى وتشعرك دومًا بالرضا يغمرها، الجميع هنا يقدرها ويبدى إعجابه بها، حديثهم عنها جعلنى أشعر بغيرة لم أعرف سببها وكأنها ملكى وحدى، حينها بدأ شيئًا ما بداخلى يتحرك نحوها، ليس ذلك فحسب بل شرعت تداعب أحلامى، صباح جميل هو الذى يبدأ بتذكر حلم لطيف جمعنى بها والطيور تغرد فى سعادة من حولنا، لم تكن تعاملنى بشكل خاص، ولكنى بدأت فى إبداء إعجابى بها بكلمات لا يمكن تجاهلها ولا يُفهم منها سوى ما عنيته وقامت عينى بإرسال إشارات تفهمها كل أنثى، فلن تتعلق عيناك سوى بمن تعلق به قلبك، تلميحات ثم

تصريح على انفراد، لم تعطنى إجابة ولكنها لا تغلق فى وجهى الباب حتى نجحت فى استمالة قلبها وصارت تبادلنى نفس مشاعرى، من السذاجة أن أتصور أنى الصياد الوحيد ولكن كم يسعدنى أن تختار فريستى شبكتى بملء إرادتها، بالطبع لا أنوى بها شرًا، هذه هى فتاتى ولن تفارقنى أبدًا، استمرت علاقتنا فى التطور لنقضى أغلب أوقاتنا بعد العمل معًا، نتسكع فى الشوارع ونرتاد الحدائق وترفرف علينا السعادة من كل جانب، عرفتها على أخى وعرفتنى على أهلها، بقى فقط تجهيز مكان يجمعنا معًا، فى هذا الوقت بدأ الاعتماد عليّ من قبل صاحب العمل فى سفرياته عبر البحار لجلب البضائع أو تصديرها، كانت لدينا رحلة لأفريقيا قد تصل مدتها إلى ثلاثة أسابيع، ودعتها وأنا أعلم بأنها ستكون أطول ثلاثة أسابيع فى عمرى، أبحرت مع السفينة وودعتنى بابتسامتها التى لم تفارقنى ساعة واحدة فى عمرى وعناق حتى الآن استشعر دفئه وأواسى نفسى لعدم قدرتى على تعويضه، فى كل ليلة قبل نومى أمنى نفسى بما ستكون عليه حياتى حين نجتمع للأبد، عددت الساعات وحسبت الأيام، حتى أنجزنا مهمتنا وأخذنا طريق العودة، حين وصلنا كان الجميع يقابلنى بهدوء و نظرات تعاطف لم أعهدها تكسو وجوههم، أين ضحكاتهم ونكاتهم واستقبالهم الحار؟ لم أجد تفسيرًا لذلك حتى قابلت أخى، ارتمى فى حضنى وأخذنى فى عناق طويل غير معتاد بيننا، سألته «ما الأمر؟» ازداد قلقى حين لمحت دموعًا تلمع فى عينيه تأبى النزول كى لا تصعب الأمور، جاءت كلماته مختنقة تغادر شفاهه بصعوبة «سيلفيا.. رحلت!» لم أفهم ما قاله فتساءلت من جديد والوساوس تعصف بى «رحلت لأين؟» فجاء رده الذى ألجمنى وشل حركتى «سيلفيا ماتت!»

كيـف؟ الشـباب لا يموتـون بـلا سـبب، لم تكـن تشـكو مـن أى شـىء، أنتـم تمزحـون مزحـة سـخيفة لا تضحـك أحـد، تخدعوننـى ولا تصارحونـى بالحقيقـة» هكـذا لم أصـدق حرفًـا واتجهـت إلى منزلهـا عـدوًا وأنـا ألهـث، حتـى قابلـت والدهـا، أخبرنـى مـن بـين دموعـه «عـدد مـن الرجـال اختطفوهـا واغتصبوهـا ثـم قتلوهـا، ووجِـدت جثتهـا صبـاح اليـوم التـالي غارقـة فى الدمـاء».

بكيـت وبكيـت وأنـا أتخيـل اللحظـات الأليمـة التـى مـرت بهـا قبـل المـوت، قطفـوا الـوردة ومزقـوا أوراقهـا ولم يبارحوهـا إلا بعـد أندهسـوها، أطفـأوا نورهـا بأيديهـم وأخـذوا عبيرهـا، وأراقـوا دمهـا، ليسـوا رجـالًا ولا ينتمـون إلى البشر مـن الأسـاس، وليسـوا حيوانـات، الحيوانـات لا تغتصـب إناثهـا ولا تقتلهـم بعـد ذلـك، بـل فصيلـة نـادرة مـن الوحـوش لهـا هيئة البـشر ليـس لديهـا وازع يمنعهـا من ارتـكاب أى وحشـية تترفـع عنهـا الحيوانـات، سـلبوها السـعادة وأبكونـى، سـلبوها الحيـاة وقتلونـى، ورحلـوا ولم يعثر هـم عـلى أثـر ولم يسـتدل عليهـم « قـل لى بـأى حـق نتحـدث عـن العدالـة عـلى الأرض وتلـك الوحـوش طليقـة؟ كيـف نتحـدث عـن الأمـان وهـؤلاء بإمكانهـم تكـرار مـا فعلوه مـع أخـرى؟ مجـرد موتهـم هكـذا أو قتلهـم ليـس عـدلًا، العـدل هـو هنـا أن ينالـوا مقـدار مـا سـببوه مـن أذى لهـا ولأهلهـا وحبيبهـا ومـن رثـى لنهايتهـا ومـن عـرف بقصتهـا مضروبًـا فى أعمارهـم، هـذه هـى العدالـة، عـذاب مقيـم لا يغـادروه، المـوت ليـس لهـؤلاء، فلأعثـر عليهـم أولًا وبعدهـا سـيلعنون أنفسـهم واليـوم الـذى جـاء بهـم إلى الدنيـا، واليـوم الـذى قامـوا فيـه بالاعتـداء، الجحيـم لـن يبحـث عنهـم بـل سأرسـلهم إليـه.



«ولكنى لم أعلم أن هناك كابوسًا فى انتظارى، لن يأتينى ليلًا، لن يزورنى وأنا نائم، لن يغادرنى ويرحل دون ترك أثر ملموس كأى كابوس يحترم نفسه، بل سيأتينى فى عز النهار ويبقى معى ويأنس بى ويتلذذ بيأسى ويتنعم بألمى ويأخذ قطعة من جسدى كما أخذ قطعة من روحى»

(7)

عاصم - الجزيرة

عـدت إلى القفـص مـن جديـد وقـد نزعـوا عنـى هـذا القنـاع ليسـتأنف ناظرى عملهـما بإخـلاص رغـم الظـلام المحيـط ولكنهـما قـد اعتـادا عليـه، عـدت وأنـا خائـر القـوى منهـك الجسـد يتسـلل الألم لأكثر مـن موضـع منـه، لقـد أفلـت مـن موتـة أليمـة مـرة أخـرى، ويبـدو أن موتـة أخـرى أكثـر بشـاعة فى انتظـارى هكـذا هـو الحـال عـلى سـطح الجزيـرة، تفلـت مـن موتـة لتقابـل أخـرى تفـوق الأولى بشـاعة، يبـدو لى المـوت هنـا قـرار حكيـم بحاجـة لشـجاعة غـير معتـادة لاتخـاذه، نـادرًا مـا يأتـى المـوت هنـا دون تدبـير، بـل يُعامـل كضيـف ينبغـى إكرامـه وتقديـم الضحيـة لـه فى أوهـن صـورة ممكنـة، حتـى ليبـدو الضحيـة هنـا شـديد الترحيـب بـه.

تجاهلـت ألمـى ومـددت جسـدى طلبًـا للنـوم وهـو أفضـل نشـاط يمكـن القيـام بـه هنـا مـا لم يكـن مصحوبًـا بكوابيـس، لا زالـت تتسـلل إلى أذنـى صيحـات وهتـاف الجماهـير، تعبـى لم يجعلنـى أتبـين أهـى أذنـى تعيـد صـدى هـذه الأصـوات مـن تلقـاء نفسـها؟ أم أن هنـاك مواجهـة أخـرى تـدور بالخـارج لخصمـين آخريـن ينتظـر المـوت أحدهمـا؟

نمـت حتـى باغتتنـى حزمـة مـن أشـعة شـمس نهـار اليـوم التـالى،

هـل مـن طيـور تغـرد وأزهـار تنمـو ونسـمات هـواء وحيـاة تعـاش خـارج هـذا المبنـى؟ لابـد وأن هنـاك قـدرًا مـن الحريـة خـارج هـذه الجـدران، حتـمًا هنـاك حيـاة، لا يبـدو لى أى أمـل هنـا، فى كل مـرة تسـوء الأمـور كان هنـاك دائـمًا بصيـص مـن أمـل يداعـب خيـالى، أمـا هنـا فقـد تخلى عنـى أى أمـل، أو لعلـه لم يـزر هـذه الجزيـرة مـن قبـل، حـين أنظـر لحياتـى أتعجـب فعـلًا كيـف أوصلتنـى إلى هنـا؟

كانـت البدايـة مـع شـعور خالجنـى منـذ سـنوات حـين أخبرنى رئيسـى فى العمـل عـن أهميـة العمليـة القادمـة أهـو قلـق غـير معتـاد أم ضيـق غـير مـبرر، ليسـت المهمـة الأولى وبالتأكيـد لـن تكـون الأخـيرة، لطالمـا اشـتركت بمهـمات ونفـذت عمليـات تصنـف حقيقـة كبطـولات دون مبالغـة، إنهـا طبيعـة عمـلى التـى أعشـقها، ومنيـت نفسي بهـا منـذ الصغـر .

التحاقـى بالقـوات الخاصـة حلـم سـعيت إليـه بـكل جوارحـى بعـد استشـهاد والـدى المقـدم زيـدان أثنـاء تأديتـه الواجـب فى مهمـة خـارج البـلاد ليـترك أرملـة وطفـل ليشـب هـذا الطفـل وبداخلـه رغبـة محمومـة للالتحـاق بكتائـب الأبطـال ، شـوقى لوالـدى وحرمانـى منـه فى سـن صغـيرة دفعانـى دفعًـا لخـوض غـمار تلـك الحيـاة التـى كان يحياهـا والـدى فى أجـواء شـديدة الإثـارة، عظيمـة الأثـر حتـى جـاء اليـوم الـذى تـم اسـتدعائى فيـه بصحبـة والدتـى لحفـل تكريـم مهيـب لشـهداء الواجـب الذيـن وضعـوا أرواحهـم فى يمناهـم رهـن إشـارة من الوطـن، وحـين صعـدت إلى المنصـة لأتسـلم درع التكريـم طلبـت مـن صاحـب الرتبـة الكبـيرة طلبًـا بـدا غريبًـا بعـض الـشيء وهـو رغبتـى فى الالتحـاق بالعمـل العسـكرى بعـد دراسـتى الثانويـة التـى أوشـكت عـلى الانتهـاء، ابتسـم الرجـل دون أن يتفـوه بكلمـة، فـما كان منـى إلا أن شـددتُ عـلى رغبتـى في الحصـول عـلى مسـاعدته لتحقيـق هـذه الأمنيـة،

لمح الرجل إصرارًا مدهشًا لا يتناسب وطبيعة عمرى، فأخرج من جيبه كارتًا شخصيًا يضم بياناته وأرقام هواتفه وقال لى جملة علقت فى ذاكرتى لفترة ليست قليلة منحتنى تأشيرة العبور لتحقيق الحلم « حين تنهى دراستك، هاتفنى على أحد تلك الأرقام»

كانت هذه الجملة كفيلة بمنحى رؤى لبطولات لم تتحقق بعد، وأساطير كنت أنا فارسها المغوار وحكايات تكفى لعشر سنوات قادمة، أما والدتى فبرغم خوفها عليّ إلا أنها لم تجد بابًا واحدًا مفتوحًا يمكنها الولوج منه لإقناعى بالعدول عن هذه الفكرة فلم يكن لها سوى أن تستجيب لحلم يراود ولدها ليل نهار.

كان حلمى أكبر من أن يجهض وأقوى من أن يزحزح أو يكسر، وافقت على مضض بعد أن صار القلق صديقًا وفيًا لها لا يفارقها ولا تفارقه. تأمل أن تقيها الأقدار صدمة جديدة، لقد مرت الأولى مخلفة وراءها جروح عميقة تدمى القلب ولا يداويها الزمان، حتى صار قلبها أوهن من أن يحتمل صدمة جديدة، حتما لو لاقاها سيرفع بعدها الراية البيضاء مغادرًا فى سعادة هذا العالم الذى سلب منها أعز ما لديها.

تدبرت الأمور بمفردها لترى ولدها شابًا يافعًا تستمد قوتها من شبابه، منحتنى حبًا أبديًا غير مشروط وصارت لى كملاك يضمد جراحى ويداعب جبينى ممسكًا بمنديل أبيض يفيض حنانًا ليطرد همومى ويمحو كوابيسى.

مرت أيام بسلام حتى تخرجت لتشهد والدتى حفل تخرجى، تسعد وتفخر بى وبنفسها، أسافر هنا وهناك، أشارك فى فرق وعمليات أتلقى دورات، حتى صرت عاصم رجلًا عسكريًا ممشوق الجسد مثالى البنية قامته أقرب إلى الطول ، بشرته سمراء محببة

تكسوها حمرة الشمس، وجهه ليس وسيمًا لكنه وجه رجل يمكن الوثوق به والاعتماد عليه. حاد الطباع مقدام، معتزًا بنفسه وعمله لأقصى الحدود ولما لا والجميع يشهد له بالكفاءة، منحت عملى كل وقتى وأخلصت له حتى صرت موضع ثقة لزملائه ورؤسائه وبت كحجر الزاوية لا يمكن الاستغناء عنه أبدًا كقناص يرى ما لا يراه الأخرون ويصل إلى ما يعجزون عن الوصول إليه. إلى هنا كانت الأمور طبيعية إلى حد كبير حتى تلقيت ذات صباح فى عام 2012 استدعاءً لمكتب القائد. كان اجتماعًا رباعيًا يضم كل من زميلى محمود ورئيسنا المباشر والقائد وأنا، بدأ القائد حديثه موجهًا كلامه للجميع:

– نحن بصدد القيام بعملية نوعية كبيرة موسعة، ربما أكبر عملية فى سيناء، سيشارك بها عدد من الأسلحة وعدد أكبر من الجنود، لست فى حاجة لأخبركم مدى أهميتها للتمكن من استئصال الخلايا الإرهابية النائمة وشراذم تلك الجماعات، ليس هناك أصعب من أن يقف على عتبة دارك حفنة من القتلة، إما أن يفتكوا بك وبأهل بيتك، وإما أن تجعلهم عبرة، لو لم نتحرك ونواجهم سريعًا فلا نعلم من التالى منا، يكفى ما فعلوه بالمقدم يحيى وباقى إخوتنا

شعر الجميع بغصة إثر ذكر ما حدث للمقدم يحيى، ولكنى كنت أكثرهم حزنًا بالطبع، فقد كان الرجل بمثابة أخ أكبر لى أقتدى به وأقدره، معلم أكن له كل إجلال، لقد تجاوزت علاقتنا العمل وصرنا على درجة ملحوظة من التقارب والتفاهم

واصل الرجل حديثه:

- فى القريب سأعطيكم تفاصيلًا أكثر ولكنى أريد منكم الآن تهيئة أكبر للجنود دون تصريح ، ليس بوسعى الإفصاح عن المزيد ولكنى بحاجة لأخبركم بأن هناك أسبوعًا كاملًا قبل العملية ستلزمونه هنا، لا أجازات، لا مكالمات خارجية، لا أعذار، استعدوا ، لكن لا حديث بشأن المهمة قبل إصدار تعليمات بذلك، أى أسئلة؟

تبادل الجميع النظرات، دون أن ينطق أحدهم بحرف، فأنهى القائد كلامه:

- يمكنكم الانصراف الآن.

غادرت الاجتماع، وقد تباينت مشاعرى ما بين فرحة للقيام بعملية تثأر لزملائى الذين قُتلوا بمنتهى الخسة وتدحر هؤلاء القتلة الذين أود لو قطعتهم بأسنانى وألقى بجثثهم للكلاب وحزن عارم على معلمى وصديقى المقدم يحيى الذى طالما شارك فى عمليات ضد هؤلاء الحثالة حتى نالوا منه منذ شهور قليلة حين فجروا سيارته بينما كان عائدًا من سيناء ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا جثته ووجدت ملابسه غارقة بالدماء، وأعلنت إحدى الجماعات تبنيها لهذه العملية وتعهدوا بالمزيد، بعدها قابلت طليقته، أخبرتنى أنها تلقت مكالمة منه قبل الحادث بيومين لكن الضربة جاءت سريعة حاسمة بعد أقل من أسبوع وشارك فيها عدد كبير من الجنود وتم قتل العشرات ممن ينتمون لهذه الجماعة، وعلى الرغم من ذلك لم يجدوا أى أثر لجثته، حتى اعترف أحدهم بأن جثته حرقت حتى صارت رمادًا .

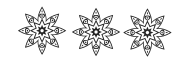
تخادعنى الدموع وتفر من عينى كلما تذكرته وتذكرت كلماته لى، خاصة تلك الجملة التى قالها لى فى لقائنا الأخير وكأنه يستشعر دنو أجله « سأقاتل حتى أخر يوم فى عمرى وسأموت مرتين لو لم تنفجر دمائى فى وجه أعدائى» كان بطلًا بحق، لم أمنح احترامًا وحبًا لأحد مثلما منحت هذا الرجل وأظنه هو الآخر كان يرى فيّ تلميذًا نجيبًا ، كان فدائيًا لم يعرف الخوف طريقًا لقلبه يومًا. فى كثير من الأحيان تتراءى لى صورته وهو يموت. لابد أنه كان يزأر وقتها، هذا رجل لا يستسلم بسهولة ولو للموت، قليلون هم هؤلاء الأشخاص الذين يتركون أثرًا فى نفسك بعد رحيلهم، نادرون هؤلاء الذين يأخذون قطعة منك مع رحيلهم ويحيى كان أحد أولئك الندرة من البشر بالنسبة لى.

تعرفت عليه فى إحدى العمليات والتى تم التنسيق فيها بين عدد من الجهات عقب انتقاله للعمل فى سيناء، فى البداية كنت أتقرب إليه إعجابًا به، كان يبدو عادة ميالًا للصمت، راغبًا فى العزلة حاولت بمودة اقتحام صمته وانتزاع الكلمات من رجل يجمع بين الحكمة والهيبة، وإلى حد بعيد نجحت فى ذلك، تحت إلحاح منى صرنا صديقين تجمعنا صفات كثيرة مشتركة أهمها الحزم والمهارة والتفوق الذين يتمتع بهم كلانا تعددت لقاءاتنا فيما بعد خارج نطاق العمل، حتى صار هو الأقرب لقلبى وعقلى، تعرفنا عن بعض عن قرب وتوطدت صداقتنا، حتى نالت جريمة خسيسة منه وتركتنى مرة أخرى أعانى عذابات الفقد.

عقب الاجتماع الذى علمت منه بالمهمة المنتظرة عدت إلى منزلى ودون كلمات اتجهت إلى فراشى متجاهلًا دعوة أمى لمشاركتها

العشـاء مسـلمًا نفسـى بكامـل إرادتـى لسـلطان النـوم، نمـت ثـم نمـت، دون أن أتقلـب فى الفـراش دون أن أحلـم، دون أن أدرى حتـى أنـى نائـم كنـت بحاجـة للنـوم أسـبوعين عـلى الأقـل، ولكنـى لم أعلـم أن هنـاك كابوسًـا فى انتظـارى، لـن يأتينـى ليـلًا، لـن يزورنـى وأنـا نائـم،

لـن يغادرنـى ويرحـل دون تـرك أثـر ملمـوس كأى كابـوس يحـترم نفســه، بــل ســيأتينى فى عــز النهــار فى وقــت يقظتــى وأثنــاء عمــلى ويمكـث معـى ويتلـذذ بيأسـى وسـيأخذ قطعـة مـن جسـدى كـما أخـذ قطعــة مــن روحــى.



بعيدًا وراء خطاه
ذئاب تعض شعاع القمر
بعيدًا أمام خطاه
نجوم تضىء أعالى الشجر
وفى القرب منه
دم نازف من عروق الحجر
لذلك يمشى ويمشى ويمشى
إلى أن يذوب تمامًا
ويشربه الظل عند نهاية هذا السفر
وما أنا إلا هو
وما هو إلا أنا
فى اختلاف الصور

محمود درويش

(8)

يحيى – القاهرة

عام 2011

لم تكن أبدًا مدخنًا شرهًا هكذا، حتى بدا الأمر وكأنك تلتهمها التهامًا، صارت هى غذاؤك الوحيد طوال اليوم، تحرق التبغ وتحترق أعصابك معه، النيران بداخلك لا تكفيها وحدات إطفاء المجرة لإخمادها، بابٌ وراء باب يُغلق فى وجهك، لقد فشلت الشرطة فى العثور على كامل خلال الاقتحام الذى أخبروك بشأنه فى هذا اليوم، وفجأة توقفت وسائل الإعلام عن مناقشة الجريمة وفقًا لتعليمات من جهات عليا، وبدا لك أن اختطاف مدرسة أو أكثر أمرًا يسيرًا لا يستحق إذا ما وُضع فى مقارنة مع أى محاولة للحديث بشأن تورط حسام الميرغنى فى هذه القضية.

اقترب اليوم العاشر من الانقضاء دون جديد، وبينما أنت على هذه الحال كان والد زوجتك يدبر الظهور فى لقاء تلفزيونى مسجل بأحد البرامج الشهيرة، يتوسل فيه للخاطف للحفاظ على سلامة حفيده، ويعلمه باستعداده بدفع أى مبلغ من المال مقابل الإفراج عن آسر، كان الرجل مثيرًا للشفقة فعلًا ودموعه تذرف بغزارة أمام عدسات الكاميرا، وفى نهاية اللقاء بصوت متقطع يرجو المختطف

بضرورة منح حفيده الجرعة اللازمة من دواء .... حتى لا يتعرض لأزمة تعرض حياته للخطر. لقد انكسر الرجل تمامًا بشكل علنى أمام الجميع ولكن دون جدوى، الساعات تمر بطيئة ثقيلة بينما عقارب الساعة تلدغ فى حرية تامة جسدك وتنهش فى لحمك، لقد مزقك الوقت ولم تعد أكثر من مدخنة سجائر هزيلة، أما زوجتك تحولت لمصنع متحرك لإنتاج الدموع، زالت نضرتها وغارت عيناها وشحب لونها وهزل جسدها مثلك تمامًا، صارت أقرب للأشباح منها للبشر، ما بين النحيب والنشيج تتنقل في عذاب لا يعرف مقداره سواك.

أسبوعان مرا وكلاكما يتوق لنظرة أخيرة لآسر وليأت بعدها موتكما لا يهم، فقط تطمئنا على سلامته وليرعاه الأجداد، ستتقبلان الموت بصدر رحب، فقط يكن هو بخير .

ومع قرب انتهاء الأسبوع الثالث ومع غروب شمس أغسطس الحارقة تتلقى مكالمة من الضابط المكلف بقضية الأطفال:

- يحيى باشا ؟ كيف حالك؟

- ....

صمت يلحظه المتصل ويشعر بسخافة سؤاله فيقول على الفور متجاوزًا سؤاله الأحمق:

- لدى لك خبر بالغ الأهمية.. وددت أن أبلغك به لعله يخفف ألمك ولو قليلًا.

كنت تود الحديث ، لكنك لم تقوَ عليه وواصلت صمتك المتحفز.

- لقد وصلتنا معلومات أكيدة بشأن مكان كامل،

ويرجح أن يكون الأطفال بصحبته، بعد ساعتين من الآن انتظر منى مكالمة فى اعتقادى أنها ستحمل لك أخبارًا سعيدة

ولأن الزمن بطىء لمن ينتظر، طويل لمن يخاف فقد عشت ساعتين تغلى دماؤك فوق صفيح ساخن، ألم تعلم أن الانتظار أول أداة تعذيب عرفها الإنسان؟ حسنًا إن لم تكن تعلم فقد جربت بنفسك، ستزرع الغرفة بخطوات ليست ذات معنى، ستحدق يمينًا ويسارًا أمامك وخلفك وكأنك تستجدى الجهات الأربع ليأتينك بخبر يهدئ من روعك، برغم كل شىء أضحى حالك مثيرًا للشفقة لمن يعرفك، مثيرًا للغثيان لمن لا يعرفك، كم مرة بسطت راحتك على وجهك وفى سرعة وعنف سحبتها إلى رأسك مرورًا بجبهتك وحتى مؤخرة رأسك، كم سيجارة نفثتها ثم أطفأتها لتصير الرؤية ضبابية خانقة داخل هذه الغرفة، كم مرة نظرت إلى الساعة لتجد أن عقاربها لم تتحرك قيد أنملة، صدقنى هذا لن يعيد لك ولدك، فلتجلس على كرسيك أو تتمدد فى فراشك، هذا أفضل لك كثيرًا، يبدو أنك تسمعنى، ها أنت تسترخى على المقعد، تعود برأسك للوراء وتوجه بصرك للسقف الذى سيتحول لشاشة عرض تقدم أسعد لحظاتك مع ولدك، المرة الأولى التى رأيته فيها عقب خروجه من رحم أمه، حروفه الأولى، خطواته الأولى وهو يتعثر تارة ويتسند تارة، مناداته لك وحرف الباء يتردد بين شفتيه، قفزاته، ضحكاته، تندمج تمامًا مع تلك اللقطات السعيدة وتذهب فى غفوة سريعة تنتقل بك لعالم ليس به خاطفين أو مجرمين أو متواطئين، أنت وهو تلهوان، تضحكان، تحمله على كتفك ويقبض على شعرك ثم يمنحك قبلة فى أعلى رأسك تتزامن مع طرقات على الباب، تدخل زوجتك التى لم تعرف بعد بمكالمة الضابط

لتخبرك بوجود أحد أفراد الشرطة بانتظارك بالخارج، تخرج متلهفًا للقائه، إنه صديق قديم لك لم تقابله منذ زمن، ترحب به وتطلب منه الجلوس لكن الكلمات تخرج منه متلعثمة، يقول فى حرج بعد أن يطلب الحديث معك على انفراد:

- اعتذر لهذه الزيارة المفاجئة، كنت أتمنى أن يكون لقاؤنا فى ظروف أفضل، منذ دقائق تم مداهمة الخاطف بعد تحديد موقعه، لكنه للأسف تمكن من الهرب قبل القبض عليه، وتمكنا من العثور على الأطفال

تتهلل أساريرك، تغمرك السعادة، تتسرب الفرحة من قسماتك لترتسم على وجهك وتقول بسرعة:

- وجدتم آسر؟

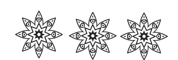
صمت يعقبه كلمات متقطعة بطيئة تخرج بصعوبة من فم صاحبها:

- للأسف روحه فاضت إلى بارئها، قبل وصولنا إليه، الطبيب الشرعى أكد أن الوفاة حدثت قبل ساعات قليلة من الاقتحام، يبدو أن المجرم نوى الاحتفاظ به حتى يتخلص منه تحت ستر الليل، لا كلمات يمكن أن تشاطرك حزنك أو تعبر عن أسفنا لما حدث لكنك مؤمن بالقضاء والقدر.

كان الرجل يواصل حديثه بصعوبة، بينما أنت قد انفصلت تمامًا عن العالم، لم تعد عيناك ترى الجالس أمامك ولا أذنك تعى ما يقول، واحتشدت الكلمات فى حلقك لينهشك صراخ داخلى، يرتج له كيانك، هل الأرض تدور بك أم يُهيأ لك، لم تعد الرؤية واضحة بسبب شلال الدموع الذى تفجر لا تدرى من أين؟! ملتهبة حامية دموعك هذه المرة تخدش جلدك فى قسوة كهجام محترف.

اعتـذر الرجـل بـكل مـا لديـه مـن كلـمات وحـاول المواسـاة قـدر استطاعته، لكـن جهـوده تذهـب هبـاءً، لا زالـت قدميـك لديهـا القـدرة عـلى حملـك، تـودع الرجـل حتـى بـاب المنـزل، يحتضنـك ويربـت عـلى كتفـك، لكنـك تعـى أنـه سينسـى تمامًـا مـا دار وتأثـره البـادى بعـد سـاعة عـلى الأكثـر مـن الآن، فـور انصرافـه تهـرع إليـك داليـا، تتبـادلا النظـرات لثـوان، لمـاذا كانـت الدمـوع تنهمـر بنفـس الغـزارة مـن أربعـة عيـون دون كلام؟ لمـاذا كان الوجهـان يرتجفـان والكلـمات تمـوت عـلى شـفتى كليكـما؟ لمـاذا كانـت عيناكـما تنطـق بـما خـرس عنـه اللسـان؟ لمـاذا كانـا القلبـين ينتفضـان جزعًـا ؟ لمـاذا لم تلـقِ برأسـها فى صـدرك كـما كانـت دومًـا تفعـل؟ لمـاذا عجـزت قدماهـا عـن الاحتـمال أكثـر؟ ولمـاذا فضـل وعيهـا الانسـحاب دون إنـذار؟ ولمـاذا أصابـك الهلـع وهـى تتهـاوى أمامـك؟ ولمـاذا أسـودت الحيـاة فى عينيـك بعـد هـذا المشـهد؟

كلها أسئلة إجاباتها مؤلمة ألمًا لا يُضاهيه كلام.



فى مدخل واحدة من حدائق الحيوان تم تعليق لافتة بالقرب من ستارة:

(هل تعلم ما أخطر وأشرس كائن على وجه الأرض؟)

«أسفلها سهم يشير إلى الساكن وراء الستارة

وراء الستارة لم يجد الفضوليون سوى مرآة كبيرة.»

يان مارتل

(٩)

روبيرتو روسّى

1975 1955-

التـاع قلبـى لفراقهـا، وظلـت خيـالات لحظاتهـا الأخـيرة تخيـم عـلى تفكـيرى، مسـكينة هـى سـيلفيا كانـت أخـف مـن أن تتحملهـا الأرض، مثلهـا يطـير فى السـماء، وبائـس أنـا لأعيـش فى هـذا العـالم الفوضـوى الـذى يسـهل فيـه التهـام الحمـلان وفـرار الذئـاب وصمـت الأسـود، تبًا لعجـزى وهوانـى، همـت بعـد ذلـك شـاردًا بفـؤاد مكسـور لمائـة جـزء، فى كل جـزء يسـكن قطعـة منهـا، ضحكتهـا فى مـكان، نظرتهـا فى مـكان، أحلامنـا وخططنـا فى مـكان، بطريقـة مـا شـاركتنى جسـدى وحياتـى، لم تبـارح ذهنـى أبـدًا، قصـيرة هـى أعـمار الزهـور ولكنهـا غرسـت بذورهـا فى أرضى ورعتهـا بميـاه حبهـا وحـين تركتنـى ورحلـت، لم تذبـل فى قلبـى ورويتهـا بـماء الذكريـات. لا بـد وأن جـزءًا منـى مـات لتحيـا فيـه هكـذا وهـى ميتـة. لم يعثـروا عـلى مرتكبـى الجريمـة وكانـت سـكاكين تمـزق صـدرى وأنـا أتخيلهـم أحـرارًا طلقـاء، بينـما قلبـى ينتفـض مـع كل حادثـة مشـابهة تتهـادى إلى تفاصيلهـا، تبًـا لهـذا الشـقاء!

كـبر أخـى وانتظـم فى كثـير مـن الأعـمال، سرعـان مـا يتركهـا ليلتحق

بغيرهـا، صرت أكثـر اطمئنانًـا عليـه، لقـد تجـاوز مرحلـة الطفولـة منـذ زمـن وصـار أكثـر اعتـمادًا عـلى نفسـه وهـو مـا أعطانـى مسـاحة للطـوف حـول العـالم فى رحـلات بحريـة تجاريـة مدتنـى بخـبرات وأصقلتنـى بتجـارب، جميلـة هـى الأرض لـو لم يطلهـا عبـث إنسـان، فأينـما حـل يحـل معـه الخـراب والفسـاد حتـى لـو بـدا الأمـر ظاهريًـا غـير ذلـك، فـأى محاولـة للإعـمار فى مـكان مـا يوازيهـا خـراب ودمـار فى مـكان آخـر سـواء كان ذلـك عـن قصـد أو بـدون قصـد، نتباهـى بـما وصلنـا إليـه مـن تقـدم وعلـوم بينـما نفـس الجرائـم والفظائـع ترتكـب دون انقطـاع تحـت سـمع وبـصر الجميـع، صـار التلفـاز ينقـل كل مـا يـدور حـول العـالم مـن فظائـع وأهـوال، مـا إن تهـدأ الحـرب فى مـكان حتـى تشـتعل فى مـكان آخـر، لم أعـرف بحسـب علمـى زمنًـا توقفـت فيـه الحـروب وتدمـير البيـوت وقتـل الأطفـال والنسـاء، لا يوجـد مجتمـع مهـما بلـغ ثـراؤه وارتفـاع مسـتوى المعيشـة فيـه خـالى مـن الجرائـم السرقة والرشـوة والقتـل والخيانـة فى كل مـكان، الإخـلاص والوفـاء صـارت معـانٍ نادرة، وأغلـب الوعـود لا يـوفى بهـا، يـكاد اليـأس يقتلنـى والظلـم أمامـى بـلا حـدود، كرهـت هـذا الانحطـاط الـذى يعيشـه العـالم فى صراعـات لا تنتهـى، سـأقضى عمـرى القصـير متحسرًا عـلى أرواح غـير آمنـة وأفـواه جائعـة وأنبـاء مخيفـة، الصدفـة، الصدفـة وحدهـا هـى مـن جنبتـى مصـير هـؤلاء الذيـن ضاعـت حيواتهـم بقـرار أحمـق مـن مجانـين يقـودون العالم.

ولكنـى برغـم ذلـك قـررت أن أنجـح، لـن أكـون واحـدًا مـن هـؤلاء الذيـن يولـدون ويموتـون دون أن يتركـوا أثـرًا أو إسـهامًا فى مجال مـا، انشـغلت بالعمـل والتجـارة وعرفـت أسرارهـا وخـبرت فنونهـا. فـما يسـاوى قرشًـا هنـا يسـاوى عـشرة هنـاك وهكـذا بالنسـبة لجميـع السـلع والمنتجـات، المهـم أن تعـرف مـن أيـن تحصـل عـلى منتجـك

الأجـود والأقـل سـعرًا لتبيعـه إلى الأحـوج والأكثـر قـدرة عـلى الدفـع، كانـت هـذه واحـدة مـن سياسـاتى الخاصـة وكان الجميـع مـن حـولى يحيطونـى بمزيـج مـن نظـرات الحسـد والإعجـاب عـلى ذكائـى الـذى جعـل منـى صاحـب تجارة تنامـت بسرعـة حتـى صرت فى سـن صغـيرة رجـل أعـمال عصامـى، لم يكـن لـدى هـدف معـين بشـأن العمـل أسـعى لتحقيقـه ولكنـى فقـط أريـد أن أظـل ناجحًـا لـذا عملـت بكامـل وعيـى وطاقتـى، تاجـرت فى كل شـىء وجنيـت أمـوالًا طائلـة، زرت كل بلـد وعلمـت مـا تتميـز فى إنتاجـه وأكثـر مـا تحتاجـه، راجـت تجارتـى وذاع صيتـى وصرت مثـلًا يحتـذى بـه ولم أتجـاوز الأربعـين مـن العمـر، حتـى قابلتهـا تلـك التـى أعـادت شـهيتى للنسـاء، صغـيرة السـن فى منتصـف العشرينـات فارعـة القامـة تناسـب طـولى، نحيفـة باعتـدال بشرتهـا برونزيـة وشـعرها مائـل إلى الصفـرة وجهها يشـبه كثـيرًا لسـيلفيا وربـما هـذا أحـد أقـوى عوامـل انجذابـى لهـا غـير أن شـخصيتها أقـوى كثـيرًا، تلـك هـى جوليـا أكبرهـا بخمسـة عـشرة عامًـا لكنهـا تعـوض هـذا الفـارق بذكائهـا المتقـد وحيويتهـا المفرطـة، أثـارت انتباهـى فى إحـدى الحفـلات، تجاذبنـا أطـراف الحديـث، كان الإعجـاب متبـادلًا، تواعدنـا كثـيرًا فى نزهـات بحريـة وزاد ارتباطنـا ببعضنـا البعـض، مـرت شـهور حتـى اتفقنـا عـلى الـزواج الـذى تـم فى احتفاليـة بسـيطة بإحـدى المنتجعـات حضرهـا عـدد محـدود جـدًا مـن أقاربهـا وبالطبـع أخـى الـذى سـبقنى فى الـزواج وزوجتـه وولديـه الصغيريـن، عشـت أيامًـا سـعيدة معهـا واسـتطاعت ببراعـة أن تـوارى صفحـة سـيلفيا ولم أجـد غضاضـة فى ذلـك، لقـد طالـت وحدتـى وانعـزالى للعمـل وحـان الوقـت لطـى صفحـة المـاضى، وتـرك الموتـى مـع الموتـى.



«البلايا لا تأتي فرادى كالجواسيس، بل سرايا كالجيش.»

ويليام شكسبير

(10)

عاصم

سيناء 2012

فيما بعد علم عاصم بموعد تنفيذ المهمة، الاستعدادات على قدم وساق لم يتبق سوى أيام قليلة، رحل عاصم بعد وداع أمه التى لم تتوقف دموعها عن الانهمار حتى غادر المنزل. انضم للتحضيرات النهائية قبل التنفيذ، علم بكل صغيرة وكبيرة تخص المهمة بدءًا من موعدها مرورًا بالخطة والخطة البديلة، ودور كل المشاركين فيها، كانت المهمة فى شمال سيناء ، طائرات ستبدأ بالقصف ويليها مدفعية خفيفة مع عدد من المدرعات تحيط بالمكان قدر المستطاع خاصة وأن الموقع كما وضح للأفراد غنى بالمرتفعات والتلال والأرض غير ممهدة تحتاج لمجهود أكبر وعزيمة أشد.

إنها من المرات القليلة التى تسعى فيها القوات لاقتحام جبل الحلال والذى يمتد ل 60 كيلو مترًا، يصعب على القوات السيطرة عليه بشكل كامل وذلك بسبب طبيعة المكان ولوجود عدد كبير من الكهوف والمدقات.

احتشدت القوات وتوجهت فجرًا إلى أرض المواجهة.

ستبدأ المهمة بقصف جوى على أوكار المجرمين ثم قصف مدفعى، صارت المهمة كيفما خطط لها، ووقعت جميع الأهداف تحت الحصار، وقد تحولت المنطقة المحاصرة لجحيم حقيقى ، حجم الصراخ والهلع يشيان بذلك، وتصاعدت أبخرة الدخان ورقصت الزهرة البرتقالية المسماة بالنار رقصة الموت الأخيرة.. رقصة احتفالية فى نخب أرواحهم.

جاء الدور على القوات الخاصة لتمهد الطريق لباقى قوات المشاه، تتقدم هى لما لها من قدرة على الاشتباك وحسم الأمور وترجيح الكفة أيًّا كان حجم وكفاءة العدو الذى سيواجهونه، يمكن القول بأن الجزء اليسير تم بنجاح ساحق ودون خسارة تُذكر وكان ذلك فى الجزء الممهد من الأرض، أما فى الكهوف وممرات الجبال لعبت المروحيات دورًا إضافيًا فعالًا ولكن لابد من المواجهة المباشرة للقضاء على أى شراذم .

المنطقة وعرة فعلًا والقوات برغم براعتها ليست على دراية كافية بشعاب الدروب وخباياها، ولكن السكون الناجم عن الضربة الأولى منحهم طمأنينة مؤقتة، توغل الأفراد داخل الممرات والكهوف، الإضاءة تقل والبارود يسد الأنوف إلا أن الأقنعة تخفف من حدة الأمر بينما غيوم من الدخان تتهادى بحرية تامة، تزامن توغلهم مع أمطار من الرصاص تقذفها أسلحتهم فى كل صوب وصرخات سريعة من حناجر ملعونة تصرخ صرخة أخيرة يودعون بها حياتهم ويستقبلون بها الجحيم على الجانب الآخر.

بعد دقائق من بدء العملية لاح فى الأفق ضوء خافت متناثر تعلن عن مولد نهار جديد.

بعـد ذلـك اقتحمـت القـوات كهفًـا أكـبر مـن سـابقه، أرضيتـه غـير مسـتوية عـلى الإطـلاق، حيـوات كانـت تعـاش هنـا مـن دقائـق تراهـا فى بعـض المصابيـح والألـواح والدراجـات الناريـة وقطـع مـن ملابـس ملقـاة هنـا وهنـاك، دلـف عاصـم الى أحـد الكهـوف بـه عديـد مـن الممـرات الحجريـة بـدت خاليـة مـن أى عنـصر ليقـف مُديـرًا بـصره داخـل الكهـف وخارجـه، عينـاه ترمقـان الخـارج والجنـود حولـه (لا اشـتباكات حقيقيـة بعـد) يلمـح حركـة سريعـة فـوق إحـدى التبـاب، هنـاك مـن يفـر متوهمًـا أن هنـاك فرصـة، يشـير عاصـم لأحـد الجنـود فى زاويـة ووضعيـة أفضـل للتصويـب، بالفعـل يصـوب الجنـدى طلقـة عـلى هـذا المشـعث الـذى يتـوارى خلـف صخـرة لتسـتقر فى فخـذه يعقبهـا رصاصـة أخـرى سـكنت فى رقبتـه بعدهـا تسـقط الجثـة أرضًـا يتجمـع عـدد مـن الجنـود حولهـا للاجهـاز عليـه لـو كان مـازال حيًـا، عاصـم مـازال واقفًـا فى مكانـه يراقـب المشـهد ويديـر بـصره سريعًـا يمينًـا ويسـارًا، يلمـح بطـرف عينـه جسـدًا هزيـلًا ينطلـق كالسـهم مـن فـوق نفـس التبـة العاليـة ماسـكًا بشـىء مـا فى يـده ، وحـين فهـم عاصـم كانـت القنبلـة تطـير فى الهـواء عـلى تجمـع الجنـود، يـصرخ فيهـم عاصـم صرخـة غـير مكتملـة بفعـل انفجـار شـديد حـول الجنـود لأشـلاء متناثـرة بينـما عاصـم يطـير للـوراء مصطدمًـا بجـدار الكهـف الـذى ارتـج وكاد أن يتهـدم ويصـير فى خـبر كان ولكنـه اكتفـى بسـقوط بعـض الحجـارة مـن سـقفه عـلى رأس جسـد غـاب صاحبـه عـن الوعـى إثـر الارتطـام ولتسـد مدخـل الكهـف بشـكل يعيـق مـن كلا الجانبـين رؤيـة مـا يـدور بالداخـل أو الخـارج.

لا معركـة دون خسـائر ولا حـرب دون ضحايـا، الجميـع يعلـم أن الخطـر يحـوم حولهـم فى كل لحظـة ، لكـن عـدد الضحايـا هذه المرة سـلب

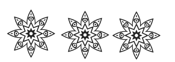
فرحتهم بلذة الانتصار، بعد هذا الانفجار تم تطهير البؤرة بنجاح بعد قصف الأهداف وتوغل مزيد من القوات ولكن الثمن كان أرواحًا بريئة عادت إلى بارئها ومصابين عِدة حالتهم خطرة، بينما الأخطر من ذلك اختفاء رجل كان معروفًا وسط أقرانه بالقناص، لا أثر له ولا لجثته إن كان قد فارق الحياة، بعد انتهاء العملية تم تجميع الجثث والأشلاء، وإزالة الأحجار التى سدت مدخل الكهف، تم تفتيش الكهف والولوج فى ممراته الطويلة المتشعبة ولكن لا أثر لعاصم به أو بأى جزء من أرض المعركة.

أين ذهب عاصم؟ أين جثته لو كان قد لقى حتفه؟ أسئلة أرقت وجوه وقعت فريسة للدهشة فلم يجد زملاؤه إجابة لها، بينما حفنة من القامات المختلفة ذوى الأسمال الرثة ومجموعة من الرؤوس تتسم وجوهها بلحى مختلفة الطول تتطلع إلى جسد راقد أمامهم فى سبات لم يقرروا بعد خطوتهم التالية بعدما اصطحبوه فاقدًا للوعى معهم فى رحلة هروبهم، كان الجسد الراقد أمامهم والمغطى رأسه وجسده بضمادات عديدة لضابط قناص سقط أسيرًا فى يد أعدائه.

بعد الهجمة التى تعرض لها هؤلاء وسقوط الأحجار التى سدت مدخل الكهف، سنحت لهم فرصة اصطحاب جسده، وهو بلا شك سيكون ذا فائدة كبيرة لو أحسنوا استغلالها. كان جسده ملىء بالجروح مع اشتباه فى كسور وارتجاج بالمخ ، طبيبهم أخبرهم بأن حالته حرجة وجروحه تحتاج بعض الوقت للتداوى أما الارتجاج فلا يمكن التنبؤ بنتائج حاسمة بشأنه إلا بمرور الوقت، حياته على المحك.

وفى بيـت صغـير وسـط الصحـراء الواسـعة والتبـاب العاليـة كان مأواهـم معـزولًا عـن البشر اتخـذوه مخبـأ، جلسـوا يراقبونـه أيامًـا وأيامًـا الجميـع فى انتظـار اللحظـة التـى سيعلن فيهـا جسـده الاسـتجابة للمحـاولات والرضـوخ للمجهـودات مـن أجـل إفاقتـه، فى غرفـة ضيقـة غـير نظيفـة تتسرب إليهـا الشـمس والهـواء وحـشرات مختلفـة الحجـم واللـون يرقـد عاصـم عـلى سريـر صلـب غـير مريـح، القليـل مـن المحاليـل والعقاقـير موصلـة إلى جسـده، ورأسـه مغطـى بقطـع مـن الشـاش ووجهـه يزخـر بالسـحجات، إحـدى قدميـه فى الجبـس والأخـرى ممـدة عـلى الفـراش دون حـراك، ذراعيـه ممتـدان بالتـوازى عـلى جانبـى جسـده، ولكنهـما مقيدتـان مـن الأمـام وكذلـك قدميـه، تنفسـه هـادئ للغايـة، قلبـه مـازل ينبـض بينـما عيـون مـن حولـه تنتظـر لحظـة إفاقتـه ، حتـمًا سـيحصلون منـه عـلى مـا يريـدون سـواء أبـى أو ارتـضى هكـذا يظنـون، أمـا قلـب والدتـه انفطـر تمامًـا، دموعهـا لم تتوقـف سـوى لتتحجـر في العيـون قبـل أن تتفتـت مـن جديـد وتعـاود الهطـول بعـد أن أخبروهـا بفقدانـه فى المهمـة الأخـيرة.

وفى مقـر عملـه أسـئلة تـتردد بـين زملائـه وجنـوده يومًـا بعـد يـوم، لا جديـد ولا أحـد يـدرى هـل مـن عـودة للفتـى؟



«التعلق بإنسان هو وجع مؤجل، سنفقدهم فى نهاية المطاف بطريقة أو بأخرى..»

(١١)

يحيي - القاهرة

(2011)

لا تـدرى كيـف احتملـت مـا حـدث، كيـف تحملـت لحظـات قاسـية وأنـت تتسـلم جثتـه، وأنـت تـوارى عليـه الـتراب ، قـد علمت أنـه عانـى مـن المـرض وسـاءت حالتـه لعـدم تلقـى العـلاج الـلازم، نزعـت الرحمـة مـن قلـب خاطفـه وتلاشـت مـن قلبـك بعـد موتـه ، حيـاة بـلا آسر هـى مـوت بطـىء قـاسٍ، لقـد وهنـت زوجتـك وانطفـأ نـور وجههـا وزهـدت الـكلام مثلـك، انعـزل كلاكـما فى صمـت تـام تقطعـه كلـمات قليلـة بـين الحـين والآخـر، عانـى كلاكـما مـن الفقـد ولم يقـوَ أحدكـما عـلى مسـاندة الآخـر.

تشـابهت الصباحـات والأماسـى، حـدث مـا حـدث، لكـن حياتـك لـن تعـود كـما كانـت أبـدًا، بعـد وفاتـه بقليـل تحـدد موعـد إعـدام سـليمان المـلاح بعـد شـهر، الشرطـة فشـلت فى العثـور عـلى ولـده سـالم فى شـتى الأنحـاء، لقـد تبخـر كبقعـة مـاء فى صحـراء ملتهبـة، لا أحـد يـدرى أمـازال فى البـلاد أم غادرهـا، الشرطـة تنتظـر ظهـور متوقـع عقـب علمـه بتحديـد موعـد تنفيـذ الحكـم فى والـده،

ربـما محاولـة جديـدة طائشـة توقـع بـه ويحسـنون اسـتغلالها بعـد أن أفلـت منهـم المـرة تلـو الأخـرى ، لكنـه ذهـب دون أن يـترك أثـرًا أو خيطًـا واهيًـا يمكـن تتبعـه، ربـما لـو تـم الإيقـاع بـه ونـال جـزاؤه العـادل لخفـف ذلـك عنـك مـا تعانيـه، أمـا أن يختفـى هكـذا لتطـوى الأيـام صفحتـه وتكـف الشرطـة عـن البحـث عنـه فهـذا جحيـم لا تطيقـه، لـن تذهـب حيـاة آسر هكـذا دون ثـأر ليـس كأى ثـأر؟، فقـط تظفـر بـه، صـارت هـذه أمنيتـك الوحيـدة، ووقتهـا سـيعلم حجـم الجريمـة التـى اقترفهـا، فى الوقـت ذاتـه كان شـعور مـا بداخلـك يتمنـى ألا تعثـر عليـه الشرطـة، ليـس هـذا الجـزاء الـذى تتمنـاه ، أنـت تريـده لنفسـك، ستصفى حسـابك معـه، ولكـن كيـف يمكنـك الوصـول إليـه؟

بـات أداؤك فى العمـل روتينيـا جـدًا، ولكنـك عكفـت على دراسـة القضيـة التـى اتهـم فيهـا المـلاح والتـى أدت إلى مـا وصلـت إليـه الآن .

كانـت الأوراق والملفـات تغطـى سـطح مكتبـك بالكامـل فى محاولـة للإلمـام بكافـة الملابسـات التـى صاحبـت الجريمـة.. فيـلا باسـم حسـام الميرغنـى، يحرسـها سـليمان المـلاح، حسـام الميرغنـى مشـهور بعلاقاتـه النسـائية المتعـددة يعرفهـا القـاصى قبـل الدانـى، وذات يـوم يتـم العثـور عـلى جثـة فى هـذه الفيـلا لسـيدة أرملـة مقتولـة بعـد اغتصابهـا، سـليمان لايـدرى شـيئًا عـما حـدث، ولم يـر حسـام أو المـرأة يدخـلان الفيـلا، لم يكـن متواجـدًا حـين دخلـت المـرأة، هكـذا يذكـر ويـصر فى التحقيقـات، يبـدو أنـه تغيـب عـن الحراسـة فى ذلـك الوقـت، خطـأ بسـيط سـيدفع ثمنـه غاليًـا بينـما حسـام يقـدم ألـف

دليل على عدم حضوره الفيلا وتواجده بصحبة آخرين، هكذا ثبتت التهمة على سليمان بينما حسام بدا بريئًا تمامًا من هذه الجريمة.

شيئًا ما بداخلك يخبرك بأن هذه ليست الحقيقة، إصراره ولده يؤكد ذلك وسمعة حسام أيضًا.

تم تنفيذ حكم الإعدام فى سليمان الملاح دون أى ظهور لولده، كان لديك أمل بتصرف أخرق يعاود به سالم الظهور، لكن لم يحدث، وأنت لن تنسى، لقد باتت هذه هى قضيتك الأولى، لقد أهملت زوجتك وبيتك سعيًا وراء أى معلومة تعينك فى العثور على سالم، صار لديك يقين بأن حياتك لن تستقيم إلا بعد أن تثأر لآسر، أما زوجتك كانت بأشد الحاجة إليك لكنها لم تجدك، كربها عظيم وهمها شديد، والكلام يؤلم أكثر مما يريح، هى الأخرى لم تقوَ على الحياة فى نفس البيت، تحاصرها الذكريات من كل اتجاه تنهش فى قلبها بلا رحمة، لذا أصبحت تقضى أغلب أوقاتها بصحبة والدتها، هى أكثر من استطاع مواساتها، وتخفيف الأمر عنها، لطالما نصحتها بضرورة إنجاب طفل آخر لكن يبدو أن القدر قد اكتفى بمنحكما آسر ولسبب غير معلوم استرده ولسبب

أخر حرمكما من غيره، ولكنها وجدت فى الرسم ضالتها، باتت تقضى أغلب أوقاتها أمام لوحة ممسكة بفرشاة وبجوارها علبة الألوان ، كانت أغلب الرسومات لأطفال غير مكتملى النضوج ، هل كانوا جميعًا آسر ؟ لذا لم تكمل رسوماتهم أم أنها

رغبة فى الحصول على طفل يشغل الفراغ الذى خلفه آسر؟ رويدًا رويدًا عادت لزيارة النادى ومقابلة الصديقات ورغم وقوفهن بجانبها كان سؤالًا ملحًا يشغلها، كيف تتركها هكذا؟ لماذا لا تجدك بجوارها؟ لماذا لا تمسح أنت دموعها؟ لماذا تواريت فى مكتبك شهورًا وفى عملك أيامًا وليالى ؟ لماذا خذلتها؟ لقد رأت الحزن فى عينيك وحاولت دومًا احتوائك لعلك تبادلها نفس الأمر، كنت تستسلم لحضنها لكنك سرعان ما تعود لعزلتك غير عابىء بالنار التى تشعل قلبها، تعلم أنك تود الانتقام ولكن كيف والشرطة عجزت عن العثور عليه؟ إنها ترغب فى الانتقام كذلك ولكنها تعرف بأنك لن تجد القاتل وحدك.. ليتك تشعر بها، ليتك تعلم مدى حاجتها إليك، وحين صارحتك بذلك رددت عليها بجملة واحدة زادها أنين قلبك وجعًا:

– قريبًا، قريبًا جدًّا سأعثر عليه وسأنتقم لولدى وقتها سنبدأ حياتنا من جديد ولكن الآن لن أطوى هذه الصفحة قبل أن ينال ما يستحق

– أنا أيضًا أتمنى ذلك ربما أكثر منك، أنت لا تعرف مقدار ما بى من ألم، قلبى ينزف وجع وعقلى دائم التفكير سأجن يا يحيى، سأجن ، احصل عليه فى أسرع وقت قبل أن تفقدنى أنا الأخرى!

ألقت كلمتها وانصرفت باكية بعد إيماءة من رأسك ولكنك لم تنتبه كم كانت تعنى كل كلمة لفظتها كنت مشغولًا بأمر آخر، بالطبع لم تعرف بخططك ولا ما تقدم عليه من أعمال، لم تخبرها

بشـأن الشـقة التـى اشـتريتها بأحـد المناطـق النائيـة حيـث الهـدوء هـو سـيد المكان والسـكون حـاضرًا أبـدًا، لـن تخـبر أحـدًا ولا حتـى هـى.. لماذا شـقة فى مـكان يـكاد يخلـو مـن البـشر؟ ليسـت بهـا سـوى منضـدة وكرسـى ومجموعـة مـن الأوراق رسـمت عليهـا خطتـك ومواعيـد لا تخصـك وتحـركات بشـأن رجـل ليـس هـو سـالم بالتأكيـد، مـا الـذى تنتويـه يـا يحيـى؟ مـن هـو هـذا الرجـل الـذى بـت تراقبـه مـن بعيـد وتحفـظ تحركاتـه وتعـد عليـه أنفاسـه؟ مـا الـذى تدبـره؟ مـا الـذى سـيقودك إليـه عقلـك؟ ومـا نهايـة كل ذلـك؟ كانـت الأسـئلة تُطـرح والإجابـات تـدور وتتمحـور حـول شـخص واحد هو(حسـام الميرغنـى)

كم مرة هزمتنا الخيانة.. دون قتال؟

سعد الله ونوس

(12)

روبيرتو روسّى

1975- 1985

فى هـذا التوقيـت حـين ازدهـرت تجارتـى كان مـن العسـير متابعـة كل صغـيرة وكبـيرة وحـدى لـذا كان لـدى عـدد مـن المسـاعدين أهمهـم بالطبـع اليسـاندرو أخـى ولويجـى وماتيـو أصغرهـم، كان لـكل منهـم ميـزة تختلـف عـن الآخـر، اليسـاندرو يعمـل بتفانـى وإخـلاص، لويجـى شـخص مـرح دائـم السـخرية مـن نفسـه ومـن الآخريـن لكنـه مثابـر ويتحمـل المسـئولية، وماتيـو ذكـى ولمـاح ينجـز مـا يكلـف بـه فى أسرع وقـت وبأقـل جهـد كنـا متفاهمـين تمامًـا وأمـور العمـل تسـير بانسـيابية تامـة، وجميعهـم يجنـى أمـوالًا لـن يحصـل عليهـا فى أى مـكان آخـر، عشـت خمـس سـنوات مـن السـعادة حسـبت فيهـا أنـى ربـما أكـون مبالغًـا بشـأن حنقـى عـلى الحيـاة، تصـورت أنـه يمكـن للبـشر أن يكونـوا لطفـاء كثـيرًا مـن الوقـت وأن دوافعهـم للـشر عـلى الأرجـح يكمـن وراءهـا مـبررات قويـة تهـزم طابعهـم الإنسـانى الضعيـف، لبعـض الوقـت طغـى نجاحـى وعـدل قناعاتـى حتـى صحـوت ذات يـوم عـلى ضربـة جديـدة قاصمـة مـن البـشر فى ظهـرى، عقـب عودتـى مـن رحلـة عمـل مصحوبًـا بلويجـى المـرح والـذى صـار صديقًـا طلـب

أخـى لقائـى بشـكل عاجـل، كان متوتـرًا عـلى غـير عادتـه وصوتـه متهـدج، أقلقنـى كثـيرًا، حتـى زوجتـى حـين أخبرتهـا انتقـل إليهـا قلقـى، ذهبـت وحيـدًا لمقابلتـه، وجدتـه جالسًـا فى الحانـة التـى اتفقنـا عليهـا ينفـث دخـان سـيجارته فى غضـب.

– مـاذا بـك اليسّـاندرو؟ قلتهـا ولازلـت أحمـل نحـوه شـعور الأب المسئول عـن إزالـة همـوم وإسـعاد طفلـه الـذى هـو بالأسـاس أخيـه

– هل تثق فىّ روبيرتو؟

– بالطبع، أثق بك أكثر من نفسى أليساندرو، ما الأمر؟

– ماتيو!

– ما له؟

– إنه.. إنه يخونك

صمـت.. وأنـا موقـن بـأن الخيانـة تظـل احتـمالات حدوثهـا أكثـر مـن احتـمالات عـدم حدوثهـا، سـيخذلنى البـشر لـو لم يخـن أحدهـم مـرة واحـدة فى العمـر عـلى الأقـل، لم يعترينـى شـك فى صدق أليسـاندرو الـذى أخـد يفـسر:

– ظننـت أن بالأمـر صدفـة مـا، لكـن أن تتكـرر هـذه الصدفـة مـع كل سـفرية لـك، فهـذا يتجـاوز قانـون الصدفـة.

رمقته بنظرة طالبًا مزيدًا من التوضيح

– منـذ شـهرين أثنـاء سـفرك لأمريـكا أخـذت أولادى فى عطلـة نهايـة الأسـبوع لأحـد الفنـادق برومـا، تجولنـا كثـيرًا ومرحنـا، هنـاك شـاهدت ماتيـو يقـود سـيارة بصحبـة امـرأة

قالها ثم صمت فأثار غيظى:

– وما الغريب فى الأمر؟

– حـين دققـت النظـر كانـت جوليـا هـى تلـك المـرأة، سـاورنى

الشك ولعبت بى الظنون ربما خاننى نظرى، ربما امرأة تشبهها، حتى لو كانت هى فربما كان وراء الأمر صدفة.

شعرت بالحرج من نفسى، إنه صديق، مستحيل أن يخون، قررت ألا أمضى وراء شكوكى دون يقين، فى رحلتك الأخيرة استأجرت رجلًا لمراقبته وإبلاغى، أين يذهب؟ من يصحب؟ من يقابل مصحوبًا بالدليل؟ وبعد أسبوع عاد الرجل ومعه مجموعة من الصور، لقد ذهب إلى جزيرة سيسيليا قضى يومين بصحبة امرأة، وهذه هى الصور، كانت جميعها تجمعه بها، إنها جوليا بملابس البحر على الشاطىء تعانقه وفى المطعم وفى نفس الغرفة بالفندق.

ثم ألقى بها إلىّ وأنا ابتلع ريقى منتقلًا من صورة إلى صورة وكل واحدة منهم تطعن فى قلبى طعنة حتى لم يتبق موضع دون نزف. ألم كبير فى صدرى لن يشفى بنزع الخنجر من قلبى بل سيزيد.

- طلقها روبيرتو! اطرده! دعهم يذهبان بعيدًا عنا!

انتابتنى حالة من الهم، وشعور بالكرب كم كنت ساذجًا حينما لهيت عن قناعاتى وتركت ظهرى دون حماية ووثقت بعدد من البشر، سعادة مزيفة تلك التى عشتها فى السنوات الماضية، ظللت مخدوعًا ظانًا أنى وجدت المرأة المناسبة، ولكنى خُدعت بمنتهى البساطة.

- لا تقلق أليسّاندرو، دعنى أسوى بعض الأمور!

فى الأسبوع التالى أعلنت عن رحلة عمل وهمية لجنوب آسيا مصطحبًا معى لويجى واليساندرو وعهدت لماتيو بمتابعة العمل وتعويض غيابنا جميعًا، عرضت على جوليا مرافقتى ولكنها تعللت كما توقعت بتعب غير موجود وكذلك انشغالى عنها بالعمل فى حالة رافقتنى، وطالبتنى كأى زوجة مثالية بعدم القلق عليها حيث ستكون بصحبة صديقاتها اللاتى أعرفهن جيدًا أغلب الأوقات.

بالطبع لم أحبسها فى برج أو اربطها بحزام العفة كما كانوا يفعلون فى العصور الوسطى، ولكنى أكره الخيانة وأمقت الخائنين، ولا أغفر لأحد منهم أبدًا، وإن كان ثمة حياة لهم فلتكن حياة ذليلة مهينة بائسة أو ميتة غير رحيمة ترد لصدورهم طعناتهم فى ظهورنا.

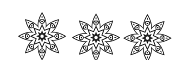
وضعتهما تحت مراقبة، مر يومان دون شيء يذكر، وفى اليوم الثالث التقيا ليلتها بشقة يمتلكها ماتيو جعلها لهذه اللقاءات القذرة، ضربة على الجرس، فتح لى ماتيو مرتديًا روبًا أبيضًا ولا شيء سواه، دفعته بعد أن حاول منعى وقد هالته المفاجأة، انطلقت من غرفة لغرفة حتى وجدتها فى سريره، لم يكلفنى الأمر سوى طلقتين واحدة فى رأسه والأخرى فى قلبها، كم كنت رحيمًا بهما، يستحقان ألف ميتة وميتة، ولكن مجرد رؤيتهما أحياء ستسبب لى ألمًا حتى لو كانوا يتألمون من العذاب، عليهم أن يختفوا من الحياة كى أرتاح فى القريب.

لا أترك أثرًا ورائى والبحر دائمًا يحفظ أسرارى واستودعه أماناتى ولم يخوننى أبدًا، رغم أن البعض يعتقدونه غدارًا، ولكنى عن أكثر من تجربة أراه وفيًا مخلصًا يستر كل من يجيد التعامل معه ويعطيه قدره واحترامه.

هربت زوجتى ومعها مبلغًا كبيرًا من المال أثناء سفرى هذا ما علمته الصحافة، أما مسألة سفرى وعودتى، فالبحر كله ملكى، وسفنى لا تتوقف عن الإبحار فيه ولن يضيق أحداها بى دون أوراق رسمية.

حالة من الكآبة سيطرت علىّ، تزامنًا مع الحروب الأهلية فى بقاع مختلفة دول أفريقية ولبنان وكولومبيا، وحروب فى مواقع أخرى، صور الضحايا والقتلى فى كل مكان، الدماء هى أرخص مادة على سطح الأرض، تراق لأتفه الأسباب فى هذا العالم الملعون، يبدو أنه ليس بوسع أحد أن ينجو من البشر، فلا يكفون عن إلحاق

الأذى ببعضهم البعض متعللين بحجج دينية سياسية استعمارية، مبرراتهم تثير سخطي وتجعلني أكثر كرهًا لهم، حتى المساكين منهم والمظلومين خانعين بدرجة تجعلك دائم الاعتقاد بأنهم يستحقون ما يلاقون من ذل وهوان، ولكن قليلين يعانون فعلًا دون ذنب واضح ودون خطأ يذكر، يقاومون قدر استطاعتهم لكن البطش بهم أقوى، يكتسحهم ويجتثهم من فوق الأرض اجتثاثًا، ألا يستحق هؤلاء مساعدة ما؟ ألا يستحقون اهتمامًا حقيقيًا؟ دعمًا ماديًا كان أو معنويًا ليس كثيرًا عليهم، ليس لدى ما يمنع ولدى كل المال لأفعل، سئمت من تصريحات المعنيين والمسئولين، بنظرة واحدة تكشف هراءهم وعدم جديتهم، أمام الكاميرات يتشدقون بالشعارات ويبدون التأثر وفى الثانية التالية يبتسمون للكاميرات ويلوحون بأيديهم متناسين متجاهلين ما كانوا بصدده بشأن أرواح لم تجد من يأسى عليها، سفهاء حقراء هم ومن ينصت إليهم أو يصدقهم، المصالح فقط من تحكم بينما الأرواح تُزهق، لم يحن للأرض بعد أن تتطهر من الدماء ولم تشبع حتى الآن من الغدر، اكتفيت من مجرد السخط على هذا العالم وسكانه آن الأوان للتدخل بشكل ما فى محاولة لجعل الأرض مكانًا أفضل لمن يستحق، لقد تساقط أكثر شعر رأسى والمتبقى منه اشتعل شيبًا وبدأت التجاعيد تزحف على وجهى مع اقترابى للخمسين من العمر، لن أعيش أبدًا قدر ما عشت، فلأقدم خدمة ما لأجل هذا العالم المهترئ بدلًا من التحسر على إنسانية زائفة، وشرعت فى تأسيس مؤسسة خيرية تعمل على تقديم العون للضعفاء ومساعدة الفقراء والمحتاجين، إغاثة اللاجئين، معالجة المرضى، كل ما هو من شأنه تخفيف الآلام والحد من العذاب واخترت اسمًا لهذه المؤسسة وجدته مناسبًا لأهدافها وأنشطتها هو (الأيادى البيضاء)



«ليس فى العالم وسادة أنعم من حضن أمى»

ويليام شكسبير

(13)

عاصم

(2012- 2013)

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أفتح فيها عينى لأجدنى فى مكان مجهول لا يمت لعالمى بصلة، راقدًا شبه عارٍ غير قادر على تحريك أطرافى، بينما على متر ونصف هناك جسد يرقد أمامى نائمًا، صوت شخيره ينم عن لحمية متهالكة وهيئته تبدو كما لو كان مبعوثًا من قبره، أمعنت النظر لأجدنى مكبلًا، احتجت كثير من الوقت حتى استجمع ذاكرتى، والدهشة تتملكنى وسؤال يلح على « ما الذى أتى بى إلى هنا؟» هنا جاءنى صوت بلهجة غريبة:

- ظنناك مِت! يبدو مازال فى عمرك بقية

قالها الرجل العجوز المتكىء أمامى فى نصف جلسة، رجل تجاوز الستين من العمر عينان ضيقتان غائرتان أغلب أسنانه تساقطت، لحيته غير مهذبة ووجهه نحيف جدًا، لا بد أنه يعانى من مرض ما.

- من أنت؟ سألته

- رجل اعتنى بك حتى هذه اللحظة، لولاى لكنت ميتًا منذ أسبوع أو أكثر.

- أين نحن الآن؟

- بعيدين جدًا عن موطنك بشكل لا تتخيله

- ما الذى تريده منى؟

- أنا.. لا شىء، أنت هنا أمانة عندى أرعاها حتى تشفى ويتسلمك من أحضروك

تحدثت معه وطرحت عليه الكثير من الأسئلة أجاب بعضها والبعض الآخر اكتفى بالصمت، أثناء ذلك كانت ذاكرتى تعود من جديد ببطء تتسرب لعقلى نقطة نقطة حتى عادت كل ذكرى لموضعها الأول، تذكرت العملية والاقتحام والجنود، ولكن رفيقى هذا أعدو هو أم صديق؟ ما الذى حدث ومن أحضرنى هنا؟ لا أظن بأن زملائى أتوا بى إلى هنا، أخيرًا تمكنت من تحريك يدى، أما قدمى فعجزت عن تحريكهًا أو رفعها وإحدهما موضوع فى جبس بشكل بدائى بعض الشىء، علمت منه بأنى فى غيبوبة منذ عشرة أيام تتأرجح روحى بين الحياة والموت، بعد قليل من كلام معه ثقلت رأسى ودارت الدنيا من حولى فأغمضت عينى دون إرادة، حين فتحتها مرة أخرى، كان هناك آخر يقف على رأسى وهو يبتسم بخبث، نادى على الرجل الأول «يا شيخ» حضر الشيخ فسأله الخبيث الذى لا تختلف عنه هيئته كثيرًا غير أن جلبابه أقصر بعض الشيء ولحيته مهذبة نوعًا وعمره لا يتجاوز الخامسة والثلاثين «أيمكننا اصطحابه معنا» أجاب الشيخ «بالطبع ولكن لا يمكن فك الجبس والضمادات قبل 4 أسابيع على الأقل» وهكذا نادى الرجل الثانى «يا شباب.. تعالوا»

- هيا خذوه إلى السيارة

جـاء شـاباان وانهضانـى بغـير حـرص وعـلى وجههـما علامـات غضـب، كان خاطـر يؤوقنـى صـار يقينـًا «أنـا واقـع تحـت أسر هــذه الجماعـات فى مـكان بعيـد عـن أعـين القـوات» كانـت هـذه هـى الحقيقـة التـى أخشـى مصارحـة نفسـى بهـا.

حملانـى الشـاباان إلى سـيارة سـوداء رباعيـة الدفـع، ألم يمزق جسـدى ولكنـى لـن أصرخ أمـام هـؤلاء، تحاملـت عـلى نفسـى حتـى وضعونى فى المقعـد الخلفـى وبجـوارى أحدهـما، أمـا صاحبهـما فقـاد السـيارة ملوحًـا للشـيخ ليبتلعنـا طـرق وعـرة رجـت السـيارة رجًـا ونهشـت جراجـى بلا هـوادة، حتـى الآن لا علـم لى بنيتهـم «لمـاذا يعتنـون بـى ويبقونـى حيًـا؟»

اقتادونـى إلى مجموعـة بيـوت بسـيطة صغـيرة مـن طـوب أحمـر لا تتجـاوز طابقـين، تلهـو الأطفـال فيـما بينهـا، وعـلى عكـس مـا توقعـت بـدلًا مـن أن يصعـدوا بـى لأعـلى، هبطـوا بـى عـبر درج متهالـك لأسـفل، مـكان مظلـم ورائحتـه عطنـة، قدمـى ترتطـم بأحجـار صغـيرة بينـما يبـدو الشـاباان عـلى درايـة بوجهتهـما حتـى فى ظـل هـذا الظـلام، حتـى وصلنـا إلى بـاب خشـبى فتحـاه ثـم أدخلونـى غرفـة مربعـة بـلا شـبابيك، ضغـط أحدهـما عـلى زر بجـوار البـاب فـسرى ضـوء أبيـض بسـيط فى أنحـاء الغرفـة

ثـم دون أى كلمـة أغلقـا البـاب وراءهـما، ظللـت حبيـس هـذا المـكان يومـين لا أرى فيهـا بشريًـا، الجـوع ينهـش جـدران معدتـى والعطـش يحـرق عروقـى والنـوم جـافى عيونـى وكأنـى حصلـت عـلى نصيبـى لمـدة شـهر قـادم منـه أثنـاء إصابتـى، مـاذا يريـدون منـى؟ سـؤال طُـرح عـشرات المـرات فى رأسـى دون كلـل أو ملـل، حالتـى لا تسـمح بـأى تفكـير فى الهـروب خاصـة وأن أى حركـة بهـا تهـور تسـبب لى دوارًا

لا ينقطع لساعات. بعد يومين صحوت من إغفاءة لأجد بجانبى قليل من الماء وبعض الحبوب وقطعة خبز، ظل الحال هكذا حتى مر ما ظننته أسبوعين، كانت أيامه متشابهة مظلمة كئيبة بلا أمل، بعد انقضائها، جاء رجل ظننته طبيبًا معه العديد من الأدوات، ووسط حراسة رجلين آخرين قام الرجل بفك الجبس عن قدمى وذراعى اليمنيين، طلب منى فى غلظة تحريكهما فحركتهما قبضتهما وبسطتهما، نظر للرجلين ثم أعطى إشارة لهم برأسه فخرج من الباب ليغيب فى الظلام، بينما هناك وجهين يرمقاننى بكراهية شديدة، انضم إليهما ثالث، حسن المظهر معتنى بجلبابه نسبيًا مقارنة بهما، وقف أمامى وقال بلهجة عربية:

- لقد آويناك وعالجناك كما تقول تعاليم ديننا، والآن حان الوقت لتساعدنا ثم أشار لى بالوقوف

فنهضت واقفًا وقد تحسنت حالتى قليلًا « أنس الآن حياتك الأولى، لقد ولت بلا رجعة وقل لنا الآن ما هى خططكم فى سيناء، ماذا تعرفون عن تجمعاتنا هناك»

- هناك؟ أولسنا فى سيناء؟

- كلا .. أنت الآن فى سوريا

نزل علىَّ الخبر كالصاعقة، كيف حدث ذلك؟ وكيف تمكنوا من نقلى كل هذه المسافة، يبدو أنهم يتحركون بحرية أكثر مما نتخيل

- لن أكرر سؤالى .. قالها مبتسمًا ابتسامة صفراء.

ضحكت مستهزئًا بطلبه هذا فباغتنى بلكمات فى وجهى صائحًا وقد استشاط غضبًا

« لا أحـد يجـرؤ عـلى الضحـك فى حضـورى» وقبـل أن أنقـض عليـه، حـالا الرجلين الأخريـن بينى وبينـه، قيدانـى بماسـورة تمتـد مـن باطـن الأرض لسـقف الحجـرة ثـم أمسـك برأسـى وقـال «لم تجبنـى؟» فضحكـت ثانيـة لينهالـوا عـلى بالـضرب بـكل مـا أوتـوا مـن قـوة عـلى جسـدى ورأسـى، ثـم تركونـى أعانـى وألامـى، كنـت متيقنًـا مـن هلاكـى القـادم لا محالـة، لا أحـب أن أخـدع نفسـى متشـبثًا بأمـل لا وجـود لـه.

بقيـت فى هـذا المـكان أسـابيع لم أعـرف عددهـا، تلقيـت شـتى صنـوف العـذاب: تجويـع وضرب وإذلال، أضاعـوا ملامـح وجهـى كهربـوا جسـدى مـرات ومـرات، نزعـوا أظافـرى وحـين ضاقـت بهـم السـبل، مسـك كبيرهـم شاكوشًـا بغيضًـا بينـما كبلونـى وهـو يلقـى علي بأسـئلة لـن أجيـب عليهـا ولـو مزقونـى قطعًـا قطعًـا، لينهـال الرجـل دقًـا بعـزم مـا فيـه عـلى قدمـى اليـسرى، صرخـت كـما لم أصرخ مـن قبـل، ألم يتجـاوز معنـى الكلمـة ومضمونهـا بمراحـل لابـد وأن هنـاك وصفًـا لهـذا لم يكتشـف بعـد، ضـاع صوتـى وسـط بكائـى، وحـين توقـف عـن الـضرب كنـت قـد أنهـرت تمامًـا، وبـدا وعيـى ينسـحب ببـطء ولكـن أذنـى تسـمعه يـردد «يبـدو أننـا أخطأنـا حـين أحضرنـاه، كان علينـا مبادلتـه برجالنـا أو قتلـه عـلى الفـور علينـا تصحيـح الخطـأ وقتلـه دون تأخـير»

تداخل صوت آخر وهو يقول «ولماذا لا نقم ب .....»

لم أعـرف مـا ينـوون فعلـه، بعـد هـذا اليـوم بأسـبوع، وجـدت لهجـة أخـرى معـى فى الحديـث كلهـا سـخرية، لم أفهـم سـببها، قدمـوا لى طعامًـا أفضـل مـن سـابقه وتبادلـوا الغمـز واللمـز أمامـى، لم يثـيروا

دهشتى وتعجلت موتى، لكننى فوجئت قليلًا حين أحضروا إليّ ملابس عسكرية وألبسونى إياها فجر أحد الأيام» لأول مرة أغادر هذه الغرفة منذ شهور ، فكوا قيدى وأخرجونى وصعدوا بى إلى سطح المنزل، لأقابل الرجل الذى دغدغ عظامى بشاكوشه ويبدو أكبرهم، نظر إلى مليًا وقال «للمرة الأخيرة ألن تتعاون معنا؟» ابتسمت فى إعياء ونفيت بهزة من رأسى.

فقال الرجل جهزوا الكاميرات وأعدموا هذا الرجل، ليكون عبرة لغيره من أسرانا وموالينا.

صدمة ممزوجة بسخرية اعترتنى، أخيرًا سأنال موتى، انتظرته هنا شهورًا، وحين قالها الرجل كل ما جال بخاطرى أن تكون ميتة سريعة بلا ألم ولكن تاريخ هذه الجماعات جعلنى أتشكك فى هذا، اقتادونى من جديد وساروا بى حتى وصلنا إلى منصة يبدو أنها معدة لذلك.

كان ذلك قبل أن تتهادى إلى مسامعى هدير طائرات تقصف بعنف فى كل اتجاه، تلقى بقنابل، الجميع يجرى فى اتجاه وعكسه وقصف من الطلقات لا تدرى مصدره يحيط بالمكان، فجأة وجدتنى وحدى والجميع من حولى يهرول دون نظر للوراء، هل هناك مخبأ يفرون إليه؟ لن أموت إعدامًا وسأموت تحت القصف هذه ميتة سريعة، ولكن دقيقة وأنا منكمش على الأرض لم تصبنى طلقة أو قذيفة بعد، الأمل يقترب ببطء، هل من طوق نجاة من هذا القصف، التردد هو ما أصابنى فى هذا الوقت، أسئلة لا وقت للإجابة عليها ، كل ما هو مطلوب منى الفرار، ولكن كيف وأنا لا استطيع حتى العدو، جريت أتقافز على ساقى السليمة حتى احتميت بجدار،

لا أظنـه يقينـى رصاصـة أو قذيفـة ولكنـه أفضـل مـن وقـوفى تحـت أعينهـم ناشـدًا مـوت ربـما لا يبغينـى الآن، احتميـت بالجـدار ثـوان حتى وقعـت عينـى عـلى دراجـة بخاريـة تبعـد عنـى مـا يقـارب عشرين مـترًا، لا تـزال الطلقـات تنهمـر كالسـيل وصراخ أطفـال ونسـاء لم أراهـن أبـدًا ينبعـث مـن كل مـكان، جثـث تتسـاقط مـن حـولى، وقلبـى يخشـى أن يصـير أحدهـا فى برهـة مـن الزمـن، عقـلى يعمـل بسرعـة وقـد ترجـم مـا وقـع بأنـه مسـاعدة إلهيـة لأنـه ببسـاطة لم يحـن أجـلى بعـد.

اشتعلت النيران فى أكثر من مكان وبدا وكأن السماء تمطر لهبًا.

هرولـت باتجـاه الدراجـة وأنـا أعـرج وودت لـو أحلـق كطائـر نـال أخـيرًا حريتـه، هنـاك احتـمال تبلـغ نسـبته تسـع وتسـعين بالمائـة أن تصيبنـى رصاصـة أو أكثـر، ولكنـى قـد اتخـذت القـرار، فلتتـألم سـاقى! فلينكـسر عظمـى! فلأسـقط ميتًـا! ولكنـى لـن أبقـى هنـا حتـى يعدمونـى، هرولـت بأقـصى مـا اسـتطعت، هرولـت وكأن فهـود الدنيـا تلاحقنـى، وصلـت للدراجـة البخاريـة، اعتليتهـا أدرت محركها، إنـه يعمـل، القصـف مسـتمر، متـى توقـف سـأطير مـن هـذا المـكان. بعـد دقائـق مـرت سـاعات انتهـى القصـف أو ظننـت ذلـك، كتفـى ينـزف بغـزارة، لقـد أصبـت بالتأكيـد، أتريـد السـير تحـت المطـر دون أن تبتـل؟ مسـتحيل بالطبـع، لـو لم أفـر الآن سـأنزف حتـى المـوت، جريـت بأقـصى طاقـة لـدى، صـوت الدراجـة يفضحنـى، أنـا هالـك لا محالـة، جريـت ثـم جريـت لتخـترق ظهـرى رصاصـة أسـقطتنى مـن فـوق الدراجـة، ألم يعتصرنـى ووداعًـا للحيـاة قدمتـه عـن طيـب خاطـر.

ظننـت الأمـر انتهـى، ولكـن عينـى تفتحـت مقاومـة الضـوء

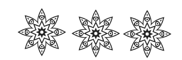
المزعـج المسـلط عليهـا، فى غرفـة يسـيطر عليهـا اللـون الأبيـض، أجهـزة طبيـة ومحاليـل تحيـط بـى مـن كل اتجـاه، رائحـة المستشـفيات التـى طالما مقتهـا تلتـف حـولى فى حميميـة غـير معتـادة، انعـدام تـام من القـدرة عـلى الحركـة لـدى، فقـط عينـاى أمـا باقـى جسـدى وكأنـه قـد اتخـذ قـراره بموافقـة كل الأعضـاء بالشـلل التـام والسـكون، ألم شـديد يحتـل كل ذرة فى جسـدى، يتصاعـد مـن قدمـى مـرورًا بعظامـى حتـى يصـل لقمـة النضـج فى رأسـى، وعيـى يغيـب ويعـود، لا أدرى كـم يستمر أو كـم يغيـب ولكـن بمـرور الوقـت اعتـدت المكان، سـأموت قهـرًا لـو وجـدت نفـس الوجـوه التـى أحاطـت بـى فى المـرة الأولى، ولكـن لسـعادتى كانـت عـين أمـى ترمقنـى مـن بـين الدمـوع دموعهـا دائـمًا تزحـف ببـطء عـلى وجنتيهـا البارزتـين ، جسـدها هزيـل، عينيهـا غائرتـين، ترتـدى عبـاءة داكنـة اللـون وغطـاءً أبيضًـا للشـعر، وحـين تأكـدت مـن صحـوى ارتمـت فى حضنـى محـاذرة جراحـى وارتميـت فى حضنهـا، دموعهـا أغرقـت وجهـى بمعاونـة دموعـى، كانـت تنهنـه مـن السـعادة وهـى تشـكر وتحمـد، وكانـت هـذه واحـدة مـن أسـعد لحظـات حياتـى، بعـد ذلـك زارنـى زملائـى ورؤسـائى فى العمـل والسـعادة تعلـو وجوههـم ولكـن السـؤال الـذى ظـل يحيرنـى «كيـف عثـروا عـلىَّ ونقلونـى وجـاءوا بـى إلى هنـا؟» وحـين وجهـت لهـم هـذا السـؤال، لم يتفهمـوا فى بـادئ الأمـر حتـى فسرت لهـم «كيـف نقلتمونـى مـن سـوريا إلى هنـا؟»

«سـوريا؟! ومـا شـأنك بسـوريا؟!» «لقـد أخبرونـى بأنهـم نقلونـى لسـوريا»

«خدعـوك يـا عاصـم خدعـوك، أنـت لم تغـادر مـصر مـن الأسـاس، لقـد وجدنـاك فى بقعـة نائيـة بـأرض سـيناء خططنـا لاقتحامهـا،

لقد قتلنا الكثيرين منهم، ووجدناك بين الجثث، كنت ترتدى زيًّا عسكريًا وكان من السهل تمييزك»

ابتسمت وأنا أتذكر كيف تم خداعى ضحكت وأنا أتصور ماذا لو تأخروا دقائق فى تنفيذ المهمة بعد أن يتم إعدامى، قهقهت وأنا أتخيل نفس الطائرات تحوم حول هذه الجزيرة لتحيلها إلى فوهة بركان بهدف إنقاذى، بكيت وأنا مدرك بأن ذلك درب من دروب المستحيل، لأنى تركت الخدمة ولا علم لهم بوجودى هنا على سطح هذه الجزيرة أو حتى موقعها على الخريطة.



«إنه فى هذا العالم وعلى هذه الأرض الضائعة وحدهم الموتى يعرفون الراحة أما الأحياء من البشر فليس لهم إلا أن يعضوا على النواجز ليتحملوا الوجود»

آن لور بوندو

(14)

يحيي

(2012-2011)

أنت الآن تسير فى اتجاهين متوازيين البحث عن سالم الملاح المختبئ فى جحر ربما لا يصله إلا الهواء والإيقاع بحسام الميرغنى، الأول لا أثر له تمامًا والثانى اسم عليك أن تكون فى غاية الحذر قبل النطق به، عليك أن تتلفت يمينًا ويسارًا قبل التلفظ بسوء تجاهه، لديه استثمارات ومشاريع بعدد شعر رأسه بعضها مشروع والآخر غير ذلك، لا يقول للمال لا أبدًا، معتمدًا على الحماية التى يكفلها لها والده ذو المنصب الكبير بإحدى الجهات السيادية، حسام غير متزوج ولكن علاقاته النسائية متعددة، فنانات، مذيعات، سيدات أعمال، عاهرات، ينال ما يريد طوعًا و كرهًا ولا طاقة لإحداهن بالرفض، يختار وتلبى وتحصل على المقابل القادر على جعلها تتجاوز الأمر. ليس وسيمًا وليس قبيحًا، لكن غضبه هو القبيح، غضبته قد تعنى مفارقتك للعالم أو على الأقل إتعاسك فى المتبقى من أيامك بشكل جذرى، إذا أرادك سيحصل عليك دون شك، أما أنت فالوصول للقمر ربما أسهل لك من الوصول إليه، ولكنك

قد درست كل تحركاته على مدار شهور، وصار لك هدف واحد أقرب للمستحيل، ولكنك المستحيل هو أن تحيا دون تحقيقه، وهو الحصول على حسام الميرغنى الذى لولاه، ما تم اتهام سليمان بجريمته وإعدامه وما قام سالم بمحاولة إظهار براءة والده وما لجأ الى خطف أطفال للمساومة على إعادة محاكمة والده، ربما لم يكن حسام سببًا مباشرًا لمقتل ولدك ولكنه الحلقة الأولى فى سلسلة ما تلا ذلك من أحداث، لديه نقطة ضعف واضحة وهى النساء، بعد مزيد من الجهد أعددت ملفًا ضخمًا بشأن مشروعاته، تحركاته، علاقاته، فى وقت قليل صرت أكثر دراية بكل ما يخصه ربما أكثر منه، وبعد أن علمت كل صغيرة وكبيرة عنه آن الأوان للإيقاع به، سيكون الخبر الأسعد لعدد غير قليل من البشر اختفاء هذا الرجل من على سطح الأرض ، ولكن كيف ستوقع به؟ كيف ستبعده عن كل هؤلاء الرجال الذين يحيطون به وكيف ستفتت إجراءات الحيطة والحذر التى تُنفذ بدقة من قبل رجاله؟ إنه لا يكون بمفرده إلا بصحبة امرأة، هنا يبتعد رجاله قليلًا.. إذن ما العمل؟

وحدك صعب، لابد من مساعدة، شخص تثق به، وينفذ ما يطلب دون نقاش، ومن الأفضل أن تكون أنثى والأهم أن تكون فاتنة، هنا تتذكر سالى فتاة الليل التى ضاجعت نصف ضباط الشرطة مقابل أن يبقى ملفها فارغًا، جميلة مثيرة عيونها تشع إثارة وشبقًا لابد أن شيطانًا يسكن هناك، لم ترد طالب متعة من قبل طالما سيعود ذلك عليها بالنفع، تتحرى عنها، تجدها صارت صاحبة بوتيك، تتساءل كيف ومتى؟ حتى تفهم، الزواج من ثرى عربى عجوز عاشت معه شهرًا قبل أن يصل إليه الموت لترث

عنـه مبلغًـا مـن المـال أحسـنت اسـتثماره، تهاتفهـا وتذكرهـا بنفسـك وتطلـب منهـا اللقـاء، لم تسـتطع الرفـض، اتفقتـا عـلى المـكان والزمـان بأحـد كافيهـات الزمالـك، أتـت فى الموعـد، اسـتطاعت فى ثـوان سـبقت وصولهـا لطاولتـك أن تـأسر كل أنظـار المتواجديـن عـمالًا وعمـلاء رجـالًا ونسـاء، توشـك كل ذرة فى جسـدها أن تمـزق هـذا الفسـتان الأسـود القصـير الضيـق الـذى لا يتسـع لطفلـة، تتفحصهـا بنظـرة موقنًـا بـأن هـذا الجسـد لا يطيـق حيـاة دون رجـل ولكـن كـما علمـت أنهـا غـير متزوجـة أو هكـذا تعلـن، حسـنًا لقـد أحسـنت الاختيـار حـين يراهـا الميرغنـى لـن يطيـق صـبرًا، تجلـس أمامـك والجميـع يحسـدك أو يلعـن حظـه السـيء، تحييهـا وتسـألها عـن أحوالهـا وتبادلـك نفـس الأسـئلة، لم تفهـم بعـد سـبب اللقـاء، لم تكـن أبـدًا واحـدًا مـن الضبـاط الذيـن نالوهـا قبـل، فهـل حلـت لـك الآن؟ الفضـول ينضـح عـلى وجـه أتعـب الكثيريـن، تطلـب منهـا خدمـة فتتسـاءل عـن نـوع الخدمـة، فتقـول بهـدوء:

- هناك رجل أريده أن يراكِ

- يرانى فقط؟

- بالطبع لا، سيطلب أن يواعدك وستلبين طلبه

- ولكنى توقفت عن هذه الأعمال منذ زمن يا باشا

تطلـق ضحكـة مصطنعـة يـا يحيـى ولكنهـا لفتـت انتبـاه الجميـع وأثـارت توترهـا ثـم بصـوت حاولـت أن يكـون منخفضًـا وأنـت تضغـط عـلى كل كلمـة

- وبالنسـبة لشـقة أكتوبـر التـى تديرينهـا وبالنسـبة لزبائنـك مـن العـرب ورجـال الأعـمال والفتيـات اللاتـى تختاريهـن بنفسـك؟ أم أنهـا

جمعيــة خيريــة يــا بنــت ال.......؟

- طلباتك يا باشا

- هنـــاك حفــل فى فنــدق (...) بــشرم الشــيخ الخميــس القـــادم، ســتقابلينه هنــاك، أريــده أن ينبهــر، ســتحجزين غرفــة هنــاك قبلهــا بليلــة ولمــدة 3 ليــالٍ، فقــط أريــده بعــد أن ينتهــى الحفــل أن يصعــد لغرفتــك بمفــرده، وســتتركين الباقــى لى.

- بسيطة

- ولكــن لــو علــم مخلــوق بهــذا الحديــث الــذى دار بيننــا، ليــس عليــكِ ســوى أن تودعــى هــذا الــرأس الجميــل قبــل أن يغــادر هــذا الجســد الفاتــن

تــم الاتفـــاق فى ســـهولة ويــسر والخطــة تســير وفقًــا لتصــورك وفى اليــوم المحــدد كانــت ســالى فى الميعــاد تؤكــد للمــرة الألــف بأنهــا اســتحوذت عــلى ثلــث نصيــب الأرض مــن الأنوثــة، لم تقابــل بعــد الرجــل الــذى لم يتمناهــا ولــو فى أحلامــه، فى منتصــف الحفــل تصعــد إلى غرفتهــا يتبعهــا بدقائــق حســام، وبمجــرد أن يدلــف للغرفــة ممنيًــأ نفســه بليلــة لا مثيــل لهــا تباغتــه مــن الخلــف بضربــة عــلى الــرأس، ثــم تســحبه لغرفتــك بينــما ســالى تراقبــك، ثــم تلقــى لهــا بكلــمات لقائكــم الأخــير:

- هــذا الرجــل ســيختفى للأبــد، ربــما يســتجوبون الجميــع لاحقًــا وأنــت أولهــم، أثــق فى قدرتــك عــلى الاندهــاش والانــكار، لــو حــدث أى خطــأ أعــدك ســتلحقين بــه ولــو كان آخــر يــوم فى عمــرى.

ولم يكــن الخــروج بــه مــن الفنــدق ســوى أمــرًا يســيرًا بعــد أن منحتــه مخــدرًا يكفيــه لينــام يومــين عــلى أقــل تقديــر ووضعتــه فى حقيبــة الســيارة، مــن يجــرؤ عــلى تفتيــش ســيارة ضابــط زميــل يرتــدى البدلــة الميــرى؟

لا أحـد.. هكـذا حصلـت عليـه وهكـذا نلـت بعـض مـا تريـد، أثـار اختفـاؤه عاصفـة مـن الأسـئلة لم تجـد إجابـة واحـدة، تـم التحقيـق مـع الجميع وتوجيـه الاتهـام لـكل مـن حـضر الحفـل الأخـير، ظـل اختفـاؤه لغـزًا انشـغل بـه الـرأى العـام طويـلًا وراح الجميع يخمـن ويحلـل ويتوقع هـل تلقـى تهديـدًا فهـرب للخـارج فـرارًا مـن أحـكام قضائيـة منتظـرة أو جرائـم مسـتترة ؟ هـل تـم اختطافـه عـلى سـبيل الانتقـام ومـا أكثـر جرائمـه؟ هـل مـات هـل قُتـل؟ أسـئلة وحـدك تعـرف إجاباتهـا وربـما سـالى التـى أوفـت بوعدهـا وحفظـت رأسـها، احتفظـت بـه داخـل غرفـة مغلقـة طـردت منهـا الشـمس لينقطـع خـبره ويستسـلم كل مـن عرفـوه ليـأس عظيـم، الغريـب أنـك منـذ حصولـك عليـه أنـك لم توجـه لـه ضربـة واحـدة ، لم تجـب لـه تسـاؤل، لم يؤثـر فيـك توسـله، وكان هـذا عـذاب أكـبر، أن تذيقـه العـذاب وتقطـع عنـه سـبل الحيـاة إلا مـن أنفـاس لا تغـادر غرفـة دون سـبب واضـح، لـو كانـت الحـيرة تطعـن لـكان أكثرهـم طعنـات، لـو كانـت تـؤلم لصـار أشـدهم ألمًـا. عـاش محبوسًـا فى غرفـة يُعاقـب عـلى جريمـة دون أن يعـرف مـا هـى.

بعـد مـرور عـام ونصـف عـلى وفـاة آسر، وانسـحابك مـن المنـزل وتـركك لداليـا تجابـه مآسـيها وحدهـا، كان طلبهـا للطـلاق صفعـة مؤلمـة عـلى وجهـك، والأكثـر إيلامًـا إصرارهـا عليـه .

بـاءت كل محاولاتـك بالفشـل، كان جرحهـا أكـبر مما تعـى وكانـت بحاجـة إليـك، ولكنـك خذلتهـا، ودائـمًا النسـاء لا تنسـى مهـما بـدا غـير ذلـك وأكثرهـن لا يسـامح، لم تعـد قـادرة عـلى الاسـتمرار فى هـذا المنـزل ولا أن تحيـا هـذه الحيـاة، فضلـت الانسـحاب كليًـا هـذه المـرة وقـع الانفصـال لينفصـل جـزء أخـر مـن روحـك ، لم يتبـق منـك إلا جسـد لا قيمـة لـه عجـز عـن العثـور عـن خاطـف ابنـه وفشـل فى الاحتفـاظ

بحبيبتـه، وانشـغل بالحصـول عـلى رجـل يحبسـه مقيـدًا فى غرفـة لهـدف كامـن فى صـدرك.. لم يعـد لديـك إلا هـدف واحـد تعيـش مـن أجلـه هـو العثـور عـلى سـالم الـذى اختفـى كـما لـو لم يوجـد أصـلًا .. ترفـض أن تستسـلم لإمكانيـة هروبـه مـن براثنـك للأبـد، لـو حـدث ذلـك فأنـت لا تسـتحق أى حيـاة ولا تسـتحق شـهيقًا أو زفـيرًا يجـدان سـبيلهما فى صـدرك وأن موتًـا عاجـلًا هـو أشرف لـك مـن أن تعلـن عجـزك، تسـتيقظ لاعنًـا عجـزك وتلعـن حياتـك، تسـتيقظ تلعـن ألمـك.

ستسـتمر فى البحـث الباقـى مـن أيامـك التـى باتـت عديمـة القيمـة أو يأتيـك المـوت ذات مسـاء، وقبـل أن تنتبـه مـن صدمـة انفصالـك عـن داليـا يتلـو ذلـك صدمـة أخـرى تبعثـر الباقـى مـن كيانـك وتفتـح جرحًـا يكفـى لإخمـاد ألـف حيـاة هـى وفـاة والـدك، وجـدت الجثـة متعفنـة فى شـقته بعـد أن أهملتـه تمامًـا كابـن وحيـد، خطـأ جديـد لم يرحـم ضمـيرك فى الباقـى مـن عمـرك.

قبـل وفاتـه قلـت زياراتـك لـه واكتفيـت بالـرد عـلى مكالماتـه بـين الحـين والآخـر، لم يعلمـك شـيئًا بشـأن مرضـه ولا بالأزمـات القلبيـة التـى تعـرض لهـا ونجـا منهـا بأعجوبـة كان يعـرف مـدى حزنـك بـما حـدث لـك بعـد آسر، هكـذا أخـبرك طبيبـه الخـاص بعـد العـزاء ليمنحـك طعنـة جديـدة بقلبـك الـذى لم يعـد بـه متسعٌ لجـرح، لتـذرف دمعـة هاربـة زحفـت عـلى وجهـك فى تحـدٍ قبـل أن تلقـى حتفهـا أسـفل ذقنـك، تعـود إلى بيتـك وتنظـر لحياتـك التـى لم تعـد تسـتحق هـذا اللقـب، وتعـترف لمرآتـك بأنـك مِـت عقـب وفـاة آسر مبـاشرة بينـما هـذا الواقـف شـبح عاجـز لبقايـا إنسـان لم يعـد لـه وجـود .

بعد إهمالك لعملك على مدار عامين واكتفاءك بمجرد التواجد والحضور دون القيام بشيء حقيقي يُذكر، صدر قرار نقلك للعمل بسيناء على سبيل العقاب، إما الامتثال وإما الرفض، كنت على وشك الرفض لكنك فكرت لم لا ترحل إلى مكان جديد ، ربما يهون ولو قليلًا من عذابات ذكريات أصبحت دائمة لأناس كانوا هنا ورحلوا، وفى قرار مفاجئ لك ولرؤسائك تمتثل للنقل مصطحبًا معك عدة صور وجمع من ذكريات سعيدة لحياة ذهبت بلا عودة ومتابعة من بعيد لقضية ظل مرتكبها طليق ينعم بالأمان بينما أنت روح ميتة تسكن جسد حي.

وبالطبع تصطحب حسام الميرغنى الذى تغيرت ملامحه كثيرًا واستطال ذقنه وشعره ونحف جسده، صار أقرب لمجاذيب الشوارع والحارات، تركته يعيش فى قبو فيلا لا يسكنها سواكما ولا يصل إليها إلا نور الشمس ونسمات الهواء، وغير مسموح لأحد بولوجها ، الغرفة التى تقود للقبو مغلقة دائمًا مفتاحها لا يغادر جيبك إلا كل يومين أو ثلاثة وأنت تضع له طعامًا فقط يبقيه حيًا ، مرة وحيدة حاول الامتناع عن الطعام وكنت على وشك فقده، لكنك تمكنت من إنقاذه ، لن تسمح له بقتل نفسه، ليس من أجل هذا احتفظت به، سيعيش حتى حين، أنت نفسك لا تعلم متى سيفوز بالموت.

بعد استقرارك فى سيناء تتعرف على شاب مجتهد يصغرك بعقد كامل ولكنه اقترب منك كثيرًا دائمًا تتساءل بداخلك ما الذى يجعله يظن بأنكما قريبين، لسبب ما اعتبرك كوالده أو أخيه الأكبر، بالطبع كان أكبر من أن تعتبره ولدك ولكن ليس مستحيلًا اعتباره أخًا لك لم تلده أمك، كان يدعى عاصم شجاعًا مقدامًا لا يخاف الموت أو يعنيه،

صمتـك الطويـل معـه واكتفاءكـما بحديـث العيـون جعلكـما متفاهمـين تمامًـا ، كان يوقـرك ويسـتعين بـك فى الكثـير مـن أمـوره.

مـع الوقـت أحببـت العمـل معـه، ولكنـك لم تبـح لـه بـسرك أو بذلـك الكامـن في قبـوك، تعـددت عملياتكـما معًـا فى سـيناء، وضـح مـدى الانسـجام والتفاهـم بينكـما، كان قناصًـا بارعًـا لابـد وأن لـه عينـى صقـر، لم تـره يخطـىء مطلقًـا، يـودع الرصاصـة فى أى قطعـة مـن الجسـد كيفـما شـاء كـما لـو كان يغرسـها بيـده، قبـل كل عمليـة تـدرس الأمـور جيـدًا، تعقـد معـه لقـاءً، تختـارا سـويًا نقطـة تمركـزه المثـلى، تتيـح لـه حريـة الاختيـار أحيانًـا، وكان دومًـا عنـد ظنـك.

اسـتكانت حياتـك رغـم زهـدك فيهـا ، كـم مـرة تمنيـت المـوت؟ كـم مـرة وددت لـو جـرؤ أحدهـم عـلى منحـك إجـازة دائمـة مـن عـالم لا ترغـب فيـه، غريـب أمـر المـوت يتمنـع عـن منتظريـه، مـن هـم بأمـس الحاجـة إليـه ويـسرع الخطـى إلى كل سـاهٍ عنـه لديـه خطـط ومشـاريع تحتـاج أعـمار وليـس عمـرًا واحـدًا لتحقيقهـا.

حيـاة سـقيمة كترعـة راكـدة عديمـة الفائـدة بحاجـة لحجـر واحـد يعيـد إليهـا حركـة توقظهـا مـن ثباتهـا ، تُـرى هل صـار العـالم بـلا أحجار، أم ليـس لأحدهـم القـدرة الكافيـة لحمـل حجـر فضـلًا عـن إلقائـه؟

كنـت متيقنًـا مــن الإجابـة حتـى أتـاك زائـر غريـب فى منزلـك يطلـب الحديـث معـك، مجـرد سـماعك لدقـات البـاب أثـار لديـك قلقًـا لا تعـرف سـببه ربـما لأنهـا المـرة الأولى التـى تسـمع فيهـا طرقـات عـلى هـذا البـاب، فواتـير المـاء والكهربـاء تدفعهـا مسـبقًا، حاجياتـك تجلبهـا معـك، طعامـك تعـده بنفسـك، أمـا نظافـة المنـزل فاقتصرت عـلى غرفتك التـى تنـام بهـا ومنضـدة تتنـاول عليهـا الطعـام، هـذا البيـت لم يـر سـواك،

من هذا الطارق؟ اتجهت إلى الباب وسلاحك وراء ظهرك، صحيح أنك ترغب فى الموت ولكن عليك أن تفهم، لا مزيد من الألغاز فى القليل الباقى من العمر، تفتح الباب بهدوء يطالعك وجه يتحدث بعربية فصحى ولكنة غريبة بعض الشىء فارع الطول وجهه أشقر وعيناه زرقاوان وشعره مائل للصفرة:

- يحيى باشا، أسف على إزعاجك، أود الحديث معك قليلًا فى أمر بالغ الأهمية

تتردد فى دعوته للدخول ولكنه بذكاء يلحظ ذلك فيقول:

- لا أريد أن أدنس محرابك، سأنتظرك فى السيارة بالخارج، يمكننا الحديث فى أى مكان يروق لك.

- من أنت؟

- ستعرف كل شىء فور أن نستقر فى مكان ما

بعد دقائق تغادر المنزل، تقود سيارتك وهو يتبعك، تصلا إلى مطعم هادئ اعتدت المكوث فيه، يتبعك الرجل فى هدوء حتى تستقرا على طاولة فى أحد الأركان بعيدة نسبيًا عن أقرب الحضور :

- يمكنك مناداتى مروان، آسف على مفاجأتك بهذا الشكل ولكن الأمر يستحق.

- تفضل

- أعلم أنك تعيش حياة صعبة بعض الشىء، أكاد أرى روحك فى حدقة عينيك، ظلام يسود داخلك، وعذاب تنضح به قسماتك لا أقصد التدخل، لكن ما سيطرح عليك الآن سيجعلك تغفر لى ولكن فى البداية هل لى بجوالك الشخصى؟

- ؟؟؟؟؟؟

- أعدك لن تندم ولكنى فقط أتوخى الحذر

تُخرج هاتفك وتناوله لهذا الغريب الذى بادر بإغلاقه، سيندم لو لم يكن لديه ما يستحق، وأنت تعتقد أنه سيندم طويلًا

- أهنئك على نجاحاتك هنا فى العمل منذ قدومك، كنت إضافة قوية جاءت فى الوقت المناسب.

- أشكرك

- حقيقة أنا أعلم عنك الكثير بشكل لا تتخيله، أعلم عن ابنك وموته، زوجتك وانفصالك عنها، والدك الراحل، أعلم كم أنت متعب وحان الوقت لترتاح.

- لا أعلم من أنت ولا أظن أن راحتى بيديك، لكن ما تعرفه لا يخفى على أحد.

- ربما، لكن قل لى ما الذى تحتاجه الآن؟

تضحك وأنت تردد:

- أن أُترك وشأنى

- حسنًا ولكن ربما لدى بالفعل ما تريد.

- حاليًا لا أريد إلا الموت، لكنى لن أسمح أن ينضم قتيل جديد للعائلة

- وماذا لو أقنعتك بضرورة أن تُقتل؟

لا تتذكر أخر مرة ضحكت فيها بهذا الشكل، ثوانى دقائق ضحكاتك تجلجل فى أركان المكان، تلفت أنظار الحضور القليل إليكما، وأنت لا تأبه وتواصل الضحك، وحين انتهت نوبة

الضحك لم تكن تظن أبدًا أن لديه بالفعل ما يقنعك بضرورة أن تُقتل.

- تعلم لولا وجود الناس حولى لحولتك إلى أشلاء، لقد تحملت الكثير من هذا السخف دون داعٍ، لا أعرف كيف أضعت وقتى معك

- عاصم باشا نحن نريدك للعمل معنا؟

- العمل معك وأنا ميت، ما هذا الهراء الذى تقوله مستر شبح؟

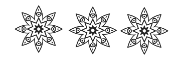
- بالطبع لا، نريدك حيًا بالتاكيد

- لديك دقيقة واحدة توضح سبب هذه الجلسة والهدف منها بوضوح، وإن لم تفعل أعدك بأنى لو وقعت عينى عليك ثانية ولو صدفة فلن تغادر السجن حيًا.

- يحيى باشا، لدي شيء تحتاجه بشدة وتبحث عنه بضراوة فى سنواتك الأخيرة، شيء قد تستعيد به توازنك، قد تريح به قلبك، ولكن الثمن الذى ستدفعه للحصول عليه غالٍ بعض الشيء.

- وما هذا الشي؟

- فى الحقيقة هو شخص، أظنك تعرفه جيدًا هو سالم الملاح.



الإنسانية فعل فاضح، شر مستطير آثرنا أن نجعله وصفًا جميلًا، رغم غلبة المقزز فى كل ما نأتيه من أفعال.

هشام الخشن

(15)

روبيرتو روسّى

(1985 - 1990)

أن تفعل ما يتعين عليك فعله شعور جميل يعرفه كل طالب مجتهد وموظف مثالى ومسئول شريف وحاكم عادل (والأخير لم يعد له وجود على سطح الأرض) وكان هذا هو شعورى وأنا أدير هذه المؤسسة، لم أعد مجرد غاضب وحانق بل صرت رجلًا فعالًا لم يكتف بالشعارات، خصصت جزءًا غير يسير من أرباح البيزنس الخاص بى لتمويل هذه المؤسسة، صارت كيانًا عظيمًا له إسهامات كبرى فى دول أوروبية عديدة، ثم بدأنا التوجه لاحقًا إلى دول أخرى فى أفريقيا وآسيا، الجوع والجفاف يسيطر على مساحات كبيرة فيهما ويلتهما أعدادًا كبيرة من الأطفال، لم يكن الأمر صعبًا، بل على العكس كان مثيرًا وأنت ترى ثمرة مجهوداتك، أرواح تُنقذ وأطفال تُشفى ورجال ونساء يستعيدون العافية والأمل، حينها أيقنت بأن الجنة كانت ممكنة على الأرض لو تضافر الجميع وأخلص النية وأحسن العمل، لو تخلى الجميع عن بعض أطماعه، لو استحوذ

فقط على ما يكفيه، لا ما يكفى أجيالًا قادمة من نسله، لو لم يحصل البشر على أكثر من حقهم، لحصل الآخرون على ما يكفيهم ويقيهم السؤال ويمنعهم الحاجة.

كان أخى يؤازرنى ويساعدنى وقد راقت له الفكرة، لقد عانى كثيرًا وهو طفل ورأى أن الأمر يستحق، لم يألو جهدًا تجاه المؤسسة، كما لم يألو جهدًا تجاه العمل، يمكن القول بأنه الشخص الوحيد طوال عمرى الذى حاز ثقتى ولم يخذلنى، اعتبرت عائلته عائلتى، وكل من هم غيره أكن فى غاية الحرص فى تعاملى معهم بما فى ذلك لويجى الذى يقف فى خانة يظنها تجمع بين الصديق الوفى والمساعد المخلص.

عقب تأسيسى لهذه المؤسسة، جالت بخاطرى أفكار عدة بشأن المستقبل، بوجه عام لا يبدو الغد أفضل من اليوم، كما أن اليوم ليس أفضل كثيرًا من الأمس، الأوقات السعيدة قصيرة خاطفة قد لا تتجاوز اللحظة وذلك لأن أتفه خبر سيء يمكن أن ينهيها وأقل حبة تراب جديرة بأن تعكرها، لذا فلماذا لا أمنحهم لحظات قليلة ينسون فيها همومهم وأوجاعهم، ومن هنا جاءت فكرتى بالعمل فى مجال السياحة، مجال رائع يسبب السعادة لكل المتصلين به ضيوف، مضيفين أو عاملين، وبالفعل بدأت فى أواخر ثمانينات القرن الماضى باستقدام السياح لبلدى إيطاليا، فهى تحتل موقعًا بارزًا من السياحة العالمية كواحدة من أهم خمس دول سياحية فى العالم وبها العديد من الأماكن التى يشتهى رؤيتها الكثيرون، كيف يعيش المرء دون أن يرى برج بيزا المائل الشهير

فى مدينـة بيـزا الـذى تـم بنـاؤه منـذ حـوالى تسـعمائة عـام، أو مدينـة فينسـيا وقنواتهـا وممراتهـا المائيـة المبهـرة أو يـرى الكولوسـيوم (المـدرج الرومانـى) أحـد عجائـب الدنيـا السـبع الحديثـة، والكولوسـيوم هـو الاسـم اللاتينـى للمـدرج الكبـير الـذى تـم بنـاؤه فى العـصر الرومانـى فى قلـب رومـا القديمـة فى القـرن الأول الميـلادى بـين عامـى 70 و72 بعـد الميـلاد وكان وقتهـا المـدرج الخرسـانى الأكـبر فى العـالم، واعتـبر حديثًـا واحـدًا مـن أعظـم الأعـمال الهندسـية المعمارية عـلى مسـتوى العـالم، دائـمًا مـا يثـير هـذا المـكان فى نفسـى رهبـة مـا، إنـه بنـاء فريـد مـن نوعـه بالفعـل، حلبـة مـوت رومانيـة صممـت ببراعـة فى الأصـل لتشـهد معـارك دمويـة بـين أسرى الدولـة الرومانيـة وجنودهـا، تلتـف الجماهـير حـول السـاحة تهتـف وتـزأر وتشـجع وتحـث الجنـود عـلى سـحق الأسرى فى لقـاءات عنيفـة غـير متكافئـة، حيـث يُمنـح الأسرى أسـلحة بسـيطة بدائيـة بينـما الجنـود مدججـين بأمـضى الأسـلحة وأقـوى الـدروع مما يعنـى مـوت محقـق لـلأسرى لا محالـة. ثـم سرعـان مـا تطـور الأمـر لنـزالات وألعـاب أكثـر دمويـة، طريقـة بشـعة للفتـك بـالأسرى وسـط صيحـات جماهـير متحفـزة متعطشـة للدمـاء، كان هـذا قائـم فى العصـور القديمـة وعـلى أرض رومـا فى العـصر الرومانـى، أمـا فى وقتنـا الحـالى فقـد صـار الكولوسـيوم فى إيطاليـا مجـرد مـزار سـياحى عظيـم يـروى فـترة مهمـة ليسـت بالقصـيرة مـن تاريـخ رومـا، لم تسـلم إيطاليـا شـأنها شـأن الـدول الأخـرى مـن الظالمـين المتصارعـين عـلى الحكـم والنفـوذ، الراغبـين فى التوسـع، الطامعـين فى أمـلاك الغـير، لكـن يبقـى المـكان نفسـه تحفـة معماريـة مبهـرة ملهمـة، ولكـن أُسـىء اسـتخدامها بالطبـع.

حاضرة دائمًا وأبدًا وحشية هذا المخلوق المسمى بالإنسان، يقدم على أفعال أكثر دونية، ويرتكب حماقات لم يقدم عليها حيوان، تلذذ بالتعذيب واختراع وسائل سادية للقتل، مصاصو الدماء يبدون أقرب للرقة مقارنة بهؤلاء، عشت عمرًا بأكمله تمنيت أن يسود العدل هذا العالم الكريه، ماذا لو نال كل مجرم جزاءه العادل؟ ماذا لو قتل القاتل واغتُصِب المغتصب، ماذا لو مورست الوحشية ضد من يستحقها؟ ماذا لو نال الآثمون ما يستحقون؟ ماذا لو كان جزاؤهم من جنس عملهم؟ هل سيكون ذلك وسيلة رادعة؟ هل سيقدم حمقى آخرون على ارتكاب نفس الجرائم بعد علمهم بالعقاب المستحق المنتظر؟ هل كان سيتغير شكل الحياة على الأرض؟

فى اعتقادى نعم لو عاد الكولوسيوم من جديد وصار ساحة معروفة للقتال يلتقى داخله كل مجرم خسيس فى مواجهة مع مجرم آخر، لو كل ديكتاتور وحشى ظالم، أو مجرم قاتل، أو مغتصب غادر، ألقيناه فى الساحة فى مواجهة مذنب آخر وسط حشود غفيرة من البشر تنعم بعدالة مفقودة وهى ترى النهاية المؤسفة لكل ظالم متجبر، ربما تغير الأمر كثيرًا.

وصلت لهذه القناعة مع إتمامى لعامى الخامس والخمسين من العمر، الأرض تحتاج لكثير من العدل، تقديم المساعدات وعلاج المرضى وإغاثة المحتاج والمواساة والتعاطف ليسوا كافيين، فذلك لن يمنع فسادًا مستشرًا فى الأرض، بل يجب ردع المجرمين العتاة من لا يملكون ذرة واحدة من الرحمة، يجب أن ينالوا بعض ما اقترفوه،

يجب أن يلاقوا نهاية شنيعة تليق بأفعالهم، هؤلاء يستحقون الوحشية والجنون، الثأر منهم عدل والقتل فيهم حلال، الموت هو سبيل الخلاص منهم ولكنه لن يكون قتلًا رحيمًا أبدًا، يجب أن يكون قتلًا قاسيًا مؤلمًا، يشفى غليل المظلومين ويرهب جميع الظالمين، يجب على الكولوسيوم أن يعمل ليس كمزار بل كساحة تنتصر للعدل، سيطرت على رأسى هذه الفكرة وتملكتنى تمامًا، ولكن كيف السبيل لتحقيقها، كيف؟ كيف؟

كيف لا يكون دجالًا من يعلم الجائعين شيئًا آخرًا غير تعليمهم كيف يتخلصون من الجوع؟



«من ليس فى قاربه مكانًا للغارقين فلا مكان فى قلبه للشفقة.
من لا يعرف كيف يقدم العون فعليه أن يسكت.»

برتولت بريشت

(16)

عاصم - الجزيرة

أبريل 2015

لـن أنسـى مـا حييـت مـا تعرضـت لـه مـن عـذاب، ومـا كنـت أنـا مقبـل عليـه، حتـى نجاتـى مـن هـذه الحادثـة حملـت فى طياتهـا عديـد مـن الأمـور غـيرت مجرى حياتـى، حين عـدت وتـم نقـلى إلى المستشـفى اضطـر الأطبـاء لاحقًـا لبـتر أصبعـين مـن قدمـى نتيجـة تجمـد الدمـاء بهـا وتلـوث الجـرح لفـترة طويلـة وهـو مـا اعتـبر السـبب الرئيـس لتركـى الخدمـة بعـد ذلـك، إصابـة كهـذه لـن تمكنـى مـن مواصلـة عمـلى بنفس الكفـاءة ويصعـب معهـا اسـتمرارى فى أداء مهامـى و تمـت إحالتـى للمعـاش بعدمـا تـم تكريمـى تكريـمًا بـدا ودودًا مسـتحقًا ولكنه مجـرد تعويـض عـن قـرار تقاعـدى الجـبرى، حياتـى تحولـت بوصلتهـا مائـة وثمانـون درجـة وهـذا التغـير هـو الـذى قادنـى إلى هنـا فيـما بعـد.

وفى عـام 2013 حصلـت عـلى مكافـآة لا بـأس بهـا تصلـح نـواة لبـدء مـشروع تجـارى، بـدأت فى الإعـداد والإجـراءات وسـط دعـوات والدتـى التـى تشـعر مـن فـترة بأنهـا ليسـت عـلى مـا يـرام، تتـوالى الأيـام ويـزداد شـعورها بالإعيـاء وإصابتهـا بالـدوار، طلبـت منهـا مـرارًا

البقـاء فى فراشـها، وعـدم إجهـاد نفسـها، حتـى وجدتهـا ذات يـوم بينـما كنـت عائـدًا مـن الخـارج فاقـدة للوعـى عـلى عتبـة غرفـة نومهـا، تملكنـى الفـزع فى برهـة حالكـة مـن هـول مـا أتخيـل مـن خسـران مبهـم ومخيـف، هرعـت إلى الشـارع لا جئًـا إلى أول عيـادة قابلتنـى، اقتحمـت عرفـة الطبيـب رجوتـه ثـم أمرتـه ثـم عـدت لأتوسـل إليـه، وحـين لمـس جنونـى رافقنـى عـلى عجـل طلـب الإسـعاف بعـد قيامـه بالكشـف عليها، جـاءوا وحملوهـا وأنـا معهـم، فـور وصولنـا نقلوهـا إلى غرفـة الإنعـاش، شـبت النـيران بداخـلى، كانـت أعصابـى تحـترق حرفيًـا، حتـى جاءنـى أحـد الطبـاء المشرفـين عـلى حالتهـا وأخبرنـى بـأن الحالـة اسـتقرت ولكنهـا بحاجـة لبعـض الفحوصـات للوقـوف عـلى أسـباب ذلـك.

بعـد يومـين أذنـت المستشـفى لهـا بالخـروج عـلى أن أعـود لأتسـلم نتائـج الفحوصـات بعـد يومـين، فعلـت كـما طلبـوا وعـدت واسـتلمت الفحوصـات وقابلـت أحـد الأطبـاء، اطلـع عليهـا فى صمـت أربكنـى، ظـل يقلـب فى الأوراق ويتفحـص الأشـعة ويسـترق النظـر إلىّ خلسـة وحـين طـال الصمـت سـألته فى غيـظ «مـاذا تقـول الفحوصـات؟» فأجـاب فى حـرج « لا أدرى مـاذا أقـول ولكنـه دورى، حقيقـة والدتـك تعانـى مـن حالـة متقدمـة مـن ورم سرطانـى بالمـخ، وهـى بحاجـة لفحوصـات جديـدة للتاكـد هـل يسـتلزم تدخـل جراحـى فـورى حتـى لا تتفاقـم الأمـور ويؤثـر ذلـك عـلى حاسـتى السـمع والبـصر، أخطـر أنـواع الأمـراض تلـك التـى تصيـب الـرأس»

حـين أنهـى كلماتـه كانـت الغرفـة تـدور بـى والأرض تميـد تحـت قدمـى، لا شـىء ثابـت فى مكانـه، كـدت اختنـق جـراء كلماتـه وسـاد الظـلام أمامـى، ظـلام لا يحمـل إلا خيـالات تتجـول بهـا أشـباح مجنونـة تسـخر منـى وتخـرج لسـانها فى محاولـة للتشـفى عـلى ذنـب لم أرتكبـه.

عـدت إلى المنـزل وعينـاى تفـران مـن عينيهـا، حاولـت جاهـدًا ألا يتلاقيـا، كيـف سـأخبرها؟ بمزيـد مـن الجهـد أخفيـت تلـك الأنبـاء وعبثًـا حاولـت الانغـماس فى موضوعـات مختلفـة نتجـاذب الحديـث فيهـا ولكـن كان شرودى يقطـع كل الخيـوط.

فى اليـوم التـالى خرجـت مـن المنـزل لإحضـار بعـض الحاجـات، وحـين عـدت، طرقـت البـاب مـرة وراء أخـرى، لا إجابـة ، كـررت المحاولـة، لا جديـد، انتابنـى القلـق فجـأة، هـل أغشـى عليهـا مـن جديـد؟ بسرعـة أخرجـت المفتـاح، فشـلت فى إيلاجـه مـن جديـد، اسـتجمعت تركيـزى وكانـت أشـبة بمحاولـة الاحتفـاظ بالمـاء فى راحـة يـدك، أخـيرًا نجحـت، هرولـت إلى الداخـل، تفحصـت أنحـاء المنـزل، لا وجـود لهـا، أيـن ذهبـت؟ مـا الـذى جعلهـا تغـادر المنـزل دون إخبـارى؟ لقـد نصحهـا الطبيـب بالراحـة التامـة ، كانـت السـاعة تقـترب مـن التاسـعة ليـلًا والحـيرة تنهـش كل ذرة فى عقـلى، جلسـت عـلى أقـرب مقعـد قـرب البـاب وعينـى معلقـة عـلى سـاعة الحائـط، عقـرب الثوانـى يتلكـع فى دورانـه بينـما عقـرب الدقائـق بحاجـة لمعجـزة مـن أجـل حركـة، بعـد قليـل فوجئـت بهاتـف والدتـى يـرن كان رقـمًا غريبًـا

«عاصم زيدان؟»

«نعم.. من معى؟»

«والدتــك بخـير حــال لا تقلــق.. إنهــا بانتظــارك فى مستشــفى .... تتلقــى عنايــة فائقــة «

«من أنت؟ ولماذا هى هناك؟»

«ستفهم.. حين تأتى، نحن بانتظارك»

مرتابًا وقلقًا اتجهت إلى المستشفى وهى نفسها التى اصطحبتها إليها أول مرة، قابلت الطبيب فأخبرنى بسوء حال والدتى وأنها بحاجة لتكون تحت رعاية، ثم جاءت إحدى الممرضات تخبرنى بوجود من ينتظرنى بالاستقبال.

تذهب إلى حيث أشارت لك الممرضة لتجد بانتظارك رجلًا فارع الطول وجهه أشقر وعيناه زرقاوان وشعره مائل للصفرة.

تتجه إليه بوجه مقتضب وتقول فى حدة «من أنت؟»

ليأتيك الرد بعربية فصحى ولكنة غير معتادة

«ارجوك، أعطنى الفرصة وستفهم، نحن هنا لأجلك ولأجلها»

«وكيف جئت بها إلى هنا؟»

« قمنا بالاتصال بك ولكن هاتفك لم يكن متاحًا، فذهبت فى زيارة إليك فى منزلك، وفتحت لنا والدتك الباب ودعتنا للدخول حين علمت بأهمية الأمر وبينما نحن بانتظارك، سقطت مغشيًا عليها، فجئت بها إلى أقرب مستشفى، فوجدتهم على علم بحالتها وشرحوها لى»

«وما الذى تريدنى فيه، ولا يحتمل الانتظار؟»

«أريدك فى عمل»

«أى عمل؟ لدى عمل بالفعل»

«عاصم باشا، نحن نعلم عنك كل صغيرة وكبيرة، نعلم بشأن تركك لخدمة وتقاعدك، حتى المشروع الذى تنتوى البدء فيه، لا أظن أن هذا مجالك، نحن بحاجة إليك»

«من أنتم وفيم الحاجة إلىّ؟»

«لا أظن أننا يمكننا الحديث هنا، هناك مكان يصلح للجلوس بالجوار، هلا ذهبنا إليه وشرحت لك الأمر!»

«ووالدتى؟»

«إنها بحاجة للراحة، ونحن لن نتأخر أكثر من اللازم»

اتجهت معه إلى واحدة من الكافيتيريات الشهيرة فى هذا الحى، وجلسنا متقابلين، شيئًا ما يخبرنى بأن هناك شيئًا غريبًا لا أدرى ما هو، بعد أن طلبنا مشروبين لكل منا، وضع يديه على الطاولة واقترب منى قائلًا :

- والدتك تعانى حالة متقدمة من السرطان، علاجها عسير هنا وعلى الأغلب سيجعلها تمر بأوقات عصيبة وهذا ما لا نريده لها، عليها بالسفر للخارج لاستكمال علاج فعال ودقيق وغير مؤلم، ونحن ستتكفل بذلك

- نحن، نحن؟ من أنتم بالضبط؟

- لا يمكننى التصريح الآن بكل شيء، ولكنى سأعطيك ما يهمك، يمكن اعتبارها مؤسسة مهمتها الأولى تخفيف الألم بشتى أنواعه بكل وسيلة ممكنة، لقد جاء البشر إلى هذا العالم وجاءت معهم المعاناة التى تختلف من فرد لآخر ومن مجتمع لآخر، نحن هنا للتدخل بأية صورة تحد من الألم والمعاناة التى يعانيها البشر

كان كلامه عجيبًا ينم عن جنون يتخذ شكلًا جديًا فقلت ساخرًا:

- هل تعلم عدد الذين يعانون من المرض الذى أصاب والدتى ؟ آلاف .. هل ستعملون على تخفيف آلامهم جميعًا، وحتى لو فعلتم، فلابد من ممول أو مجموعة ممولين

- اسمع أستاذ عاصم، نحن بالفعل نساعد العديد من المرضى هنا وبالخارج بتبرعات عينية دائمة، ولكن والدتك صارت تمثل لنا أولوية قصوى

- لماذا؟ هات ما عندك .. ما المقابل لذلك؟

- إننا نريدك أن تتعاون معنا وتنضم لنا فى المؤسسة.

- ما هذه المساومة؟

- كلا لا تعتبرها مساومة، والدتك ستتلقى العلاج سواء قبلت أو رفضت، ليس هنا ولكن بالخارج كما أوضحت

- ولكن لماذا أنا؟

صمت الرجل وابتسم ابتسامة خفيفة ثم أردف:

- ليس بوسعى منحك كل الإجابات ولكن تأكد من رغبتنا القوية فى انضمامك لنا، أنت رجلنا، ولديك الوقت الكافى لدراسة الأمر، وبالتأكيد لديك حق الرفض، نصيحتى لا تفوت هذه الفرصة، ستعيش كأمير وسنرتب لك أمورًا بالخارج تمهيدًا لاستقرارك هناك بواحدة من الدول الأوروبية

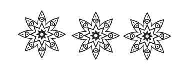
- أنا أريد والدتى الآن.. أتفهم؟

- بالطبع أتفهم ولذا نحن سنقدم لها كل ما تحتاجه بغض النظر عن قرارك النهائى بشأن عملك معنا وتذكر دائمًا كنت تقوم بعمل نبيل يحتاج شجاعة وعزم وما أدعوك إليه لا يقل نبلًا عنه بل يحتاج رجلًا ذا سمات خاصة نرى أنها تتوافر فيك، بالمناسبة هناك طبيب ألمانى فى زيارة للقاهرة سيتابع حالتها عن كثب، سينتهى عمله بعد أسبوعين من الآن وهو الوقت المتاح لك للرد بشأن هذا العرض، وحتى تتخذ قرارك رجاء حاول ألا تخبر

أحـدًا بشـأن العمـل معنـا ونرجـوك لا تسـبب لنـا أو لنفسـك المتاعـب، تذكـر هدفنـا تخفيـف الألم وليـس التسـبب فيـه والآن يمكنـك العـودة لوالدتـك.

تركنـى حائـرًا.. مـا المؤسسـة التـى تريـد خدماتـى وتـصر عـلى ذلـك بـل ستتحمل أيضًـا تكاليـف عـلاج والدتـى؟ مـا الـذى يريدونـه تحديدًا؟ ولمـاذا أنـا؟ ومـاذا لـو رفضـت؟ كيـف سـأترك عـلاج والدتـى بيـد هـؤلاء؟ ولـو قبلـت أى مفاجـات سـألقى؟ ومـا الـذى يضمـن لى ألا أنـدم عـلى قـرارى هـذا؟

وهـا أنـا جالـس وحيـدًا فى زنزانـة حقـيرة بحصـن فريـد عـلى سـطح جزيـرة نائيـة فى أقـصى أطـراف الأرض، ومعـى كل الوقـت لأمـارس النـدم فى تمعـن.



«دائمًا ما تبدو الأسئلة كشموس مشرقة فى سماء العمر بينما تتجمع الإجابات جميعها على سطح القمر، ولم نكن يومًا رواد فضاء!»

(17)

يحيى

هل دبت الحياة فيك من جديد، حين سمعت جملته الأخيرة؟ عاد نبضك ليتسارع وكأن قلبك بُعثت فيه الروح بعد غياب طويل، لمعة فى عينيك التى ازدادت اتساعًا بعد انكسارها أيامًا طويلة، أفكار كثيرة فى رأسك تتسارع وأنت بادى الاندهاش، فضول ينهش جسدك لتسمع المزيد، ليدلك على هدفك، رغبة عارمة كاسحة لا تقبل الشك فى أنك مستعد لتقديم أى شىء، أى شىء يطلبه هذا الزائر الغريب فقط لو كان ما يقوله صحيح، الآن تعتدل فى جلستك، تشد ظهرك، تميل برأسك للأمام مستندًا بكوعك على الطاولة، عيناك مثبتة عليه:

- سالم الملاح؟ هذا ما قلته.. صحيح؟
- بالطبع
- متى يمكننى الحصول عليه؟
- عقب أن نتم اتفاقنا
- وما المطلوب؟
- الباقى من عمرك!

لماذا يصر هذا المعتوه على إثارة غضبك؟

- لا أفهم، تحدث بوضوح من فضلك

- سأمنحك سالم الملاح ولكن بعد أن تقبل الانضمام لنا فى العمل.

- أى عمل؟ بالتأكيد ليس لدى ما يمنع من مساعدتك فى أى أمر تطلبه.

- أنا لا أطلب مساعدة، بل أقدم لك عرضًا بالعمل معنا، عمل يتطلب تفرغ كامل وإنهاء عملك الحالى وعدم البقاء فى مصر، ستعمل بالخارج، كلامى واضح يا يحيى باشا.

- أى عمل هذا؟ ربما لا أجيده، كل خبراتى عسكرية، قتالية.

- وهذا بالضبط ما نريده، لن أعطيك المزيد من التفاصيل، إلا بعد اتخاذ قرارك النهائى، بالمناسبة سالم ليس فى مصر ولكنه بحوذتنا، لذا أى محاولة غير محسوبة بتتبعى أو تهديدى أو التعرض لى بأى شكل، فلن تجنى من ورائها أى مكسب بل ستخسر الكثير وبعد أن كنت هدفًا للعمل معنا، ستصير هدفًا لنا، لا تعتبر هذا تهديدًا بل مجرد توضيحًا للأمور، يمكنك الرفض كما يمكنك القبول دون أن يسبب أحدنا الضرر للآخر وتذكر لا إجبار هو الشعار هنا.

- ألا تلاحظ أنه من العسير ترك عملى هنا؟

- لذا تبدو فكرة موتك فكرة ممتازة، فكِر فى الأمر جيدًا ! وخذ هذه الصور ستسهل من حسمك للأمر!

ثم يخرج من جيبه مجموعة من الصور المختلفة لم ترها من قبل لشخص واحد، تدقق النظر جيدًا، إنه هو سالم، لقد تغير قليلًا، لكنك تعرفه أكثر، تحفظ ملامحه.

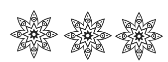
يقطع لهاثك وتسارع أنفاسك بسؤال حاسم:

- كم من الوقت يلزمك لاتخاذ قرارك؟

- ماذا لو اكتشفت أن فى الأمر خدعة؟ أو أنكم تعملون لصالح دولة ما؟

- يمكنك العودة لبلدك ومعك رأسى إذا رغبت، ولكن تذكر لا أحد أيضًا يخدعنا، سنمنحك هدفك مقابل مبتغانا.. واضح؟

فى حقيقة الأمر لم تكن بحاجة لوقت للتفكير، لا مجال للتردد هاهنا، فقط تريد أن تفهم من هم؟ كيف عثروا عليه؟ كيف علموا بأهميته لديك؟ ما نوع العمل الذى يريدونك فيه؟ هل يمكن قبوله؟ كيف ستترك عملك الحالى؟ دائمًا أسئلة أكثر وإجابات أقل، دائمًا ما تبدو الأسئلة كشموس مشرقة فى سماء العمر بينما الإجابات تتجمع جميعها على سطح القمر، ولم نكن يومًا رواد فضاء!



«الإنسان هذا المبيد، يلاحق كل من يعيش، كل ما يتحرك، قريباً سوف نتحدث عن أخر قملة.»

إميل سيوران

(18)

روبيرتو روسّى

(1990 - 1995)

كانـت تقاريـر المؤسسـة تصـل إليّ مـع رصـد لمـا تـم إنجـازه، وجدنـا أطفـالًا ملقـاة فى الشـوارع بأيـد ذويهـم، وشـيوخًا مطعونـين بيـد أبنائهـم، نسـاء اغتصبـت، ورجـال قهـرت وأطفـال تكابـد، الألم يجتـاح، والبـؤس يسـيطر عـلى أعـداد غفـيرة، بـلا رحمـة ودون تراجـع.

ذاع صيـت مؤسسـة الأيـادى البيضـاء فى إيطاليـا وأوروبـا ومناطـق متفرقـة مـن آسـيا وأفريقيـا، صـارت عونًـا حقيقيًـا لمئـات وآلاف، رسـمت بسـمة عـلى الوجـوه وأزالـت الهمـوم عـن كثيريـن، منحـت اليائسـين أمـلًا، والمـرضى شـفاءً، والجوعـى طعامًـا، والمشرديـن مـأوًا والعاريـن كسـاءً، أغثنـا الملهـوف وقضينـا حاجـة المحتـاج، قدمنـا أفضـل مـردود، صرنـا رد فعـل مثـالى يحتـذى بـه، عملنـا بجـد واجتهـاد، أخلصنـا لهـؤلاء المكافحـين، الكادحـين الذيـن لم يسـلموا مـن بطـش الحيـاة واختباراتهـا الكاسـحة، دخلنـا

رغمًا عنا فى صراع مع وحوش ضارية تسحق بدون سبب هؤلاء الذين فقط أرادوا أن يعيشوا، وصارت تلك الوحوش تجرح ونحن نداوى، ترهب ونحن نطمئن، تهجم ونحن ندافع، كنا رد فعل ممتاز ولكن هذا لا يكفى، الطاغى مستمر فى طغيانه، والظالم لا يتوقف عن ظلمه والطامع لا يشبعه ما لديه من كنوز تكفى أحفاد أحفاده ليعيشوا ملوكًا، لا يكفى أن نواسى فقط، علينا أن نهاجم، أن نبرز أنيابنا ونغرسها فى أعناقهم، سنترفع عن الصغائر، فالبشر دائمًا خطاءون، ولكن المجرمون الكبار الذين ألحقوا بالبشرية العار، الذين تخلوا عن إنسانيتهم طواعية وازدادوا حيوانية أكثر من الحيوان، الذين لطخوا الأرض بالدماء، أولئك لهم حساب عسير، روبيرتو روسّى لن يرحمهم، سأنتزع أنيابهم وأقطع أيديهم، سينالون حظهم من المعاناة، سيرون العذاب المقيم قبل الوصول للجحيم.

يجب أن يكون لمؤسسة الأيادى البيضاء ذراع بتار كما لها يد عطوف، ذراع يبطش كما لها يد تهدهد، وهكذا خططت لوضع حجر الأساس لمنظمة فرعية داخل مؤسستى الكبرى، منظمة تحارب الفساد والمفسدين، تنتهج أساليبه وتمارس وحشيته ضد من يستحق، لن تأخذنى بهم شفقة أو رحمة، القاتل سيُقتل، والجلاد سيُجلد، والعاتى لن يذوق مثقال ذرة من رحمة، دائمًا ما كانت تمارس القسوة والوحشية ضد من لا يستحقونها، لماذا هم أكثر من يتعذب على هذه الأرض، بينما من هم جديرون بها يحيون حياة رغدة مرفهة يتنعمون

فيها بأموال وأقوات من أفقروهم وأذلوهم؟ لذا ما المانع بأن يحظى هؤلاء المجرمون ببعض مما كسبت أيديهم من ظلم، سأمزقهم قطعًا قطعًا وأفرق أعضاءهم على من يحتاجونها، سأمص دماءهم لأحقن بها من هم بحاجة ماسة لها، سأمنح الحياة لمن يستحقها وأقطعها عن من يطيح بالآخرين ويستهين بأرواحهم، حان الوقت ليذوقوا وبال أمرهم وفى ذلك سلوى كبيرة للمطحونين المهمشين المقيدين فى سجلات الأحياء دون حياة،

الأمر ليس يسيرًا، لكنه ليس مستحيلًا، لن يعوقه حاجة لمال، ولكنه بحاجة لرجال أكفاء، الخطأ ليست كلمة واردة فى قاموسهم، ولكن كيف يمكن الحصول عليهم؟ لن ألجأ إلى رجال العصابات والمافيا بالطبع، هؤلاء من سأحاربهم لن اعتمد عليهم، فكرت فى المرتزقة ولكن هؤلاء غدرهم أكبر من وفائهم، يمكن شراؤهم وولاؤهم لمن يدفع أكثر، من يمكن الوثوق فيه والاعتماد عليه؟ نحن بصدد تكوين فرقة قتال، جيش من الأسود التى لا تكف عن الزئير، لا يسمحون بالخطأ ولا يهابون الموت، رجال تخوض المعارك وتريق الدماء، رجال لا تأخذهم رحمة بأعدائهم أين أجدهم ؟

برقت فى بالى الفكرة، وشرعت أقلبها يمينًا ويسارًا، حتى نضجت فى رأسى، العسكريين ورجال الشرطة لهم باع طويل فى محاربة الجريمة ومطاردة مرتكبيها، وحماية أهداف بعينها، عقيدتهم ثابتة وولاؤهم مضمون هذا ما تعلموه ومارسوه،

ولكــن كيــف يمكــن اســتمالتهم وإقناعهــم، خاصــة وأن لديهــم عمــل يــدر عليهــم أمــوالًا بالفعــل ليســت بالقليلــة، يعملــون فى العلــن ويتمتعــون بالســلطة والنفــوذ، بــل عــلى العكــس قــد يــرى بعضهــم فيــما أبغيــه انتهــاكًا للقانــون وتعديًــا عليــه، قانــون لا يصــل إلا لعــدد قليــل مــن المجرمــين ويفشــل مــع المخضرمــين منهــم، قانــون لا يــردع أحــدًا ولا يعــول عليــه فى الإصــلاح، لا بــد مــن طريقــة مــا، إنهــم الوحيــدون دون غيرهــم القــادرون عــلى تحقيــق أهــدافى بدقــة، هنــا ســطع الحــل فى رأســى معلنًــا عــن نفســه، لمــاذا لا نلجــأ للمتقاعديــن منهــم؟ يتقاعــد أغلبهــم لأســباب متباينــة ليســت جميعهــا عــدم القــدرة عــلى إنجــاز المهــام، ربــما يتقاعــدون بنــاء عــلى رغبتهــم، ربــما يبحثــون عــن عمــل يجنــى ربحًــا أكــبر، حســنًا ســأبدأ بأعــداد قليلــة منهــم، حتــى وإن لم تتجــاوز أصابــع اليــد الواحــدة، المهــم أن أبــدأ وكلى ثقــة بأنهــم ســيتزايدون ســواء كانــوا مــن إيطاليــا أو خارجهــا، ســأغدق عليهــم الأمــوال، ســأقنعهم بعظمــة مــا هــم بصــدده، بأهميــة تجــاوز ثغــرات القانــون للوصــول إلى عدالــة لا يســتهان بهــا، ولكــن حتــى هــؤلاء كيــف ســأصل إليهــم؟ مــن العســير إدارة أمــر كهــذا وحــدى، لــذا كان لابــد مــن عــرض الأمــر عــلى اليسّــاندرو وكذلــك لويجــى، هكــذا فعلــت، لكــن كليهــما لم يتحمــس، لويجــى رآنــى مبالغًــا وأحمــل نفســى مــا لا أطيــق « إصــلاح الكــون ليــس بمقــدور أحــد، الــشر بــاقٍ بقــاء البــشر، كــما أن مــا تقترحــه ســيعرضنا لمخاطــر نحــن فى غنــى عنهــا» كانــت كلماتــه واقعيــة محبطــة ثبطــت مــن عزيمتــى وإصرارى، أمــا أليسّــاندرو فبرغــم عــدم تحمســه ، إلا أنــه التمــس لى العــذر،

إنـه يعرفنـى كـما أعرفـه، يعلـم كرهـى للظلـم والظالمـين، يعلـم سـخطى عـلى البشر والعـالم، لـذا هـدأ هـو لويجى وبـدأ فى التفاهـم معـه، لم يكتـف بذلـك، بـل قـال أنـه لديـه صديـق تنطبـق عليـه الـشروط، كان رجـلًا عسـكريًا لم يتجـاوز الأربعـين ونتيجـة لخطـأٍ مـا تـم الاسـتغناء عـن خدماتـه، سـألته «مـاذا لـو تكرر الخطـأ ؟» فأجـاب بثقـة « ليـس مـن الرجـال الذيـن يخطئـون مرتـين» «مـا اسـمه؟» «كلاوديـو، كـما أنـه يجيـد عـدة لغـات» بـدأ الأمـر هكـذا رجـل ثـم آخـر ثـم أخـر مـن إيطاليـا وخارجهـا، حتـى اسـتطاع كل متقاعـد منهـم عـلى جلـب آخـر للمشـاركة معنـا، ووضعنـا قواعـد وأسـس للعمـل، مـن هـم الذيـن سـيقعون تحـت طائلـة أهدافنـا؟ كيـف سـنوقع بهـم؟ كيـف سـنتعامل معهـم؟ مـا المسـموح ومـا الممنـوع فى عملنـا؟ كيـف نحصـل عـلى معلوماتنـا؟ وهكـذا صرنـا نتتبـع أى جريمـة تفشـل فيهـا الشرطـة أو يتـم كسر عنـق القانـون تفاديًـا لإقـرار العـدل سـواء كان ذلـك مقابـل دفـع رشـوة أو اعتـمادًا عـلى واسـطة أو تبـادل مصالـح عـلى مسـتويات عليـا، انضـم إلينـا عـدد مـن رجـال القـوات الخاصـة لاحقًـا، اختيارنـا لم يكـن عشـوائيًا، والانضـمام لنـا لم يكـن يسـيرًا، لا بـد مـن الثقـة، أى خطـأ قـد يهـدد المنظمـة بأكملهـا، لـن تصـدق كـم المجرمـين الذيـن يفلتـون مـن العقـاب، أو الذيـن لا يصـل إليهـم القانـون مـن الأسـاس، لـن تصـدق كـم المجرمـين الحاصلـين عـلى بـراءة غـير مسـتحقة، لـن تصـدق إلى أى مـدى يقـف القانـون عاجـزًا عـن إثبـات تهمـة الجميـع يعلـم مرتكبهـا، ليـس هنـاك أسـهل مـن حكـم بالـبراءة لعـدم ثبـوت الأدلـة أو كفايتهـا، حـين اقتربـت مـن

الحقيقة أدركت كيف تسير الأمور، كيف يتجرأ الناس على ارتكاب جرائمهم، كيف يمنون أنفسهم بالإفلات وكيف يتحايلون للهروب، وكيف ينجح أغلبهم فى ذلك، لذا لا عجب من ارتكاب المزيد من الجرائم، لا عجب من دهس المزيد من البشر، قتل، تعذيب، تشريد، إرهاب، اغتصاب، تجارة أعضاء وكل ما تصادفه من أهوال لا تصدقها العين فى صفحات الحوادث ونشرات الأخبار.

لم نتتبع صغار المجرمين اللصوص والنصابين والمخادعين، أولئك أكثر من أن نحصيهم، أولئك دائمًا لديهم فرصة للتراجع، جرائمهم محدودة وقتية ليست ذات تأثير خطير ولكن كل من تتبعناهم أفرطوا فى القسوة ولم يخطر ببالهم مجرد خاطر التراجع عن جرائمهم، ما إن ينتهوا من جريمة حتى يخططوا لغيرها، بل وقد يشتركون فى عدة جرائم دفعة واحدة فى أوقات متقاربة جدًّا، محترفى إجرام بحق، فى بداية عملنا كان هدفنا الحصول على هؤلاء المجرمين وقتلهم ليكفوا أذاهم عن المزيد.

ولكن كانت هذه مجرد بداية فى حربى معهم، ما ينتظرهم مساوٍ لمقدار وحشيتهم، وإن سألونى الرحمة سأملأ أفواههم بالتراب، روبيرتو روسّى سيضع عقوبات جديدة يقشعر لها أبدان المجرمين وعلى مختلف القوانين أن تحذو حذوها، صدقونى ستنالون العدالة وتنشرون العدل بأسرع مما تتخيلون.

وبعد شهور صار لدينا عدد كبير من المتتبعين وعدد من المحققين الباحثين عن المجرمين، وعدد من رجال أكفاء

ذوى مهام خاصة، صار للمنظمة جيش من المقاتلين الأفذاذ من مختلف الأنحاء أمريكيين، أفارقة، أوروبيين، يتنقلون كثيرًا ويجوبون أراضٍ كثيرة بين المهمة والأخرى، لا تتكرر عملية لنفس الفرد على نفس الأرض لفترة فعندما تفصل بين العمليات مئات الأميال والعديد من سلطات التحقيق، يتضاءل احتمال ربط الجرائم ببعضها، قد يبدو المشهد من نافذة طائرة واضح مترابط، بينما يتعسر ذلك من رجل على الأرض.



«رائعة هى العدالة وأروع ما ستكون لو لم تأتِ متأخرة سنوات طوال..»

(١٩)

عاصم - تكساس

يونيو 2013

علمت أن اسمه مروان ذلك الرجل الذى يبدو وكأنه مرسل من السماء لإنقاذ أمى، مندوب مؤسسة «الأيادى البضاء» فى الشرق الأوسط، مؤسسة لها باع كبير فى الأعمال الخيرية، تبينت من تلك المعلومة ولكن ما الذى يمكننى تقديمه لهذه المؤسسة؟ طالبنى بعدم القلق وأخبرنى بأن والدتى ستذهب لأكبر مركز طبى متخصص لعلاج الأورام فى أمريكا والعالم، وهو مركز إم دي أندرسون في هيوستن بتكساس على السهل الساحلي الواقع في جنوب وسط الولايات المتحدة، ويعتبر هذا المستشفى جزءًا من مركز تكساس الطبي، والذي يعتبر بدوره أكبر مراكز الرعاية الصحية والبحثية في العالم. سألته «ولكن هذا سيتكلف كثيرًا جدًا»

«لا تقلق، نحن متكفلون بكل شىء»

بداخلى شعرت بالحرج، هذا الرجل ومؤسسته يتكفلون بعلاج أمى ولديه عرض لى للعمل، هل من الحكمة رفض هذا

العمـل؟ عـلى أن أفهـم طبيعـة العمـل، ولكنـى فوجئـت بـرده، «لا تقلـق، سـتعرف كل شـىء فى وقتـه»

فى يونيـو مـن عـام 2013 أنهينـا إجـراءات السـفر واصطحبنـا كافـة الأوراق التـى توضـح حالـة أمـى واتجهنـا إلى هـذا المركـز، عـلى أن يلحـق بنـا مـروان فى أقـرب وقـت لم تكـن هـذه زيارتـى الأولى للولايـات المتحـدة، زرتهـا مـن قبـل أثنـاء التحاقـى بعمـلى السـابق، غـير أنهـا زيارتـى الأولى لتكسـاس، تعتـبر ثانـى أكـبر الولايـات مسـاحة بعـد ألاسـكا، يتميـز مناخهـا بالاعتـدال ولكـن كـما علمـت مـن الـوارد حـدوث تغـير مفاجـىء فى درجـات الحـرارة ، لـذا اصطحبنـا معنـا مزيـج مـن الملابـس الصيفيـة الخفيفـة والملابـس الشـتوية الثقيلـة، وكانـت المفاجـأة حـين علمـت بـأن الأعاصـير ضيـف دائـم عـلى هـذه الولايـة فى أشـهر معينـة والجميـع يتـضرع كـى تمـر بسـلام.

حـين وصلنـا إلى المركـز كانـوا بانتظارنـا وفقًـا لخطـاب مؤسسـة (الأيـادى البيضـاء) بعـد إدراج اسـم أمـى فى الكشـوف، اسـتقبلونا أفضـل اسـتقبال، لم يهـدروا وقتًـا، واصطحبوهـا إلى غرفـة مخصصـة لهـا، كـما أعـدوا غرفـة خاصـة بـى كرفيـق لهـا، مستشـفى فخـم وأنيـق، نظيـف بشـكل لا يمكـن تصـوره، يهتـم بكافـة التفاصيـل، أحـد الأطبـاء أخبرنـى بـأن حالـة والدتـى تسـتلزم تدخـل جراحـى، وهـم فى طـور إعدادهـا فى خـلال أيـام صحيًـا ونفسـيًا لدخـول غرفـة العمليـات، كانـت والدتـى صابـرة راضيـة وخاصـة مـع اشـتداد المـرض وقـدوم العـون عـلى يـد مـروان الـذى حكيـت لوالدتـى عنـه،

نظراتهـا إلي باتـت غريبـة كانـت تحـدق البـصر بـى طويـلًا وكأنها تُمـلى عينيهـا منـى، شـعوٌر يخيفنـى حـين يراودنـى مجـرد التفكـير بـأن أفقدهـا، ليس لـدي سـواها، هـى حياتـى وكل أهـلى، هـى مـن جعلتنـى رجـلًا، فى الحقيقـة أنـا مديـن لهـا بـكل شـىء، اعتيـادى وجودهـا جـوارى أغفلنـى مـدى هشاشـتى دونهـا، مرضهـا كارثـى إن لم يـودِ بحياتهـا، سيسـبب لهـا آلامًـا لا تحتمـل، هـذه هـى سـمعة هـذا المـرض لدينـا، أتمنـى أن يكـون المـرض أكثـر رأفـة بهـا هنا وسـط جهابـذة الطـب وأحـدث التقنيـات، بعـد ثلاثـة أيـام وصـل مـروان، اطمـأن عـلى حالـة والدتـى، وفى نفـس يـوم وصولـه أخبرنـا الطبيـب بـأن عمليـة سـتجرى لوالدتـى بعـد غـد، كان قلبـى يرتعـد خوفًـا عليهـا، لم أجـد بجـوارى سـواه يـوم العمليـة، كان يتعامـل بحميميـة ومـودة لا تتناسـب مـع الفـترة القصـيرة التـى أعقبـت تعارفنـا، استمرت العمليـة ثـلاث سـاعات لم أتوقـف فيهـا عـن الدعـاء، بينـما مـروان يرمقنـى بنظـرات عطوفـة، خـرج الطبيـب ليخبرنـا بنجـاح العمليـة ولكـن والدتـى مازالـت تحـت تأثـير المخـدر، بكيـت مـن الفرحـة كالعجائـز وعانقنـى مـروان وهنأنـى بفصحتـه العربيـة العجيبـة، عقـب سـاعتين اسـتفاقت أمـى وبادلتنـى الابتسـام دون كلمـة واحـدة، كان الأطبـاء والممرضـات حولهـا يطمئنـون عليهـا وعـلى كافـة وظائـف الجسـد، بـدوا وكأنهـم مجموعـة مـن الملائكـة ليـس لهـم دور سـوى رعايـة أمـى.

عقـب اطمئنانـى عليهـا، اصطحبنـى مـروان لحانـة قريبـة مـن المركـز تنبعـث منهـا أضـواء هادئـة وموسـيقى خفيفـة تـكاد لا

تلاحظ، اخترنا طاولة بعيدة عن الزحام وطلبنا فنجانين من القهوة، عقب وصولهما بدأ فى الكلام:

- والدتك ستحتاج لفترة من الرعاية هنا قد تصل لشهور لضمان سلامتها ولعدم حدوث انتكاسة لها، تكاليف إقامتها والعملية تم سدادها بالكامل، ولن يتأثر ذلك بموقفك من العمل معنا.

- أخيرًا، سأفهم ماهية العمل الذى تحتاجوننى فيه.

- إنه ما برعت فيه طوال عمرك.

- كيف يفيدكم ذلك، أنتم مؤسسة خيرية؟

بدا كشخص على وشك إلقاء قنبلة، خفت صوته واقترب منى وهو يهمس:

- ما سأقوله سيبقى سرًا مهما حدث لمصلحتك، وعليك القبول أو الرفض، مؤسستنا خيرية بالفعل، تعالج المرضى وتدعم الفقراء ولها أنشطة خيرية متعددة فى كل مكان، ولكن دورها لا يقف عند هذا الحد، لسنا مجرد رد فعل تجاه الكوارث والأزمات، كما نقدم الدعم لمعدومى الحيلة من البشر، فإننا لا نترك من أوردهم المهالك، كل قاتل، ظالم، سفاح من النوع الذى لا يمكن للقانون أن يردعه أو لضميره أن يستيقظ، من لا يتوقفون عن سفك الدماء أو زهق الأرواح، أولئك صيد لنا، ولن نجد قناصًا أفضل منك ليساعدنا فى ذلك.

- قاتل مأجور؟ هذا ما تريدوننى فيه

- ليس كذلك، نحن لن نطالبك بقتل إلا من يستحق القتل، الذين يعيشون فى الأرض فسادًا، رجل قتل عشرات لماذا نتركه لقتل المزيد؟ مجرم حرب أنتركه يفر بفعلته؟ نحن لا نستهدف أى قاتل، تحت أى ظرف يمكن للإنسان أن يتحول لقاتل كما فعل ابن آدم، ولكن من يحترف القتل، من لا قلب له، من يستهين بأرواح الآخرين ولا يتوقف، من الحماقة تركه بل إننا نرى فى تركه نوع من التواطؤ، خاصة وإننا لا نستهدف أحدًا إلا فى وجود أدلة دامغة، أنت رأيت بنفسك ما نقدمه من عون، وما أحادثك بشأنه نوع من الوقاية لعدم وقوع مزيد من الضحايا.

صعقت من المفاجأة التى اختصت رأسى بالسقوط عليها، هل سأتحول لآلة قتل متحركة، تقتل بمجرد الضغط على الزر، لا لن أنضم لهم مقابل مساعدتهم لأمى، لقد أوضح لى حقى فى الرفض.

- آسف، لن أستطيع، يمكنكم الاعتماد علىّ فى أى أمر آخر غير القنص، لم أعد صالحًا لذلك، وإلا ما كنت تركت عملى.

- ما فقدته فى قدمك لن يعيقك عن تأدية مهمتك معنا، يمكننى أن أضمن لك ذلك، ستكون مهمتك اصطيادهم فقط، أنت لست أول المنضمين لنا، هناك غيرك كثيرون، ولكن ليس لديهم دقتك فى التصويب، وبعض الأهداف يصعب اصطيادها عن قرب، صدقنى لو أخبرتك بجرم كل هدف لنا، لسبقتنا لقتلهم، هذا هو العدل، ولا تنس أنك نفسك وقعت ضحية لواحدة من الجماعات أفلت منهم بما يشبه المعجزة، ترى كم

قتلوا من البشر؟ ألا يستحق هؤلاء القتل بضمير مرتاح؟ إذا ما صادفت أحدهم، ستقول له انتظر من فضلك كى أقدمك للمحاكمة؟ ومع ذلك يبقى لك حق الرفض كما أخبرتك ولا تحمل همًا بشأن والدتك، ما ندفعه لعلاجها نقطة فى بحر إمكانياتنا ولن نتوقف عن دعمها هى أو غيرها، لا أريد منك ردًا الآن، خذ وقتك فى التفكير، ولكن ابق الأمر بصدرك مهما كان!

ثم تركنى وانصرف بعد دفع الحساب.

لم أتصور أن يكون هناك شىء كهذا فى الحياة، منظمة تحاول إرساء قواعد العدالة عن طريق قتل من يستحق، لقد تأكدت تمامًا من إسهاماتهم الخيرية وذيع صيتهم فى كل مكان ولكن القانون هو الموكل بإعادة الحقوق وعقاب المجرم، صحيح أنى أعلم كغيرى عجزه كثيرًا أمام أصحاب النفوذ والمكانة، وأن هناك الكثيرين يصعب وقوعهم تحت طائلته وأن مجرد قتلهم يجنب البشرية خسائر كبرى ولكن ما الذى يضمن دقة حكمهم أو عدم وجود خطأ فى بياناتهم مما يوقع فى القتل من لا يستحق، وتزامنًا مع تحسن حالة أمى، شغل الموضوع أغلب أوقات يومى وأنا أقتله دراسة وبحثًا.

بعد أسبوع هاتفته وطلبت لقاءه، جاءنى إلى المركز قابلنى بابتسامة اتجهنا إلى نفس الحانة:

- ألا ترى أن هناك مجازفة بسرية ما اطلعتنى عليه، من الوارد أن أرفض ويفتضح أمركم وقد لا يخيفنى تهديدكم؟

- عاصم باشا، هل تعلم كم رجل ممن عرضنا عليهم الانضمام لنا رفض العرض؟

- ....

- صفر .. لا أحد عرضنا عليه ورفض، لدينا رجال من كافة أنحاء العالم عراقيين وأتراك وكوريين وإيطاليين وجنسيات أخرى كثيرة، جميعهم يحفظون سرنا، لسنا بالسذاجة التى تتصورها لنمشى فى الشوارع نذيع سرنا، لم نعرض عليك الأمر، إلا ونحن متيقنون بقبولك العرض.

- ما هذه الثقة؟ ربما طلبت لقاءك لأخبرك برفضى.

- قبل مقابلتك فى القاهرة عكفنا على دراسة الأمر لمدة شهرين، وكان السؤال الأهم هل ستقبل أم سترفض؟ وكانت الإجابة ستقبل بنسبة ٪90 ، هناك آخرون انضموا لنا وكانت نسبتهم ٪70 ، أنت ستتعامل مع مؤسسة ضخمة محترفة لا تخطو خطوة قبل حسابها ولديها كل المال والإمكانيات لتحقيق أهدافها.

- واضح، ولكن لدى شرط للعمل معكم، أن أحصل على نفس المعلومات التى تجعلكم على يقين من استحقاق الهدف للقتل.

- ليس هناك أيسر من ذلك.. متى يمكنك البدء؟

- أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر.

عقدنا الاتفاق، وبرغم ذلك كان هناك تردد مازال يساورنى، أن يكون بيديك الحكم على استمرار حياة أو اجتثاثها هو أمر

غاية فى الصعوبة، ربما يفوق قدرة البشر، أى خطأ ثمنه حياة، وأى ندم سيلاحقك الباقى من عمرك، انضمامى للمنظمة نقطة تحول جريئة، خطيرة فى منحنيات حياتى، نقطة قد تساعد فى تغيير العالم للأفضل كما يظنون وقد تقضى على حياتى فى أى وقت.

كانت الاتصالات متبادلة بينى وبين مروان حتى طالبنى ذات يوم بتجهيز أوراقى والسفر إلى أمستردام بهولندا.. أخبرنى أيضًا بأنى صرت واحدًا من العاملين بمؤسسة «الأيادى البيضاء» هذا سيسهل كثير من انتقالاتى، سأزور مستشفيات، دور أيتام، مخيمات لاجئين، إنها مؤسسة دولية وترسل مندوبيها ذوى الجنسيات المختلفة لشتى بقاع الأرض، إقامتك ستكون فى إيطاليا أغلب الوقت، هذا لن يحول بينك وبين زيارة والدتك فى الولايات، حين تصل إلى هولندا، ستعرف كل شىء»

أعددت أوراقى، وسافرت إلى هولندا للمرة الأولى فى حياتى، نزلت بأحد الفنادق كان مروان بانتظارى، وفى الجناح الخاص بى، عرض علىّ صورته «إدجار ألفيتش» قال لى «هذا هو هدفك، ضابط صربى هارب منذ عشرين عامًا يعيش فى بلجيكا بشكل متخفٍ تمامًا، متهم فى جرائم حرب فى البوسنة، جرائمه لا توصف، لو أخبرتك بها ستفرغ معدتك على الفور» ثم عرض علىّ واحدة من الصور، كانت صورة لامرأة يبدو عليها المرض والإنهاك ترتدى ملابس بيضاء، ولها وجه شاحب كالموتى، شعر أسود قصير بعض الشىء، وبشرة لم تعد نضرة،

أمعنت النظر فيها قبل أن يواصل حديثه «هذه واحدة من ضحاياه، يمكنك تصور ما فعله بها هو وجنوده، تركوها حاملًا قبل أن تُصاب بصدمة عصبية حادة، عثرنا عليها فى واحدة من المصحات التى تتلقى منا مساعدات، هى الآن على حافة الجنون منذ تلك الحادثة لم يعد بوسعنا استعادتها، جهود عظيمة تبذل لمحاولة علاجها دون جدوى، تصرخ كلما رأت طفلتها التى صارت فتاة جميلة الآن، يكفيك أن تريها صورة هذا الجنرال كى تفترسك بأسنانها، حياتها دمرت تمامًا، واحدة من الحالات التى ترعاها المؤسسة ولم ننجح فى علاجها ولكننا مازلنا نحاول، منذ سنوات ونحن نبحث عن هذا الرجل، يمكنك كتابة اسمه والبحث عنه وستتأكد من كافة المعلومات بشأنه وهروبه وتخفيه منذ سنوات، يمكن الإبلاغ عنه، لكن تأكد أنه لن يلقى المصير المناسب لجرمه، هو الآن فى الخمسينات من عمره، وحان الوقت ليغادر عالمنا، يمكنك الاطلاع على الميل الخاص بك، ستجد مقاطع لهذه المرأة وهى منهارة تمامًا، وابنتها تبكى كلما زارتها، مأساة بالطبع، وللتأكد أكثر يمكنك الاتصال بمستشفى ... ، ستتأكد من كل حرف قلته، سأنتظر اتصالك بى غدًا لأخبرك بباقى التفاصيل.»

تأكدت من كل حرف قاله، كما أنهم ليسوا فى حاجة لتزييف هذا الكم من المعلومات لحثى على قتله، من السهل تخمين أن هذا الوغد لم ينعم بلحظة واحدة من تأنيب الضمير، هو فقط يعيش المتبقى من عمره تحت حراسة واحدة من شركات الأمن، فى أوروبا يمكن التخفى لألف عام مادمت لم تعد مثيرًا للمشاكل

ومتـى كـف الآخـرون عـن البحـث عنـك. هنـاك أرواح إن لم يبـادر المـوت بقطفهـا، فالجميـع سـيعانى.

فى اليـوم التـالى أخبرنـى بكافـة التفاصيـل، العمليـة سـتتم بعـد أسـبوع، هنـاك مـن سـينتظرنى فى مدينـة شـارلوروا البلجيكيـة، هنـاك شـقة تـم تأجيرهـا منـذ شـهرين أمـام مقـر إقامتـه، قامـوا بمراقبتـه حتـى حفظـوا تحركاتـه، متـى يغـادر؟ وإلى أيـن؟ ومتـى يعـود؟ سـأكون بانتظـاره فـوق سـطح البنايـة المواجهـة، المطلـوب رصاصـة فى الـرأس دون غيرهـا لاحتماليـة ارتدائـه واقٍ مـن الرصـاص فى خـلال الثوانـى المعـدودة التـى تعقـب ترجلـه مـن السـيارة، مهمـة لن ينفذهـا إلا قنـاص، أى خطـأ سـيعنى فشـل العمليـة للأبـد، لأنـه حتمًا سـيختفى مـن جديـد فى مـكان جديـد، وكـما تـرى فـإن عمليـة العثور عليـه اسـتغرقت سـنوات ومجهـود شـاق، رصاصـة واحـدة فقـط، لـن يثـيروا ضجـة بشـأنها، لـن يبحثـوا عـن منفـذ العمليـة، لأنـه سيسـبب حرجًـا للدولـة التـى تأويـه، بالطبـع لم أحتـج إلى توصيـة، لـدى مـا يكفينـى مـن دوافـع لانتـزاع روحـه، ولكـن مـا كان يقلقنـى أنـى لشـهور لم أصـوب، هـل أنـا بحاجـة للتدريـب، أم أنـى مازلـت بارعًـا بعـد التوقـف لشـهور؟

كانـت البندقيـة الروسـية أورسـيس T-5000 فى انتظـارى فـوق البنايـة، واحـدة مـن أفضـل الأسـلحة فى القنـص فى العـالم، تمتـاز بدقـة التصويـب لمسـافة تصـل 1650 مـترًا، تدربـت عليهـا مـن قبـل، كان التخطيـط ممتـازًا، خاصـة وأن فـور الإطـلاق، هنـاك مـن سـيحمل السـلاح ليفـر بـه، بينـما أنـا سـأعود للشـقة المؤجـرة فى ثـوان لمشـاهدة التلفـاز.

وفى العاشرة مساءً بينما السيارة تتهادى أمام المنزل أقف على سطح البناية، حاملًا السلاح الموجه ناحية بوابة البناية المقابلة، فى انتظار هبوطه من السيارة، ضغطة واحدة على الزناد الصلب ستنهى حياة هذا الوغد، غادر السيارة بعد فتح أحدهم الباب له، ظهره للسيارة التى يستعد سائقها للانطلاق، رأسه كلها داخل دائرة صغيرة هى عدسة السلاح، شهيقًا أخيرًا قبل التسديد وأحبس أنفاسى لثوانٍ، يعقبها انطلاق الرصاصة لتستفر فى رأسه الذى صار على الأرض عقب سقوطه، أنظر لرفيقى، أشير له بإبهامى، يحمل السلاح عنى، يدفعنى للعودة من جديد للشقة، بينما يستكمل هو مهمته فى الهرب عبر الأسطح، ليعود إلى حيث لا أعلم، ضربة موفقة شعرت معها بالارتياح. رائعة هى العدالة وأروع ما ستكون لو لم تأتِ متأخرة سنوات طوال.



«من يغامرون بالذهاب إلى أبعد الحدود، وحدهم من يعرفون المدى الذى يمكن للمرء الوصول إليه.»

ت. س. إليوت

(20)

يحيي - فرنسا

انتهت جلستكما بقبول عرضه، ولم يتبق سوى خطوات التنفيذ! علمت بأن اسمه مروان، ليس اسمًا حقيقيًا بالتأكيد ولكن يسهل له العمل فى منطقة الشرق الأوسط. عملك الجديد يتطلب تفرغًا تامًا بعيدًا عن بلدك، لذا الموت هو أفضل وأشرف حجة غياب، ستمنح نفسك لقب شهيد، لن يكفوا عن قراءة الفاتحة لك والترحم عليك، وستخلف وراءك سيرة عطرة فى عالم لم يعد يعنيك كثيرًا، هكذا كان اتفاقك مع الرجل، تدبير عملية اغتيال وهمية، أمر يسير جدًا، طلقات عديدة متناثرة على سيارتك فى منطقة هادئة، عجلات السيارة لم يعد لها وجود بعد تفريغ الهواء منها عقب اطلاق النار عليها، دماؤك موجودة فى كل مكان، فى مقعد القيادة وعلى باب السيارة وحولها، ملابسك تترك على مسافة قريبة غارقة فى دمائك مثقوبة عدة ثقوب بعد أن مزقتها الطلقات أحدهم فى موضع القلب، ثم تفجير السيارة إمعانًا فى تلفيق الأمر لا شك لمن سيشهد كل تلك التفاصيل بأنك مِت ميتة بشعة، حتى وإن اختفت جثتك، أين ذهبت جثتك؟ الإرهابيون لا يأبهون بمثل هذه الأسئلة فى الأغلب، هذه مهمة زملائك وليست مهمتك،

سيبذلون جهودًا سدى لبعض الوقت، ولكنك لا تكترث، ستهز الحادثة الجميع وتحفزهم لانتقام رادع تتمناه على نفس القدر من البشاعة.

وبينما تدمع عيون زملائك وتعتصر قلوبهم، تبحر أنت فى سفينة عملاقة عبر البحر الأبيض المتوسط مع مجموعة من البحارة الفرنسيين إلى ثانى أكبر مدينة فرنسية بعد باريس وأكبر ميناء فرنسى هى مارسيليا التى تتميز بوجود واحدة من كبرى الجاليات العربية بين مدن فرنسا، لقد قبض البحارة الثمن وتنتهى مهمتهم بتسليمك لرجل سيهتم بشأنك لاحقًا.

تصل بسلام إلى هناك بصحبة رجل تغيرت ملامحه كثيرًا منذ أخر مرة رأى الشمس فيها ولكنه بالطبع واقع تحت تأثير مخدر قوى، كان هذا شرطك الوحيد اصطحاب سرك الصغير وعدم السؤال عنه، كان لذلك تبعات كثيرة فيما بعد حيث صعب ذلك بقاءك بأى فندق فتم إعداد مسكن خاص بك يتيح لك الاحتفاظ بسرك الصغير. منزل واسع من طابق واحد له حديقة معتنى بها محاطة بسور حديدى متوسط الطول، بالداخل هناك ريسيبشن عريض أثاثه بسيط وراقٍ فى آن ، هناك غرفتان واحدة للنوم وبها كل ما تحتاجه غرفة للنوم، وأخرى تصلح كغرفة مكتب، هناك مائدة اجتماعات وأربعة كراسى فخمة من الجلد وبالطبع مكتب خشبى حديث بنى اللون.

بعد وصولك بثلاثة أيام تقابل مروان من جديد ولكنه يخبرك بأن اسمه هنا هو كلاوديو، مازال كما هو واثق رزين رابط الجأش، كلماته دائمًا تصيب المعنى الذى يريده، حتى الآن تقدره وتعامله بحذر، يبدو أنه سيكون ذا شأن كبير فى المتبقى من عمرك،

رجـل أظهـر براعـة فى التخطيـط والتنفيـذ ونقلـك إلى هنـا بسـلام هـو رجـل لا يسـتهان بـه بـلا شـك.

- الآن أنت واحد منا؟

- مـن أنتـم تحديـدًا ؟ حتـى الآن لـدى العديـد مـن الأسـئلة بـلا إجابـة، لقـد فعلـت كل مـا طلبتـم دون الحصـول إلا عـلى قـدر بسـيط جـدًا مـن المعلومـات

- أعـرف، حـان وقـت تقديـم الإجابـات، كل مـا سـأقوله لـك سـيظل سرًا تحفظـه بصـدرك وتعيـه بعقلـك، لـن تبـح بـه لمخلـوق مهـما كان الثمـن ولا تراهـن عـلى حياتـك إذا مـا فكـرت مجـرد تفكـير النطـق بحـرف ممـا سـيقال الآن.

- كفـاك تهديـدًا، أنـت تخاطـب رجـلًا عاقـلًا، لـن يقـدم عـلى حماقـة قـد تكلفـه حياتـه إلا فى حالتـين.

الأولى عـدم التزامـك معـى فى أى اتفـاق سـابق والثانيـة لـو كففـت عـن الرغبـة فى الحيـاة

- لا أنصحـك بالاعتـماد علينـا فى هـذا الأمـر، إذا مـا رغبـت فى إنهـاء حياتـك فيمكنـك اختيـار وسـيلة سـهلة سريعـة لأن كل وسـائلنا عـادة تتنـافى مـع تلـك الصفتـين.

- أدخـل فى الموضـوع دون مقدمـات، أفهـم مـا تقصـده ، لقـد كان عمـلى يعتمـد فى الأسـاس عـلى السريـة والالتـزام

- حسـنًا، نحـن منظمـة متعـددة الأهـداف ومتشـعبة فى شـتى بقـاع الأرض، تنقسـم أنشـطتها بـين سرى ومعلـن، السريـة ليـس لهـا أوراق أو سـجلات نحتفـظ بهـا، فقـط كل فـرد يـؤدى دوره بكفـاءة وشـعور بالمسـئولية، أمـا المعلنـة فسـتعرف بنفسـك كـم هـى ذائعـة الصيـت

وتحظى باحترام الجميع هنا لما تقدمه من دعم غير مسبوق لكل ما يمكنها الوصول إليه، بالنسبة لأنشطتنا السرية لا مجال للخطأ لدينا، وإن حدث فأنت مسئول عن نفسك، لا تنتظر منا أن نأتى لإنقاذك ولكن يمكنك أن تأمن على حياتك مادمت تحتفظ بسرنا فى صدرك، مهمتنا الأولى هى حماية الضعفاء ونصرة المظلومين، هناك الكثير من البشر يعيشون بيننا فى أجساد أدمية بينما هم أعنف من أشرس الحيوانات وأكثر وحشية من أشد الوحوش ضراوة، لا ذرة رحمة فى قلوبهم ولا بذرة خير فى رؤوسهم، ضميرهم مرفوع دائمًا من الخدمة أو فى إجازة إجبارية لا عودة منها، لا يتورعون عن ممارسة رذائلهم ضد إخوانهم من البشر، هؤلاء من نوجه لهم سهامنا ونضربهم بيد من حديد، فى البداية كنا أكثر سذاجة واعتقدنا أن هناك مجالًا للإصلاح لكن البذرة العفنة لا يمكن علاجها والأفضل بترها وعزلها قبل أن تفسد باقى البذور، هذا هو خلاصة تجاربنا مع البشر، قسوتهم لا حدود لها وبطشهم يفوق التصور، يظلمون ويقهرون كل ضعيف، لا يردعهم رادع ولا يوقفهم شافع ما دامت مصالحهم تقتضى ذلك، يتعاملون مع الآخر كما لو كان حيوانًا بل ربما يعاملون الحيوان معاملة أفضل، الأمثلة كثيرة فى كل زمان ومكان .. قتل، اغتصاب، تعذيب، تهديد، تجارة أعضاء، ابتزاز على كل المستويات، والنظام العالمى يقف متفرجًا وربما مشاركًا متواطئًا، على أية حال نحن لا نعول عليه، فقط نشتريه، نسكته، لسنا كمنظمة ولكن كجزء من المجموع العام الذى يسعى وراء تحقيق مصالحه بأى ثمن كان.

يتوقف كلاوديو قليلًا عن الكلام قبل أن يضع ساقه اليمنى على اليسرى ويضيف: حجم الشرور التى استطعنا تحجيمها

والسيطرة عليها لم تقم به دول عظمى على مر التاريخ أو مسئولين بارزين ذائعي الصيت ذوى الكلام المعسول والوعود الزائفة والشعارات الرنانة التى يبثونها عبر أبواق إعلامية تصورهم وكأنهم يكترثون، لكن الحقيقة أنها مجرد شو إعلامى لترديد دعاوى كاذبة تروج لإنسانية غير موجودة، الواقع: الأمر كله خدعة كبيرة يمارسها نظام فاشى لا يرحم مواريًا حقيقته بكلام فارغ من عينة ضمير عالمى، سلام اجتماعى، منظمات مجتمع مدنى، حضارة، نهضة، إنسانية، كلها كلمات تتردد على الألسنة ويتم تداولها فى الاجتماعات والمؤتمرات، لكن لا شىء حقيقى على أرض الواقع، الوحشية تمارس تجاه العديد من البشر ولا يسعهم سوى أن يقفوا مكتوفى الأيدى مكتفيين بالاستنكار والتنديد، هذا هو ما اتفقوا عليه كرد فعل تجاه المجازر والانتهاكات التى ترتكب أينما حل الذئاب.

تبدو مشدوهًا أمام كلماته، لم تفكر أبدًا أن هناك شيء كهذا، لا تؤمن كثيرًا بالعالم المثالى أو المدينة الفاضلة، إنها أيضًا شعارات يستحيل تحقيقها على هذه الأرض ويتعذر حتى مجرد التفكير فى ذلك.

– هذه منظمة تبحث عن المدينة الفاضلة؟

– كلا بالطبع لسنا سُذج هكذا، ولكننا فقط نبحث عن عدالة مفقودة، مجرد محاولة لتخفيف الآلام التى يعج بها هذا الكوكب البائس، محاولة لجعل العالم مكانًا أفضل لعدد غير قليل من البشر صارت الحياة أسوأ من أسوأ كابوس رأيته فى حياتك، فقط نريد لهم حياة آمنة، أظن ذلك ليس بالشيء الكثير.

- وما الآليات والوسائل لتحقيق ذلك؟

- كل ما يخطر على بالك أو يتراءى لنا ومن شانه أن يحقق لنا أهدافنا، لذا نحتاج عددًا من المقاتلين الأكفاء الشجعان، لدينا رجال من شتى البقاع ومختلف الجنسيات، قبلوا العمل معنا بالشروط التى اتفقنا عليها، لا نسمح بأى خطأ لذا فنسبة الخطأ تكاد لا تذكر، حفاظًا على رجالنا وتحقيقًا لأهدافنا فقط نرصد هدفنا ونحدد صيدنا ونخطط لذلك جيدًا، ورجالنا أمثالك هم أدواتنا فى التنفيذ

- إذن هناك قتل؟

- وخطف وإنقاذ ودعم ومساعدات وكل ما يخطر ببالك.. ألم تقتل من قبل؟ لا تنكر أن هناك من البشر قتلهم أفضل هدية يمكن تقديمها لهذا العالم، التخلص منهم يعنى حياة لعشرات ومئات آخرين.

- وكيف يتم اختيار أهدافكم وما الذى يضمن لى بأنها تستحق القتل ؟

- أضمن لك ذلك، وستتحقق منه بنفسك، لسنا مؤسسة ربحية لنتربح من عملياتنا، تمويلنا يعتمد على أناس اهتدوا بأن وجود المنظمة أمر حتمى وسيعود بالنفع على الكثيرين ومقابل ذلك يتحملون تمويل كافة الأمور.

- بالطبع غير مسموح لى معرفة من هم؟

- جهلك بهم أضمن لسلامتك.

يعقب حديثكما فترة من الصمت وكأنك تزن الأمر، لا يزال لديك العديد من التساؤلات.

- ولماذا لا تسلك المنظمة السبل القانونية للتخلص من هؤلاء؟

لقد آثرت بسؤالك عاصفة من الضحك لدى الرجل يا يحيى، هذه المرة الأولى والوحيدة التى تراه يقهقه من القلب بهذا الشكل، أغمض عينيه وعاد برأسه للوراء وارتفعت إحدى قدميه عن الأرض وهو مستغرق فى نوبة من الضحك الهستيرى «هل سؤالك ساذج إلى هذه الدرجة؟» تتساءل بداخلك وأنت نادم على طرح هذا السؤال وتنتظر بشغف انتهاء نوبته من الضحك، تبًا يا يحيى لقد دمعت عيناه من كثرة الضحك. وحين انتهى ولملم شتات نفسه عاد لطبيعته

- قل لى بربك متى ارتدع المجرمون الوحشيون بتطبيق القانون؟ بل قل لى كيف تجبر المجرمون فى ظل وجود القانون؟ بعض الجرائم الخفيفة يتوب بعض مرتكبيها عقب الإيقاع بهم مثل اللصوص، النصابين، القتلة أصحاب الدوافع المنطقية وهؤلاء لا يدخلون دائرة اهتمامنا ولا حتى يشغلون حيزًا من تفكيرنا، نحن لا نطالب البشر بأن يكونوا ملائكة، فقط نريدهم أن يكونوا بشرًا ولا يتدنون لما دون الحيوانية، تجار الموت حين يوقع بهم القانون فهو يمنع شرهم لبعض الوقت وحين تعود لهم الفرصة يعودون من جديد لتسلطهم وجبروتهم

- هل لى أن أعرف كيف وصلتم إليّ لماذا اخترتمونى أنا تحديدًا؟

- سالم الملاح.

- كيف؟ ونظرات عدم الفهم تقفز من عينيك

- سالم الملاح كان واحدًا من أهدافنا، ذاع صيته فى أفريقيا فى مجال تجارة الأعضاء البشرية عن طريق خطف الأطفال، عقب جريمة

اختطافـه للأطفـال فى وطنكـم وتمكنـه مـن التخفـى والهـروب، أثـار إعجـاب تجـار الأعضـاء البشريـة بجرأتـه وتخطيطـه المفاجـىء المحكـم، كان رجالكـم يبحثـون عنـه فى كل شـبر فى كل خنـدق، ضيقـوا الخنـاق عليـه وكادوا يصلـون إليـه، ولكـن توصـل إليـه قبلهـم كبـار عصابـات تجـارة الأعضـاء، آووه لديهـم وتمكنـوا مـن تهريبـه عـبر الحـدود إلى ليبيـا ومنهـا إلى افريقيـا، كان الاتفـاق بينـه وبينهـم أن يحمـوه منكـم مقابـل انضمامـه للعمـل معهـم والقيـام بعمليـات مماثلـة تسـتهدف خطـف الأطفـال للتجـارة فى أعضائهـم، قبـل العمـل معهـم وطـوال السـنوات الماضيـة انتقـل مـن بلـد أفريقـى لبلـد أخـر وعـاد لبلدكـم أيضًـا، خـاض جولـة محترمـة فى عـالم تجـارة الأعضـاء أهلتـه أن يقـع تحت ميكروسـكوبنا حتـى تمكنـا مـن الإيقـاع بـه هـو وبعـض شركائـه، واحـدة مـن عملياتنـا المميـزة، ضربـة قاصمـة لواحـدة مـن أهـم شـبكات تجـارة الأعضـاء فى قارتكـم البائسـة، كـم طفـلًا خطفـوه؟ كـم أبًـا أدمعـوا عينـه؟ كـم أمًـا مزقـوا قلبهـا؟ كثيريـن.. أنـت نفسـك أحدهـم.. وكانـت تلـك........

وبينـما هـو يواصـل حديثـه تتشـكل دمعـة عـلى سـطح عينـك وأنـت تتذكـر آسر، كـم كانـت حياتـك سـتختلف، لـو لم يقـدم سـالم عـلى فعلته، لـو لم يقـدم الميرغنـى عـلى جريمتـه، لـو كانـت الشرطـة تمكنـت مـن العثـور عـلى آسر حيًـا، لـو أن خطـأ واحـدًا بسـيطًا فى تسلسـل مجريـات الأحـداث لعـب لصالحـك لعشـت حيـاة سـعيدة تحسـد نفسـك عليهـا، لبقيـت مـع ولـدك وفى أحضـان زوجتـك ولعـدت إلى بيتـك تنعـم بنـوم هـادئ لا تقطعـه كوابيـس، ومـا كنـت لتـترك عملـك سـعيًا وراء انتقـام عـادل، ومـا كنـت لتجلـس هنـا فى أرض غريبـة مـع رجـل عجيـب يحدثـك عـن منظمـة لم يسـمع بهـا أحـد مـن قبـل، فقـط خطـأ واحـد كان سـيجنبك ألمًـا سـيظل مصاحبًـا لـك حتـى قـبرك.

«لـذا فـإن أول مهامـك معنـا سـتكون ضـد واحـدة مـن الجرائـم العنصريـة»

تلتقـط أذنـك كلماتـه عقـب شرودك، لقـد مللـت مـن حديثـه، أيـن سـالم المـلاح لتنفـث فيـه غضبـك؟ هـذا مـا تركـت بلـدك وعملـك لأجلـه، فلتنالـه وبعدهـا تنظـر مـاذا يريـدون، تطـرح عليـه سـؤالك فيبـادر بفتـح حقيبـة جـواره يخـرج منهـا أسـطوانة مدمجـة ويمـد يـده لـك بهـا، ترمقـه متسـائلًا:

- هذه مجموعة من اللقطات والصور لسالم؟

- لا أريد صوره، أريده هو كما اتفقنا

- ليس الآن، أعلـم أنـك تريـده فـورًا، ولكـن يكفـى الآن المصيبـة التـى لديـك والتـى جلبتهـا معـك، لا أفهـم مـن هـو ولمـاذا أصريـت عـلى اصطحابـه معـك ولكـن قـد يسـبب لنـا مشـاكل لا داعـى لهـا، كـما أنـك أمامـك الكثـير مـن التدريـب والتعليـم لتعـرف كيـف نتواصـل وكيـف سـيتم العمـل، كذلـك أنـت بحاجـة لتعلـم اللغـة الفرنسـية، هـذا سيسـهل عليـك الكثـير مـن العيـش هنـا وسـيعينك كثـيرًا فى مهامنـا هنـا وبالخـارج.

- لم يكن هذا اتفاقنا

- نحـن لم نخـل باتفاقنـا، فقـط نريـد أن تكـون عـلى أتـم اسـتعداد وقـت اسـتلامه. لا تتوقـع منـى أن أسـلمه لـك وتنتهـى منـه هنـا كـما فعلنـا مـع ضيفـك الآخـر، نحـن لم نـأت بـك إلى هنـا لتحصـل عليـك الشرطـة الفرنسـية، علينـا أن نكـون أكثـر حـذرًا، عليـك التعلـم والاسـتجابة لمـا يطلـب منـك التـدرب عليـه، نحـن لا نقلـل مـن كفاءتـك ولكنـك رجلنـا الآن، عليـك أن تكـون مسـتعدًا لشـتى

المواقـف، سـالم لدينـا وسـتحصل عليـه وسـنترك مصـيره لـك ولكـن بعـد أن تتدبـر أمـورك هنـا، فقـط لا تتعجـل.

- وما المطلوب منى الآن؟

الاسـترخاء والتأقلـم والاسـتعداد لأولى عملياتـك معنـا، بعدهـا سـتحصل عـلى سـالم بعـد أن تنتهـى فـترة تدريبـك.. سـنجتمع ثانيـة للحديـث بشـأن أولى عملياتـك، بعدهـا سـنقدم لـك سـالم وسـنقدم لـك أى دعـم تريـده.

حـين تعـى السـبب الحقيقـى لعـدم تسـليمك سـالم، تثـور بحـدة وتنفجـر فيـه:

- ولمـاذا كل ذلـك؟ بعـد مـا قدمتـه لكـم وتركـت بلـدى وعمـلى هـل لديكـم شـك تجاهـى؟ حتـى الآن أنـا ملتـزم بـكل مـا طلبتمـوه، ولم أناقـش حتـى الآن تفاصيـل لا تحتمـل التأخـير، وثقـت فيكـم، مـاذا لـو كنتـم أنتـم مـن يخدعنـى؟

- بالطبـع ليـس لدينـا شـك ولا رغبـة لنـا فى خداعـك، مـاذا سـنجنى وراء ذلـك؟ لكننـا فقـط نريـد التأكـد مـن انضمامـك لنـا عـن اقتنـاع، لقـد قدمنـا لـك عرضًـا غريبًـا، مريبًـا ولم نخـبرك حتـى بـما هـو مطلـوب منـك فى المقابـل ووافقـت عـلى الفـور حتـى دون فرصـة للتفكـير، نعلـم رغبتـك فى الحصـول عـلى سـالم واسـتعدادك لتقديـم أى شـىء مقابـل رأسـه، ولكـن مـاذا بعـد أن تشـفى غليلـك؟ عودتـك لبلـدك وعملـك ليسـت مسـتحيلة، ونحـن لـن نسـمح بـأن ننخـدع، هـذه قواعدنـا، وهكـذا اسـتمر وتطـور العمـل لدينـا، لا مجـال للخطـأ مهـما كان حجـم الثقـة ، نحـن نديـر مؤسسـة ليسـت للهـو ولا حتـى الربـح، وأظـن أن أمـرًا كهـذا ستنسـاه بمجـرد حصولنـا عـلى ضمانـات وحصولـك عـلى رأس سـالم

- انتهى لقاؤكما دون أن تحصل على ما تريد، فقط ستصبر وتمتثل وقد رأيت أنهم لن يعملوا إلا وفقًا لقناعاتهم، أنت الآن ستشرع فى بدء حياة جديدة لا يربطها بعالمك القديم سوى سالم وحسام ولأشد ما تكره كلاهما، وكلاهما سيحين دوره، ما حل بهما لا يقارن بما تنتويه لهما، ولكن ما قيمة حياة ليس فيها آسر وداليا، وكلاهما ضاعا من يديك، كم أنت فاشل! هكذا تقول لنفسك، كل ما تفعله ورغبتك فى الانتقام مجرد محاولة لجعل الحياة ممكنة ولجعل الأرض قادرة على استيعاب روحك التى ما عادت تطيق حياة، وباتت تشتاق ليوم تلحق فيه بقطعة منها سبقتها إلى العالم الآخر، وحتى تحين تلك اللحظة عليك ترويض نفسك للقيام بما يطلب منها.

- تتلقى دروس تعليم اللغة الفرنسية على يد فتاة لم تتجاوز الثلاثين من العمر، وتعقد جلسات لتدريبك على طريقة التواصل مع أفراد المنظمة وكيفية تفسير التعليمات وأسباب عقد اللقاءات وأماكنها، تكتسب هوية جديدة واسمًا جديدًا، فهويتك الأولى تركتها هناك حيث كنت تعيش، وما بقى منها سيستقر فى صدرك للأبد ولكن هل يتسع له؟!

فى كل يوم تحرز تقدمًا لا بأس به، تحصل على معلومة لم تكن تعرفها من قبل حتى يروا أنك صرت مستعدًا للقيام بأولى عملياتك، علمت منهم أن من ضمن أهدافهم أن ينال البشر عقابهم ليدركوا فداحة ما اقترفوه من خطأ وليذوقوا وبال أمرهم الذى أذاقوه للناس، عليهم أن يتلقوا جزاء من جنس عملهم، وأنه ليس هناك أجمل من أن يكون الانتقام وتحقيق العدالة بيد ضحاياهم أو على الأقل يشهدوا عقابهم، ففى ذلك شعور لا يقاوم بالراحة، إنه

يعيـد للحيـاة معنـى جميـلًا بـأن البسـمة الأخـيرة لـن تكـون لمجـرم أو لظـالم.

مـر أكـتر مـن شـهرين عـلى وجـود بفرنسـا، الآن بـت قـادرًا عـلى تبـادل أحاديـث قصـيرة مـع أصحـاب المحـلات، فى المطاعـم ، مـع سـائقى سـيارات الأجـرة، لا يـزال أمامـك المزيـد مـن الوقـت كـما أخـبروك، حسـنًا تقـضى وقتـك فى شـوارع فرنسـا وعـلى شـواطىء مارسـيليا بالأخـص، هـواء سـبتمبر المنعـش يخـترق مسـامك، يلفـح وجهـك، يغسـلك مـن الداخـل، لكنـه أبـدًا لم يزحـزح أو ينسـيك ذكـرى واحـدة جمعتـك بـآسر ، ومـع اقـتراب الشـهر الرابع مـن الانتهـاء يجمعك لقـاء جديـد بكلاوديـو، يقابلـك بابتسـامة عريضـة تحتـل وجهـه:

- تهانينـا يـا رفيـق، لقـد اجتـزت فـترة تدريبـك بنجـاح، الآن أنـت مسـتعد للقيـام بـأولى عملياتنـا معًـا، هـل أنـت جاهـز؟

- لقد أجبت بنفسك منذ ثوان على هذا السؤال

يدخل فى الموضوع دون مقدمات:

- مهمتـك الأولى هنـا فى فرنسـا فى قلـب العاصمـة باريـس خاصـة بجـورج أيـو هـل سـمعت عـن جريمـة قتـل الشـاب الزنجـى جـورج أيـو؟

جـاءت إجابتـك بالنفـى وهـو مـا يتوافـق مـع توقعـه بحسـب هـزة رأسـه السريعـة ليواصـل:

- أيـو يعمـل فى أحـد المطاعـم بشـارع رئيـس بالعاصمـة باريس فى يوليـو المـاضى تـم طعنـه عـدة طعنـات بلغـت 20 طعنـة فى شـتى أنحـاء جسـده إحداهـا اخترقـت القلـب لترديـه قتيـلًا وسـط بركـة مـن الدمـاء، جريمـة هـزت الشـارع الفرنسـى لفـرط قسـاوتها،

ولأن أيـو اشـتهر بطيبـة القلـب ولطـف المعـشر، ليـس لديـه أعـداء وكان ذا شـخصية مرحـة بحسـب أقـوال جميـع معارفـه بمـن فيهـم رواد المطعـم، الجميـع أصابتهـم صدمـة شـديدة جـراء الحـادث، وقعـت الجريمـة أمـام إحـدى البنايـات فى شـارع هـادئ جـدًا عقـب انتهـاء أيـو مـن زيـارة صديـق لـه يسـكن فى هـذه البنايـة، لحسـن الحـظ وسـوءه فى نفـس الوقـت كانـت هنـاك كامـيرا مراقبـة ترصـد التحـركات فى مبنـى مواجـه لهـذه البنايـة، فى البدايـة لم ينتبـه أحـد لهـذه الكامـيرا، بعـد 24 سـاعة مـن الحـادث تذكـروا هـذه الكامـيرا هرعـوا إليهـا وأعلنـوا أنهـم بصـدد تفريغهـا، بعـد يومـين أعلنـوا بأنهـا لم تقودهـم لشـىء، يليهـا بعـدة أيـام ظهـور فيديـو عـلى الانترنـت بعنـوان (مقتـل جـورج أيـو) هـذا الفيديـو تـم حذفـه بعدهـا بعـدة سـاعات، كل مـن شـاهدوه قبـل الحـذف أكـدوا أنـه يخـص الجريمـة ولكـن يصعـب تحديـد المجـرم لبعـد المسـافة بـين الكامـيرا والحـادث وكذلـك لقلـة الضـوء أثنـاء ارتـكاب الجريمـة وإلى الآن لم تعثـر الشرطـة الفرنسـية عـلى الفاعـل ولـن تعثـر عليـه.

- هم متورطون إذن؟ تقولها بثقة ليجيبك وسط تركيزك

- الفيديـو الـذى تـم حذفـه مـن الانترنـت تمكنـا مـن تسـجيله قبـل الحـذف وبواسـطة برامـج شـديدة الفاعليـة ورجـال ذوى كفـاءة تـم توضيـح الصـورة.

ثـم قـام كلاوديـو بفتـح حاسـوبه الشـخصى ليعـرض عليـك الفيديـو بعـد تنقيحـه، بعـد المشـاهدة تتبـين وجـه الجانـى شـاب أشـقر متوسـط الطـول نحيـف البـدن يقابـل جـورج عقـب خروجـه مـن البنايـة يسـتوقفه، ويبادلـه حديثـا عابـرًا وبمجـرد انـصراف جـورج، ينقـض

عليه الفتى من الخلف ويبعثر الطعنات على جسده فى غل واضح ولا يبارحه حتى يتأكد من انقطاع أنفاسه.

يعقب حديثه نظرات متبادلة معك يا يحيى مما أكد صحة استنتاجك الذى طرحته عليه:

- وهذا الفتى هو هدفنا؟ يومىء برأسه موافقًا

- ربما لديه دافع

- دافعه عنصرى بحت، هذا الفتى والده أحد كبار رجال الشرطة، مساعد وزير الداخلية، الفتى يكره الزنوج بعنف، يمقتهم كما تمقت النساء الصراصير ويحتقرهم كذلك بلا سبب واضح، للعلم هذه ليست أولى جرائمه، فى الجامعة اختفى زميل له أسود ولم يتم العثور على جثته إلا بعد فترة كبيرة. كل الشهود أجمعوا على وجود خلافات بين الضحية والفتى سببها الأول كره الشاب للزنوج بلا مبرر مفهوم، ولكنه أثناء التحقيقات قدم دليل براءته بشهادة أصدقائه بتواجده معه فى نفس توقيت الحادث .

- ربما كانت هى الحقيقة؟

- ليست هى.. وصلنا إلى أحدهم وانتزعنا منه اعترافًا بأن شهادتهم كانت مقابل المال، لقد تأكدنا دون شك بأنه مرتكب الجريمتين، وهناك جريمة أخرى لطفل أسود اختفى فى نفس مدرسة فتانا ولم يتم العثور على جثته أبدًا، هذا الفتى يمثل خطرًا على آلاف الزنوج هنا فى فرنسا، لا أحد يعلم من ضحيته القادمة، والده يعطيه غطاء بكل ما أوتى من قوة، هذا الفتى هدفنا.

- مطلوب قتله؟

- كلا، مطلوب احضاره

لم تفهم سبب الرغبة فى احضاره وليس قتله، ناقشته قبل انصرافه بوجود أكثر من مجرم فى هذه الحادثة، والد الفتى والشهود الزور وغيرهم، كل أولئك مدانون، فكانت إجابته التى بدت مقنعة «لو استهدفنا كل مخطىء، سيتوجب علينا التخلص من جميع أهل الأرض بما فيهم نحن، مادام هناك بشرًا سيظل هناك خطايا وخطاة، فقط نستهدف الخطيرين منهم، الذين لا يقيمون وزنًا لحياة أو روح يزهقونها ولا يتوقفون عن إزهاق المزيد، الخطيئة والدناءة سمة لا يمكن محوها من على وجه الأرض إلا بمحو كل أثر لإنسان»

كان كلامه مقنعًا، لن يتوقف بشرى عن الخطأ، ولكن المهم حجم الخطأ ومدى خطورته وقابليته للتكرار.

بعد انصرافه تتبين من كلامه بالبحث عبر الشبكة العنكبوتية، وتحصل على نفس النتائج التى تطابق أغلب حديثه، أمدك كلاوديو بعنوان الفتى، بات عليك مراقبته والتخطيط للمهمة، أمامك شهر للتنفيذ، ومع قرب الحصول على هدفك تخبر المنظمة لتحديد كافة الترتيبات اللازمة لتسليم الفتى، لقد صرت صيادًا وحان وقتك لتثبت براعة، تراقب الفتى لمدة أسبوع كامل، من بعيد يبدو إنسانًا مسالمًا، يحيا حياة طبيعية، غير متزوج، يملك متجرًا للملابس، يتنزه مع أصدقائه، يغادر ويعود للمنزل فى أوقات منتظمة، ويعربد ليلة الأحد فى ملهى ليلى، تبدو هذه هى نقطة انطلاقك؟ هل يزور مكانًا واحدًا؟ ستعرف وعندها ستضع خطتك، بالفعل الفتى دائم التردد على نفس الملهى فى كل عطلة، تتفحص المكان من الداخل والخارج هناك مسافة جيدة بين الملهى وجراج السيارات يحتاج الزائر فيها للمشى مسافة 50 مترًا قبل الظهور تحت الأضواء

الخارجيـة للملهـى. يجـب التنفيـذ فى ليلـة الأحـد، أى يـوم أحـد، لأن الفتـى دائـمًا مـا يقـضى نهايـة الأسـبوع فى نفـس الملهـى.

لمـاذا تشـعر الآن بهـذه الإثـارة؟ لمـاذا كل هـذا الحـماس؟ كيـف دبـت فيـك الحيـاة هكـذا. هـل هـى روح المغامـرة تعـود مـن جديـد؟ الإجابـة لا هــذه المهمــة وهــذا الفتــى فقــط يفصلانــك عــن رأس ســالم ولــن تسـمح بـأى تأخـير جديـد.

مـر الأسـبوع الثانـى، تـدرس كافـة التفاصيـل، تضـع خطتـك وخطـة بديلـة، تسـد الثغـرات وتقلـل نسـبة الخطـأ إلى أقـل نسـبة ممكنـة.

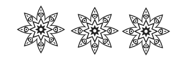
فى الليلـة الموعـودة سـتركن سـيارة مسـتأجرة فى نفـس الجـراج قبـل وصولـه بسـاعتين، سـتجرى بعـض التغيـيرات عـلى هيئتـك باروكـة صفـراء، ذقـن مشـعثة، عوينـات زجاجيـة، وبمجـرد نزولـه مـن سـيارته سـتباغته وتسـتوقفه، اسـبراى مخـدر سريـع المفعـول سيسـهل الكثـير، تسـحبه حتـى سـيارتك بعـد فقدانـه لوعيـه، تنتظـر قليـلًا فى السـيارة الآن يمكنـك الانطـلاق إلى حيـث اتفقـت معهـم، لتسـليم الهـدف.

لقـد أديـت مهمتـك بنجـاح بعيـدًا عـن أعـين الشرطـة وعدسـات كامــيرات المراقبــة، التــالى بعــد ذلــك لا يعنيــك.. جريمــة اختفــاء شــاب تــرك ســيارته فى الجــراج القريــب مــن الملهــى، هنــاك عــشرات الاحتـمالات، الخطـف واحـدًا منهـا ولكـن لا وجـود لأى رابـط بينـك وبـين الفتـى.

بعــد تســليمه تعــود لمارســيليا مــن جديــد، تتلقــى مكالمــة مــن كلاوديــو يطلــب فيهــا لقــاءك، يمنحــك مبلغًــا كبــيرًا مــن المــال، ويعـرض عليـك تسـليمك سـالم، ليأتـى ردك المفاجـىء « هـل مـن الممكــن أن يبقــى معكــم مهلــة أخــرى؟»

يندهش من هذا الرد، حاول تخمين ما يجول بذهنك ولكنه لم يفلح، وفى النهاية امتثل لرغبتك.

كانت هذه هى المهمة الأولى، توالت بعد ذلك مهمات تالية، عمليات مشابهة وأخرى ما بين التخلص من مجرمين ونقل مساعدات، دفع تبرعات وحسابات مستشفيات، بدا كل ما قاله كلاوديو حقيقيًّا، المنظمة لها باع كبير فى الأعمال الخيرية. ولها جهود صريحة فى مطاردة الآثمين. ربما لولاهم ما عثرت على سالم أبدًا، وعما قليل ستعتصره بين أناملك.



«وكما نخلو عن الرحمة فى الأفعال فسنفقد اللطف فى ردود الأفعال.»

(21)

روبيرتو روسّي

(1995 - 2000)

أنا الآن تجاوزت الستين عامًا، شعرى مستمر فى السقوط، لم يتبق منه إلا القليل مكتمل البياض على جانبى رأسى، التجاعيد تملأ وجهى أكثر، والوهن يزحف ببطء على جسدى حتى يستولى عليه كاملًا، تباطأت خطوتى وضعف بصرى قليلًا، لكنى لازلت أميز الأشياء بشكل جيد بمساعدة عوينات طبية لن تتضح الرؤية بدونها، اعتدت الحياة وحيدًا دون رفيقة أو زوجة ولم أطمح يومًا فى الحصول على أبناء سأندم لاحقًا على إحضارهم لهذا العالم وربما توجب عليّ تقديم اعتذار على هذا الخطأ الشنيع، صحيح أنى سأترك لهم ثروة عظيمة، ولكن من قال إن المال يجلب السعادة، لو كان كذلك لكنت أسعد الناس، كل الأغنياء ليسوا بالسعادة التى يتصورها الفقراء، فقط يعيشون فى ظروف أفضل تحيطهم الهواجس والشكوك من فقدان ما امتلكوه ربما لأن طرق جمعه لم تكن مشروعة، بلا شك الجميع بلا استثناء يطمع فى المزيد غنيًا كان أو فقيرًا، أما أنا فكان أكثر ما يهمنى أن تظل مؤسستى

تعمل وتعمل بلا توقف، لو رحلت غدًا فسأعهد إلى أخى بتكملة المشوار من بعدى والإبقاء على كافة الأنشطة التجارية والسياحية والخيرية التى كنت أمارسها، ولكن إلى متى سيبقى أخى فى قائمة الحياء، ماذا لو انتقل قبلى أو بعدى للجهة الأخرى، ليس لدى وريث ولكنه لديه اثنان، تونى وماركو، شابان يافعان ممتلآن بالنشاط مفعمان بالحيوية كلاعبى الكرة، تونى الأكبر شابًا مرحًا واثقًا طويل القامة نحيف البدن، طويل الشعر، لديه إصرار على النجاح، ذكاؤه حاد، يهتم بكافة التفاصيل، أما ماركو فكان أكثر حكمة واتزانًا، قامة أقصر وشعر أقصر لونه أسود، ممتلىء قليلًا ولكنه ليس بدينًا يشبه أليسّاندرو كثيرًا، بينما تونى يشبه والدته أكثر، كلا الشابين التحقا بالعمل معنا، فى البداية تعلما التجارة رويدًا رويدًا، صعدا السلم من أوله، ثم انتقلا للعمل بالسياحة، راق هذا أكثر لماركو، كان محبًا للسفر والترحال، كثيرًا ما اصطحبته معى فى جولاتى للخارج، والتى لم تكن للعمل فقط إنما للترفيه أيضًا، مولعًا ماركو بالفتيات كذلك، يجيد اصطيادهن والتعامل معهن، على عكس تونى الذى يبدو أكثر هدوءً واتزانًا فى هذا الأمر، جادًا أكثر فى التعامل، يبحث عن النجاح بشتى الطرق ويضع دائمًا لمسة خاصة به، شخصية مستقلة تمامًا تونى، أحببت الولدين وعلمت أنهم يومًا ما بعد رحيلى أنا وأخى سيحملون عبء مشروعاتى ومؤسستى.

ومع تشعب أنشطتى لم تعد إيطاليا وحدها مستقرى ومقامى، بيتًا فى فرنسا وآخرًا فى ألمانيا وفيلا بأمريكا وقصرًا فى تايلاند، أسطول من السيارات الفارهة بانتظارى فى كل مكان وأسطول من السفن يبحر شرقًا وغربًا شمالًا وجنوبًا كنت دائم التنقل والترحال،

يتتابنى السأم إذا بقيت فى مكان واحد أكثر من أسبوع، ولكن حين دعت أعمالى لزيارة نيوزيلندا وأستراليا وجدت وجهًا آخر للعالم لم أره من قبل، أرضًا منسية وعالمًا خاص فى هذه الأرض البعيدة وقوانين صارمة لا تفرق بين جنس وشكل ولون، لا صراعات دينية أو قبلية أو سياسية، الجميع هنا متساوٍ فى الحقوق والواجبات، سلام نفسى يحياه الجميع ويفر الكثيرون إليه، العالم يؤكد قناعاتى للمرة المليون بأن الجنة كانت ممكنة على الأرض لو ترفع الإنسان عن دونيته ووحشيته، كم هى ساحرة نيوزيلندا تلك الجزيرة الهادئة ساحرة الجمال المعزولة عن الصراعات، حبتها الطبيعة بمناظر خلابة وجمال آسر، تتكون من مجموعة من الجزر اثنتين كبيرتين وعدد من الجزر الأصغر مساحة، تغطى الغابات مساحات شاسعة منها، وتتميز بتنوع زراعى وحيوانى فريد مما فتح لى المجال لوصول باخراتى بغرض التجارة كما أننى أحببت البقاء فيها والاستمتاع بتلك الطبيعة المبهرة، وبينما أنا فى رحلة بحرية هناك علمت من أحد المرشدين السياحيين بوجود عدة جزر فى جنوب المحيط الهادىء متفاوتة المساحة وأعداد السكان وكانت المفاجأة حين قال بأن هناك عدد قليل من الجزر يتمتع باستقلالية تامة ويخضع لحكم ذاتى، لا سلطان لا قانون عليهم إلا قوانينهم الخاصة سألته «كيف ذلك؟»

فأجاب «قد تخضع لأستراليا أو نيوزيلندا على الورق فقط ولكن ذلك لا يمنع من تمتعها بحكم ذاتى، وذلك لأن الحياة هناك بسيطة جدًّا، بدائية بدرجة ما، لا يوجد سفن عملاقة ترسو هناك أو موانىء أو خطوط قطار أو حتى مطار، إنهم كذلك لا يدفعون الضرائب، لا يوجد حتى رعاية صحية هناك وليست لهم مطالب

سوى أن يُتركوا وشأنهم» ذُهلت حين سمعت هذا الكلام، بعد هذا العمر الطويل اكتشف أن هناك جزرًا منعزلة لا تخضع لقوانين العالم المنحرف ولا تأبه به، وتنعزل تمامًا عنه، أى نعمة يعيشون فيها؟ حياة بكر تلك التى يحيونها.

هنا فقدت قدرتى على كبح دهشتى وألقيت عليه مطلبى «أريد الذهاب هناك لزيارة واحدة من تلك الجزر ذات الحكم الذاتى» نظر لى الرجل مليًا، وشعرته يقول بداخله «أى مجنون هذا؟!» ولكنه لمح إصرارى فأوضح لى «الأمر ليس يسيرًا كما تظن ليس هناك تذكرة سفر تقودك إلى هناك، كما أن هذه الجزر بالغة الصغر، عدد سكانها قليل جدًا»

«إذن كيف يمكننى الوصول؟»

لقد عزمت الأمر ولن أتراجع، إذا لم أستطع أنا فى هذا السن وبكل ما أملك تحقيق

رغبة، فمن يمكنه؟

«هناك جزيرة تنقل إليها البضائع عبر السفن، ولكن هذه السفن لا تقترب من الجزيرة، فقد تنقل ما تحمل من بضائع إلى قوارب أصغر تحمل طنين أو ثلاثة، يمكن لواحد من تلك القوارب أن يحملك إليها، إنها جزيرة صغيرة للغاية»

«هل يمكنك أن ترافقنى إلى هناك؟»

«أنا لم أذهب هناك من قبل، لكنى سمعت»

« ولكن أظن وجودك سيذلل أمورًا كثيرة»

هكذا انتقلت إلى هناك بصحبة توماس المرشد السياحى إلى الجزيرة، كانت تقع فى جنوب المحيط الهادئ شمال نيوزيلندا وشرق أستراليا،

تبعد عن كليهما مئات الكيلومترات، كانت الرحلة إليها مثيرة، من الرائع أن تكتشف مكانًا بعد الستين لم يزره إلا عدد قليل من البشر، وصلنا إلى هناك فى مايو، كان الطقس معتدلًا بديعًا، درجة الحرارة لا تتجاوز العشرين درجة، هواء نقى منعش، أخذنا جولة سريعة على الجزيرة التى لا تتجاوز مساحتها ثلاثين كيلو مترًا، كما علمت يعود تاريخ هذه الجزيرة للقرن الرابع عشر حين هاجر إليها بعض البحارة من الجزر الشمالية، عاشوا عليها قبل أن يختفوا لظروف غامضة لتعود الجزيرة مهجورة من جديد، ثم وصل إليها بعض البحارة فى القرن الثامن عشر، ومع بدايات القرن العشرين تم ضمها للجزر التابعة لأستراليا، تعتبر الجزيرة آمنة تمامًا وأهلها مسالمين للغاية لم يقع بها سوى جريمة قتل واحدة فى أواخر القرن التاسع عشر، وكانت هذه أول وآخر جريمة على سطح هذه الجزيرة، جميع أهل الجزيرة يتحدثون اللغة الإنجليزية وهى لغة المهاجرين الأوائل كما أنه يوجد لغة محلية لا يفهمها إلا سكان الجزيرة، العملة الأسترالية هى المتداولة والتى يتم استخدامها فى التجارة، عدد كبير من السكان لم يغادر الجزيرة أبدًا والعدد الأخر لم يغادر إلا لزيارة أستراليا، أو إحدى الجزر القريبة، ولم يذهبوا أبدًا لأبعد من ذلك، تعانى الجزيرة وأهلها من عدم وجود إمكانيات طبية معقولة، لذا فالحالات الحرجة من المرضى تواجه الموت، والأمراض المعتادة تسبب ألمًا لا يحتمل إلا لو تمكنت من الانتقال إلى أستراليا ويعتبر ذلك أمرًا مكلفًا للغاية مقارنة بإمكانياتهم، يعتبر الطقس هنا مثالى، فلا تقل الحرارة عن عشر درجات ولا تزيد عن ست وعشرين درجة، عدد السكان هنا لا يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة، يعتمدون على الزراعة والصيد كموردى رزق، أغلب

أرض الجزيرة صالحة للزراعة حتى المرتفع منها، أما ساحلها فلا يستحب السباحة فيه إلا فى مناطق قليلة نسبيًا آمنة بدرجة كبيرة، يمكن القول إنى فتنت بها، هى ليست أجمل ما رأت عينى ولكن استقلاليتها مدهشة، هدوءها ونقاء أهلها وحفاظهم على استقلالية حكمهم راق لى كثيرًا، لاحظت وجود قطع صغيرة من الأراضى القاحلة بغير زراعة أو مبانٍ، مهجورة تمامًا، ربما أرض غير صالحة، بعد انتهاء جولتى بمساعدة توماس، طلبت لقاء الحاكم المسئول عن الجزيرة، اندهشوا من طلبى هذا ولكنى أصريت بلطف، بعد تناول الغداء والذى كان عبارة عن وجبة أسماك فاخرة لذيذة المذاق، انتظرته لمدة ساعتين، اسمه بيكوى، ذهبت إلى منزله وحيدًا، كان منزلًا واسعًا بسيطًا لا يخلو من أناقة مكون من طابق واحد تحيط به من الخارج حديقة صغيرة وسور قصير لا يتجاز المترين، الأرضية مغطاة بسجاد يدوى الصنع، والأثاثات أغلبها خشبية مطعمة بالزخارف يوجد فى أحد الأركان انتريه يبدو عليه القدم ولكنه يحتفظ برونقه، وصل إلى الرجل وحيانى بابتسامة ودودة، يقاربنى فى السن، غير أن شعره الأبيض الناعم يغطى رأسه ويديه تبدو عليها الخشونة، هل مازال الرجل يمارس أعمال الزراعة؟ لا أدرى، قامته مستقيمة طويل بعض الشىء ويتمتع بوافر من الصحة كما يبدو، عيناه ثابتتان حادتان تطلقان نظرات نافذة، المنزل بلا حراس أو خدم إلا من رجل عجوز قام بإحضار كوب من العصير، حتى الآن لا أعرف من أى فاكهة صُنع ولكنه ذو طعم خاص لم أتذوق مثله من قبل، بعد التحية قادنى الرجل بنفسه إلى غرفة مليئة بالوسائد الوثيرة موضوعة على الأرض لتشكل مستطيلًا كبيرًا، هل تتم اجتماعاتهم هنا؟ كم هو بسيط الحال هنا بلا تكلف.

طلب الرجل منى الجلوس فجلست ثم اتكأ أمامى هو الآخر، ونظرة تساؤل مستقرة فى عينيه، أعلم أهمية هذا اللقاء الذى ربما لا تأتى الفرصة لتكراره، لذا حرصت أن يكون كلامى واضحًا مباشرًا:

– لقد شاهدت الجزيرة وراقت لى كثيرًا وعلمت بأمورة عدة، جعلت رأسى تعمل لتقديم اقتراح أرجو أن ينال قبولك

– بالتأكيد يسعدنا ذلك

– علمت أن الخدمات الطبية هنا شبه معدومة، عدد قليل من المنتجات التى تصل إلى هنا، والباقى ربما لم تسمعون عنه، هذه الجزيرة تستحق ما هو أفضل من ذلك

– أهل الجزيرة قانعون ولكن هل لديك مقترح لتحسين هذا الأمر؟

– نقل كل المرضى لأقرب مستشفى حديث لتلقى العلاج اللازم والعودة عقب الشفاء، كما أنى لدى أسطول من السفن، يمكن تخصيص إحداها للمعاملات التجارية للجزيرة، بجانب عدد من القوارب، ربما سيزيد تجارتكم فاعلية ويعود بالنفع على السكان.

كان الرجل ذكيًا، فصمت قليلًا ثم سألنى:

– أنت تريد المساعدة كما هو واضح ولكن ما المقابل لذلك؟

كان ذكيًا مباشرًا دون لف أو دوران، لذا قلت فورًا

– أريد قطعة صغيرة من الأرض على سطح الجزيرة

بدون تردد وباقتضاب :

– لا يوجد أراضى هنا قد تفيدك، الأراضى الصالحة للزراعة لا نفرط فيها

يبدو أنه ظن أنى أريد الاستثمار على هذه الجزيرة

- لا أشترط أرضًا بعينها، أى قطعة أرض لا يتم استخدامها ولا تناسبكم فستكون مناسبة لى شخصيًا وسأدفع أى مبلغ تطلبه.

- لا أفهم حاجتك إليها ولكنى لا أريد أن أخدعك، هناك قطعة أرض فى شرق الجزيرة، مساحتها ليست كبيرة ولكنها لن تفيدك بشىء.

- لا تقلق، سأحسن استغلالها دون ضرر بالجزيرة وأهلها.

- وما وعدت به؟

- أنا رجل يفى بكلمته ويمكن نقل أى مريض لديكم من الغد.

مادمت تملك المال فلا شىء قادر على إيقافك، فقط عليك الإصرار وستحصل على ما تريد مهما بدا عجيبًا غريبًا، وهكذا حصلت على قطعة أرض بعيدة كل البعد عن عيون العالم، تعاقدت مع أحد الاستشاريين المعماريين وعدد قليل من الرجال نالوا أضعاف ما يمكن أن يتقاضوه فى أى مكان آخر وذلك لسرعة بناء الكولوسيوم الخاص بمدرجى الجديد، حلم جديد سيتحقق على أرض بِكر لم يلوثها شرور البشر، ولكنى سأجعل ساحة القتال الخاصة به مقرًا للنيل من فُجارهم، الويل الويل لمن ينسى نفسه، لمن سيتخلى عن إنسانيته، لمن يستقوى ويظن أنه لا عقاب، هنا سيرقصون من العذاب، سيتلوون من الوجع، سيذوقون ما سببوه من شقاء، سيظمأون حتى الهلاك ولكنهم لن يشربوا إلا دماءهم وسيندمون حتى الموت، كل منهم سلك طريقًا يقود للهلاك، فلا خلاص سوى أن يسد لنفسه معروفًا ويموت بسرعة، لأنهم كما تخلوا عن الرحمة فى الأفعال فسنفقد اللطف فى ردود الأفعال.

كانت الأسئلة الفضولية كثيرة وكانت إجاباتى واهية، سأجعل من المكان مزارًا سياحيًا جديدًا، سيتم تصوير عملًا دراميًا، بالتأكيد يمكن تصديق كل ما أزعم، فمن سيتصور أنى سأعيد التاريخ ولكن وفقًا لمنطق جديد، مدرج رومانى فى العصر الحديث سيشهد أسوأ عقاب لأسوأ من أنجبتهم البشرية، تخيل معى لو أن فكرتى قائمة من قديم الأزل، تخيل لو جعلنا هتلر يقاتل ستالين، وهانيبال ليكتر يقابل وحش الإنديز بيدرو لوبيز، ماذا لو التقى جاك السفاح وجزار روستوف داخل حلبة قتال، نريدهم أن يمارسوا وحشيتهم مع من يستحقها وسنبتهج إذا ما مورست وحشية مماثلة تجاههم، تلك هى العدالة والمتعة معًا، فى اعتقادى أن ذلك سيحد من القسوة تمامًا وأنت ترى مصيرك القابع بانتظارك، تخيل لو أطلعناك على جهنم، لو سقناك إليها لترى المعذبين فيها ممن سبقوك من المذنبين، لو رأيت حجم الألم والمعاناة، لو تصورت الندم الذى يشعرون به، أظنك ستتعظ وستفكر ألف مرة قبل الاستهانة بالآخرين، قبل أن تقتل قبل أن تحرق، قبل أن تدمر، لم يرتدعوا أبدًا بما أخبرهم به دانتى عن الجحيم، فلا مانع من زيارة له بلا عودة لتجسيد الصورة بشكل أوضح. هذا هو ما أسعى إليه.

بالتأكيد لن يكون المدرج الحديث بحجم مدرج روما القديم نظرًا لصغر مساحة الأرض التى حصلت عليها، فالمدرج القديم يتسع لما يقرب من ثمانين ألف متفرج وطول القسم الداخلى لأرضيته حوالى 80 مترًا وعرضه 48 مترًا ويتجاوز ارتفاعه 50 مترًا ، لذا سيتم اختصار هذه الأبعاد إلى النصف أما الارتفاع فسيظل كما هو أو يقل قليلًا، أما المدرج نفسه فسنكتفى ليتسع لبضعة آلاف.

سنستعيد أجواء روما القديمة، وسيصير الكولوسيوم الجديد هو مصير القتلة والسفاحين، لا أسرى، لا فرسان لا جنود رومان، لا ظلم.

يمكن القول بأن عملية البناء تمت تحت سمع وبصر أهل الجزيرة وأولهم بيكوى الحاكم، لا أدرى إن كانت لديهم معلومات بشأن المدرج الرومانى، ولكنهم فى أغلب الظن لا يعرفونه ولم يسمعوا عنه حتى، ولكنهم لم يكفوا عن إبداء انبهارهم بما صار عليه المبنى، بالطبع كانوا شاكرين لتحسن الأحوال الصحية للمرضى منهم، وإمعانًا فى المساعدة أكثر وتقديرًا لدورهم فى تحقيق حلم رجل عجوز قمت بإنشاء صيدلية كبيرة واسعة تحوى جميع أنواع الدواء لمختلف الأمراض التى يعانوا منها والتى لم يشتكوا منها من قبل تحسبًا لأى ظروف، على أن تُصرف الأدوية بالمجان وفقًا لما تقتضيه الحاجة.

وفى شهر أغسطس من عام 2000دعوت أخى وولديه لعرض تحفتى المعمارية الجديدة عليهم ليخطو خطواتهم الأولى على سطح الجزيرة، مهما أطلقوا العنان لخيالهم لن يتمكنوا من محاولة تخمين تلك المفاجآة، كولوسيوم جديد على سطح جزيرة منعزلة عن العالم يسكنها عدد محدود من البشر، تواصلهم بالعالم قاصر جدًّا اعتمادًا على بعض السفن والقوارب، يقف مبنى الكولوسيوم على منصة مرتفعة فوق المنطقة المحيطة به والمكونة من الحجر الجيرى، أساس المبنى مكون من عدد كبير من حجر الطف، ويصف فى خارج البناء سور من الطوب، تتكون دعائم الهيكل من كتل أعمدة من الحجر الحجيرى متصلة بواسطة قضبان معدنية. محيط المبنى على شكل دائرة يصل قطرها إلى 40 مترًا،

المبنى المواجه للمدرج والذى يتوسطها الساحة مؤلف من ثلاثة طوابق يحمل الطابق الأول أعمدة من النوع الدورى أبسط وأقدم نوع من الأعمدة ويليه طابق تحمله أعمدة أودبابيس من النوع الأيونى والتى تسمى كذلك نسبة إلى مدينة أيونيا اليونانية ثم يليها الطابق الثالث الذى تحمله أعمدة من النوع الكورنثى نسبة إلى مدينة كورنت التى اشتهرت قديمًا بالترف وتزدان تيجان أعمدته بزخارف تشبع أوراق الأشجار، مع تأطير أقواس كل من الأروقة المعمدة فى الطابقين الثانى والثالث بعدد من التماثيل، كان للمدرج خمسة عشر مدخلًا متجاورين على شكل دائرى من الخارج على غرار ملاعب المدن الرياضية الحديثة، أما الجزء الداخلى فيتكون من ثلاثة أقسام، القسم الأول هو المسرح المدور مكان التنافس والذى يمكن التحكم فى أرضيته بشكل كامل يحده سور من قضبان معدنية فى منتصفها يوجد باب مكونة هيئته من هذه القضبان، وهذا السور يمكن رفعه أو خفضه لأسفل الساحة حتى يتلاشى على السطح وذلك بواسطة روافع تعمل بمساعدة عدد من التروس والآلات تعمل بشكل أوتوماتيكى عقب الضغط على مجموعة من الأزرار، أما القسم الثانى فهو المنصة وهى الخاصة بى وبمن سيصحبنى من الضيوف فى حالة تواجدهم، تحتوى المنصة على مقصورة تتوسط المدرج ويمكن القول بأنه لن يتم الاستفادة منها لأن الحضور سيكونون من أهل الجزيرة، لا حكام أو أمراء أو فرسان ليشغلوها كما كان يحدث قديمًا، على يمين ويسار المقصورة يوجد القسم الثالث مدرج حجرى لمقاعد المشاهدين، على يمينها يوجد سارى طويل، أعلاه ستعلق لافتة على حامل تحمل معنى ما لم أستقر عليه بعد، بين اللافتة والحامل ستوضع كاميرتان مسلطتان

على الساحة والمدرج، متصلتين بواحدة من الغرف المغلقة لعرضها على شاشات كبيرة، لا أدرى إن كنت سأستخدم هذه الغرفة يومًا ما مع الشاشات أم سأكتفى بالمشاهدة لجولات القتال من المنصة، الأبواب الخارجية للمدرج تقود إلى درج مؤدى إلى عدد من الممرات حتى تنتهى إلى المقاعد فى المدرج. بات المبنى الخاص بى قريبًا من المدرج الأصلى وإن كان أقل حجمًا وأصغر مساحة ولكن روعى استخدام نفس المواد المستخدمة فى بناء المدرج الأصلى.

أرى نظرات الافتنان تفر من أعينهم جميعًا، معجزة جديدة اختصيتهم وحدهم للاطلاع عليها،

قال اليسّاندرو فى حبور:

- مئات وآلاف سيتحرقون شوقًا لرؤية هذا المدرج العظيم، هذه الجزيرة ستصير واحدة من أهم وأفضل المزارات، ستستقطب عددًا كبيرًا من السياح، مدهش روبيرتو، يا لك من عبقرى!

ثم قال ماركو:

- عمى يثبت من جديد قدرته على تحويل التراب إلى ذهب.

أما تونى فظل صامتًا، عيناه تدور فى المكان فى كل ركن، يلمس بيديه كل جدار، كل حجر، يطوف حول المكان من الداخل والخارج وأنا أراقبه، حتى انحنى على الأرض ولامسها، ورفع بعض من حبات الرمال وهو يتبادل نظرات الإعجاب مع أخيه ووالده ثم طرح علي أسئلته:

- كم من الوقت استغرق بناؤه يا عمى؟

- ستة شهور، لقد واجهنا صعوبة فى نقل كافة مستلزمات البناء ولكن فى النهاية تم الأمر.

رفع حاجبيه تعبيرًا عن دهشته من قصر المدة التى استغرقتها هذه التحفة، ثم طرح السؤال الأهم والذى لم يدهشنى كثيرًا لأنى أعرف فراسته جيدًا:

- لا أظن أنك ستستخدمه لدعم أعمالك السياحية؟ أليس كذلك؟

- يعجبنى ذكاؤك تونى، بالفعل ليس الهدف منه جلب السياح إلى هذه الجزيرة فى أقصى الأرض، تكلفة الرحلة للوصول إلى هنا باهظة جدًا، عدد قليل من السياح يمكنه تحمل تلك التكاليف.

فقاطعنا اليسّاندرو :

- وإذا لم نستفد منه، فما الداعى لبنائه، لكى نحملق فى جدرانه وأحجاره وحدنا؟

- ومن قال إنه لن يستفاد منه يا أبى؟

لوهلة شعرت بأن تونى يقرأ ما بداخلى وكأنه كان على علم مسبق به رغم تيقنى من استحالة ذلك، ومع هذا ترك لى الإجابة على سؤال والده المباشر:

- لماذا الكولوسيوم دونًا عن غيره؟ لماذا هنا تحديدًا، بعيدًا عن أنظار العالم، ربما لو تم بناؤه فى مكان أقرب لجلب لنا ملايين الأموال من كل صوب؟

- لأنى سأعيد التاريخ من جديد أليسّاندرو، لن يستخدم إلا كما استخدم المبنى الأصلى، ساحة للقتال.

لمعت عينا تونى مع كلماتى انبهارًا بينما ماركو يشارك والده الذهول، فغمغمت بهدوء:

- لدينا مؤسسة تطارد المجرمين وتفتك بهم وتصفيهم في الحال كأي فرد في العالم، هؤلاء لا يستحقون موت سريع عاجل، هؤلاء يستحقون الشرب من نفس الكأس، وهذا هو الكأس.

- هذا أكثر من اللازم يا أخي، لم يعد العالم كما تظن، الأقمار الصناعية يمكنها أن تصل لأي مكان بالعالم، من الصعب إبقاء الأمر سرًا لفترة كبيرة، ونحن نعاني لتيسير أمور منظمتنا، لماذا تحمل نفسك أكثر من اللازم وتزيد الأعباء على الجميع؟

كان يقول كلماته بانفعال واضح، جعلني أشفق عليه حقيقة كعادتي معه خاصة وأنا أرى شعره الأشيب، وقامته المنحنية، كيف لم ألحظ ذلك من قبل، لقد هرم الطفل الصغير الذي كنت أخاف عليه ومازلت أنا كما كنت دائمًا مشفقًا عليه ولكني برغم ذلك لم أكن على استعداد لسماع أي معارضة حتى لو كانت من أليسّاندرو.

- يبدو أنك لم تسمعني جيدًا أليسّاندرو، هذا المكان مستقل تمامًا، لا سلطان على الجزيرة إلا لأهلها وقد عقدت اتفاقي معهم، سنستكمل أنشطتنا كما اعتدنا، فقط المجرمين الذين سنتمكن من الحصول عليهم أحياء، سنأتي بهم إلى هنا، يومًا ما حين يستخدم البشر عقولهم على النحو الأمثل سيفهمون أن هذه هي الطريقة المثلى للحد من العنف، أن يرى المجرم مصيره، لا رحمة مع من لا يستحقها.

- أتفق معك تمامًا عمي، ولا تقلق أبي ستسير الأمور دومًا في هدوء.

كانت الجملة الأخيرة من توني والتي لم تثني أباه عن رأيه،

ولكنهـا زادتنـى إصرارًا، كان تونـى متحمسًـا لـكل تفصيلـة تخـص المبنـى، اصطحبتـه لـيرى الثكنـات السـفلية التـى سـتأوى المجرمـين ومجموعـة الأقفـاص والزنازيـن التـى سـيبقون بهـا حتـى تحـين مواجهتهـم، ثـم شرحـت لـه عمـل آلات الرفـع والبكـرات والدعائـم التـى تحيـط بالسـاحة الداخليـة، والتـى سـترفع المجرمـين المتواجديـن داخـل أقفـاص مـن أسـفل الأرض الخشـبية المغطـاة بالرمـال إلى سـطح السـاحة، كيـف سـيتم فتـح الأبـواب وغلقهـا عقـب دخـول المجرمـين كان منصتًـا فى تركيـز وقـد وعـى كل كلمـة قلتهـا وحفظهـا عـن ظهـر قلـب. مررنـا بغرفـة أسـفل المبنـى بابهـا مصفـح، لم يسـأل ولم أعلـق عـلى سـبب غلقهـا أو كنـه مـا تحتويـه، فقـط احتفظـت بالنسـخة الوحيـدة لمفتاحهـا معـى، وبذلـك لـن يقـدر أحـد عـلى دخولهـا إلا بمصاحبتـى أو بإذنـى. إنهـا الغرفـة التـى تحتـوى عـلى الشاشـات وتعـرض مـا تصـوره الكاميرتـان المخفيتـان أسـفل اللافتـة.

عقـب مغادرتهـم وجـدت السـيد بيكـوى يطلـب لقائـى، ذهبـت إليـه، قابلنـى بحـرارة وأبـدى إعجابـه بـما تـم بنـاؤه وحـين سـألنى عـن أوجـه اسـتخدامه، شرحـت لـه مـا يـدور بالخـارج مـن جـرم وقسـوة، وأن هـذا المـدرج ليـس سـوى وسـيلة للانتقـام ليعتـبر كل مجـرم قبـل الإقـدام عـلى ارتـكاب جريمتـه، أبـدى تخوفـه مـن انزعـاج أهـل الجزيرة مـن مثـل هـذه الممارسـات، فوضحـت لـه وجهـة نظـرى بأنهم سـيكونون الجماهـير التـى تـرى وتحـضر هـذه المواجهـات إذا لم يمانعوا فى ذلـك، إنهم الأنقيـاء ومشـاهدة هـذه المواجهـات سترسـخ قناعاتهـم وتزيـد تمسكهم بالسـلام والمسـالمة تجنبًـا لمواجهـات كهـذه، لم يقتنـع تمامًـا ولكنـه باغتنـى بسـؤال لم أتوقعـه:

- ماذا لو أصاب أهل الجزيرة ضررًا جراء ذلك المبنى وما يدور بداخله؟

- سأغادرها على الفور، فى حالة شكواكم

اطمأن قليلًا ليباغتنى بسؤال آخر

- هل أنتم فى حاجة إلى عمال أو حراس لهذا المبنى؟

- بالتأكيد نحتاج لعدد كبير منهم

- حسنًا، هل يمكن أن ينضم ولدى أندرو للعمل فى هذا المبنى؟

- بالطبع مستر بيكوى هذا مفيد جدًا

وبالفعل عقب فترة من التدريب استمرت قرابة شهرين، بدأ أندرو فى الإلمام بكل الأمور الظاهرية الخاصة بالمدرج، كان ودودًا طيبًا مطيعًا، قطعة طرية من العجين يمكن تشكيلها كما شئت، رابط الجأش ملامحه هادئة ووجهه يوحى بالثقة، قامته متوسطة الطول وبشرته بيضاء شفافة يبدو أنه ورثها عن والدته التى لم أراها هى أو أى من نساء الجزيرة، كان أكثر من مجرد حارس للمبنى، صار مشرفًا عليه إشرافًا كليًا ومسئولًا عنه كما صار مرافقًا لى فى كل مكان فى الجزيرة، وأصبح المسئول أيضًا عن منزلى الصغير القريب إلى حد ما من المبنى يشرف على تنظيفه وزراعة الحديقة الصغيرة التى تحيط به وإمدادى بكل ما أرغب، كان المنزل مكون من طابقين فقط، الأرضى والأول فقط، بالأسفل بهو واسع به أنتريه مريح وعدد من الكراسى بجانب غرفة بسيطة للسفرة ومتعلقاتها، وغرفة لإعداد الطعام، وغرفة للمكتب

وتصلح لاجتماعات صغيرة أغلبها سيكون مع أخى أو ولديه أو حراس المبنى، وفى الطابق الثانى ثلاثة غرف واسعة للنوم ملحق بكل منها حمام خاص.

قام تونى باستئجار عدد من الحراس الأقوياء الغلاظ الموثوق بهم، وتم تدريبهم على كافة الخطوات بدءًا من نقل السجناء من القوارب إلى وضعهم فى محبسهم مرورًا باستخدام الروافع وفتح الأبواب وكل ما يلزم معرفته لتنفيذ عروض القتال بدقة واحترافية، بجانب تدعيمهم بأسلحة نارية مدربين على استخدامها بمهارة وقت اللزوم بالتسديد على قدم وساق أى قاتل يبدى مقاومة، كان أندرو سريع التعلم كذلك، لكنه لم يوكل إليه مهمة حمل سلاح أو التدريب على استخدامه ولكنه بدافع الفضول شارك معهم، وتم الاتفاق مع السيد بيكوى بحضور أهل الجزيرة لهذه العروض، حتمًا سيجدون فيها كثيرًا من المتعة والإثارة، حقيقةً لن أجد جمهورًا مثاليًا أكثر من هؤلاء الذين لم يرتكبوا فاحشة واحدة يومًا ما، ربما أكثر ذنبًا ارتكبوه كذبة جالت بخاطر أحدهم ربما أجاد نسج خيوطها ولم تكتشف بعد، حضورهم لهذه العروض سيغرس بداخلهم خوف أبدى من ارتكاب جريمة واحدة، هكذا يجب أن ينشأ الجميع، يشبون على قواعد ثابتة للعدل لا تعرف واسطة أو محسوبية، لا تفرق بين فرد وآخر، تطبق قوانينها على الجميع بحزم وصرامة، خبرة كهذه ستجعلك تفكر ألف مرة قبل الشروع فى ارتكاب جريمة وإلا عليك قتل نفسك بعدها تفاديًا لهذا العقاب.

وفى أواخر عام 2000 تم إقامة أول منافسات قتالية بين

مجموعـة متنوعـة شـديدة الإجـرام مـن المذنبـين، قتلة، مجرمـى حرب، سـفاحين، تجـار بـشر، تجـار أعضـاء، منتهكـى أعـراض، متطرفـين لا يتورعـون عـن سـفك الـدم.

كوكبـة قـد لا تجتمـع حتـى فى أشـهر السـجون خطـورة وأكثرهـا دمويـة، العديـد منهـم حتـى وإن أُتُهِـم بجريمـة فعـادة مـا ينفـذ مـن ثغـرة مـا فى القانـون فيفـر مـن إعـدام مسـتحق، أمـا هنـا فـلا فـرار.

بـدأت الفاعليـات بحضـورى وحضـور أبنـاء أخـى بجانـب عـدد مـن أهـل الجزيـرة، لم يمـلأوا نصـف المقاعـد ولكنـه كان كافيًـا لإثـارة الحـماس وإلهـاب المعركـة بـين طرفـين مسـتحقين للهـلاك، بينـما تغيـب أخـى الـذى ظـل معارضًـا تمامًـا للفكـرة بأكملهـا.

نشـوة اعترتنـى وأنـا أشـاهد دمـاء تتناثـر وصرخـات متأوهـة، وعظـام تُكسر وأعضـاء تبـتر، لقـد بـرع تونـى فى إضفـاء وحشـية عـلى القتـال بأفـكار عـدة، هنـاك جـولات يتـم فيهـا القتـال وكلا المتصارعـين معصـوب العينـين، أو مربـوط القدمـين، أو مقيـدة يـداه ، أو يمنـح كل متصـارع سـيف أو خنجـر، وكان ينتشـى أثنـاء العـرض وكأنـه حاكـم رومانـى يتلـذذ بتعذيـب أسراه، جنـون مـا ألمحـه فى نظـرات عينيـه المفتونـة، لا أنكـر أنـى أملـك وميضًـا منـه، لكـن تونـى جُـن بالكامـل وتعلـق باللعبـة التـى منحهـا لـه العـم روبيرتـو.

ومـع اسـتمرار القتـال وتسـاقط القتـلى واحـدًا تلـو الآخـر لم تأخذنـى شـفقة بهـم، جرائمهـم أمامـى حـاضرة لا تفـارق ذاكرتـى وكلـما خالجنـى شـعور بسـادية خفيـة تنمـو بداخـلى تذكـرت سـيلفيا وآخريـن راحـوا دون أن ينـال الجنـاة ولـو ضربـة بعصـا عـلى راحـة

اليد كما أنى لم ألمح أبدًا نظرة ندم فى عين مجرم واحد من المتقاتلين داخل الساحة، جميعهم يحمل نفس النظرات المتوعدة الشرسة التى لا تبث إلا تهديدات مسمومة، ماتت قلوبهم ودفنت ولا سبيل لإحيائها، كل ما علينا إلحاق هذه الأجساد بقلوب ميتة فى العالم الآخر بأسوأ طريقة ممكنة.

لاحقًا لم أتمكن من متابعة كل الجولات القتالية التى تدور على سطح الجزيرة ولكنى بين الحين والآخر أكتفى بزيارة أتابع معها سير العمل فى تحفتى التاريخية المعمارية، بمجرد وصولى اصطحب أندرو، يروى لى كل ما دار أثناء عدم وجودى ويمنحنى صورة كاملة عن أوضاع الكولوسيوم بجانب تلك التى كنت أحصل عليها من تونى وماركو فى لقاءاتنا بإيطاليا أو خارجها، كانا الأخان يديران المؤسسة وفروعها بإخلاص فى ظل متابعة بعيدة منى وانحسار دور اليسّاندرو رويدًا رويدًا، فى عمرٍ كعمرى وعمره يجنح المرء للهدوء والعزلة والبعد عن كل السخافات التى تحيط بعالم يحاول التظاهر بالتحضر، بينما تكون أنت كونت فكرة بالفعل عن مدى قذارته وتفاهته.

فى عام 2005 ساءت حالة اليسّاندرو الصحية نتيجة لمشاكل قلبية، كان بحاجة لتركيب دعامات وتغيير شرايين، أخى الصغير يعانى ومازلت أرتجف من فكرة أن يصيبه سوء.

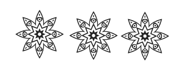
كنت بجواره دائمًا، لابد أن وجودى بجانبه يعنى له شيئًا مثلما كان دومًا يعنى لى وجوده، فى واقع الأمر لا أجد غضاضة أبدًا فى الاعتراف بأن الملياردير روبيرتو روسّي الذى يأمر فيطاع، يشتهى

فينـول، يحلـم فينفـذ، يشـير بأصبعـه فينتفـض مـن حولـه لتلبيـة رغبتـه فى سرعـة وإتقـان، هـذا الرجـل الـذى هـو أنـا ليـس لـه سـوى نقطـة ضعـف واحـدة ترقـد فى وهـن فى واحـدة مـن كبريـات مستشـفيات أوروبـا، يتلقـى علاجًـا لا أحـد يـدرى إلى أى مـدى قـد ينقـذه مـن المـوت، ثلاثـة أسـابيع فى المستشـفى واليسّـاندرو فى غيبوبـة مخيفـة، لا يجـد لهـا الأطبـاء تفسـيرًا واضحًـا، حتـى اسـتفاق ذات يـوم وتمكـن مـن الابتسـام لنـا، ابتسـامة خافتـة شـاكرة ممتنـة لوجودنـا جـواره، وفى الحقيقـة أنـا الأكثـر امتنانًـا منـه لوجـوده فى حياتـى، اليسّـاندرو هـو الـذى يجعلنـى أتمسـك بـأن تصـير الحيـاة أفضـل مـن أجـل هـؤلاء الذيـن فقـط أرادوا أن يعيشـوا دون أن يسـببوا قـط ألمًـا لغيرهـم.

لا أدرى إن كان قاسـيًا هـذا الاعـتراف الـذى أنـا بصـدده الآن، ولكـن يتعـين عـليّ قولـه، بأنـى رغـم كرهـى لهـذه الحيـاة فعينـى لم تذرف دمعـة واحـدة منـذ مقتـل سـيلفيا وطـوال نصـف قـرن حتـى جـاء اليـوم الـذى تلقيـت فيـه نبـأ وفـاة اليسّـاندرو فى أواخـر عـام 2006، عقـب هـذه المكالمـة عـدت طفـلًا صغـيرًا ينفجـر فى البـكاء دون توقـف، أنهـار الدمـوع المتجمـدة فى عينـى سـالت جميعهـا دفعـة واحـدة محدثـة طوفانًـا لا شـىء قـادر عـلى إيقافـه، رحـل أخـى فى هـدوء مثلـما عـاش فى سـلام، وتركنـى وحيـدًا بانتظـار رسـول المـوت ليلحقنـى بـه. لا أعلـم لمـاذا تأخـر هكـذا، لقـد انتظرتـه طويـلًا مـن قبـل، ومـرت عـليّ أوقـات عديـدة أتمنـاه ليريحنـى مـن هـذا العـالم، عـلى مـا أظـن يريـد المـوت أن يباغتنـى كعادتـه ليضحـك عقـب قبـض روحـى ويبلغنـى بالخـبر مبتسـمًا «مبـارك أنـت الآن ميـت، مـا رأيـك بهـذه المفاجـأة؟» فكـرت فى تلـك

الجملة هل يأتى الموت لقبض الروح مباركًا أم معزيًا؟ هذا يتوقف على موقفه منك، هل جاء كمنقذ لك أم ليخلص العالم منك؟ يقينى بأنه سينقذنى، لقد سئمت مبكرًا جدًا من هذا العالم.

وددت دومًا الاستقالة من هذه الحياة. لم أعد أريد أن أكون، ولم أعد قادرًا على أن أكون ، كنت أجبن من ذلك. حاولت دومًا تغيير العالم للأفضل ولكنه صار أسوأ من أن يمكن تغييره ، سيبقى هكذا حتى يفنى وهو فى أسوأ حال.



«مراوغة هى الحياة ومخادعة دائمًا وعصية الفهم غالبًا ففى أحلك ظروفك تعطيك فرصة للانتقام حتى لتبدو وكأنك قد نلت حقك وتحققت عدالة مزعومة..»

(22)

عاصم - الجزيرة

أبريل 2015

مر أسبوعان على وجود عاصم على سطح هذه الجزيرة وأربعة أيام على المواجهة الأولى وعاصم فى زنزانته يواسى نفسه بذكريات قديمة أسعفه فيها الحظ بشكل لم يتخيله، ولكن ها هنا يبدو المكان بلا ثغرات ينفذ منها الرجاء جالبًا معه الأمل، حتى الحظ لم يعرف لهذه الجزيرة عنوانًا فسقطت من ذاكرته سهوًا، وحدها براعته فى القتال فى مواجهات غير معتادة يشوبها لذة فى الإذلال وإمعان فى التعذيب هى ما تضمن له أيامًا أخرى من بقايا حياة بائسة، لذته الأولى هنا هو النوم واللذة الثانية نسمات هواء تحمل رائحة المحيط يملأ صدره بها فتمنحه شعورًا مفقودًا بحرية متوهمة، لم يندم على جريمته التى قادته إلى هنا أبدًا ولو تكررت نفس الأحداث لقام بنفس رد الفعل، لذا لا تأنيب ضمير يعتريه أو شعور بالندم يسيطر عليه، فقط دهشة وسخرية من التحولات التى شهدتها حياته.

مستسلم هو لقدره ولا حيلة له داخل هذه الزنزانة، بانتظار

جولة جديدة تعيده إلى الساحة، لم يطل انتظاره، فمع دخول الحارس نهارًا لوضع الماء الذى يتلقاه بشفاه جافة، والطعام الذى لا يشتهيه أخبره بأن هناك فى الغد لقاء جديد له، تحدٍ أخر عليه أن يجتازه إن أراد الحياة، لم يبدِ عاصم أى رد فعل تجاه الخبر سوى سؤال وجهه للحارس بدافع الفضول

«ما هى جريمته؟»

نظر له الحارس من خلف اللثام مترددًا أيجيب أم لا، بعد ثوان تخلى عن جموده

«قاتل، مات بسببه مئات وربما آلاف، فى جولته السابقة ضد منافسه أخرج عينى غريمه من محجريهما، وهو مشهد لا أود مشاهدته ثانية على أية حال» ألقى جملته ثم انصرف، إجابته أعقبها سؤال لم يُتح له الوقت ليُطرح ولكنه برق فى ذهن عاصم «ما هى جنسيته هذا الذى قتل المئات والآلاف؟»

فى واقع الأمر إجابة هذا السؤال لن تشكل فارقًا سواء كان أمريكيًا أوروبيًا أفريقيًا هو فقط قاتل يبغى قتله، ولكنه استنبط دعمًا ولو قليلًا من الحارس حتى لا يسمح بتكرار هذا المشهد، ومن رحم سؤاله الأول توالدت أسئلة أخرى «لماذا لم يخبره تونى كما فعل فى المرة الأولى؟ أشعر بصبيانية ما فعله فى المرة السابقة؟ أم تيقن من حسم النتيجة لصالح خصمه غدًا؟ أم خاب أمله من اللقاء الأول فلم يبالغ فى التحدى بنفسه وترك الأمر للمواجهة نفسها غدًا تفصل بين رغبته فى موتى وما ستؤول إليه المواجهة؟»

فى هذه الليلة لم يغمض لعاصم جفن، جلس مستندًا على الجدار الجانبى للقفص فى محبسه شاردًا فى فتحة الجدار العلوية وكأنه يحصى

الدقائق والساعات التى تفصله عن لقاء الغد، ومع هبوب نسمات الفجر، سرت قشعريرة فى جسده ولامست روحه نفسها لدرجة أشعرته بالوهن، خدر يسرى فى أوصاله مع انسحاب الليل، لاحت له بواكير الصباح قبل أن يسقط فى نومة طال انتظاره لها، لم يفق منها إلا مع وقع خطوات الحراس قادمين من الخارج، حينها نظر لأعلى فبدى له النهار ساطعًا «كم هى الساعة؟» سؤال طرح تلقائيًا فى ذهنه ولكنه لم يبالى بالإجابة، دخل الرجلان قفصه واقتاداه من جديد فى الرواق ثم الممر، الشمس تتسلل لأنحاء المكان عبر فتحات صغيرة فى الجدار لا ترقى لأن تكون شبابيك، لاحظ أنه لا أقنعة اليوم، راق له ذلك، ومع اقترابه من الساحة ترامى لمسامعه أصوات جماهيرية بالخارج، وحين وصل إلى الباب كانت الشمس تنظر لعينه مباشرة مما سبب له ألمًا بسيطًا قبل أن يدارى أشعتها بكفيه، بينما الحارسان يدفعانه، رأى بوضوح الساحة والسور الحديدى والمدرج الحجرى الذى امتلأ بالحضور، مواجهة نهارية تحت ضوء شمس غابت عنه كثيرًا، ولا يعلم أسيلقاها ثانية أم لا، أفضل له بكثير من مواجهته السابقة، دلف إلى الساحة وهو يدير بصره فى الأنحاء، فى مواجهة الباب الذى قدم منه تبدو مجموعة مقاعد فى المدرج أفضل من جاراتها تشبه المقصورات فى الإستاد ولكنها أصغر بالطبع، يشغلها مجموعة من الرجال ذوى ملابس أنيقة نوعًا جميعهم من البيض، لم يميز أحدهم ولكن يبدو عليهم الإثارة، من هم؟ هل هم من أهل الجزيرة؟ هل حضروا مواجهته الأولى؟ لا يدرى، يحد المقصورة يمينًا ويسارًا عدد من الجماهير عراة الصدر طوال الشعر، يصفرون ويصفقون فى حماس. توسط عاصم الساحة بين الحارسين بانتظار المقاتل الثانى الذى

لم يظهر بعد، وكانت تلك فرصة ليرفع ناظريه للسماء الزرقاء الصافية، لونها يخطف الأبصار من روعته، شعر وكأنه كلما أمعن فيها غاص فى أعماقها، إنها ترفعه إليها، تضمه، تحتويه، يأنس بها، لا يستطيع مقاومة هذا اللوحة البديعة فيغمض عيناه شاعرًا بلذة جديدة عليه لم يستشعرها من قبل، قطعها دوى من الحضور تصفيقًا وتصفيرًا مع دخول المتنافس الآخر، ومعه حارسان يحملان السلاح يقتادانه لداخل الحلبة، حافٍ مثله، طويل الشعر والذقن أيضًا، أسمر البشرة قليلًا، متناسق الجسد لحد بعيد، وكان كلما اقترب من مركز الساحة، يمعن فيه عاصم النظر، وبينما يقوم الحراس بربطهما معًا عبر سلسلة معدنية تمنع هروب أحدهما أو كليهما من المواجهة، وقف عاصم متسمرًا وقد فغر فاه من الدهشة رامقًا خصمه الذى بادله نفس النظرة وقد تعرف كل منهما على الآخر، نظرة استهزاء تعلو وجه خصمه وهو يثبت عينيه على قدمه المصابة وكأنه يذكره بما فعله فيه من قبل، بينما عاصم وقف مأخوذًا مدهوشًا إنه هو أمير الجماعة الذى دق قدمه بعنف حتى تكسرت عظمه، مراوغة هى الحياة ومخادعة دائمًا وعصية الفهم أحيانًا ففى أحلك ظروفك تعطيك فرصة للانتقام حتى لتبدو وكأنك قد نلت حقك وحققت عدالة مزعومة، المفاجأة ألجمته بينما الحراس يعدونهما للمواجهة «هذا هو من مات بسببه المئات وربما الآلاف، هذا هو من حطم عظامى وهو من أعطى الأمر بإعدامى، هذا هو من أخرج عين خصمه فى المواجهة السابقة» كان يردد عاصم ذلك بداخله وقد عزم على أنه لن يموت اليوم، طال انتظارهما للمواجهة وقطع شروده نباح ثلاثة كلاب ممتلئة الجسم والعضلات تبدو عليها الشراسة، اندفعت إلى الساحة بصحبة ثلاثة حراس وسط صخب جماهيرى،

اعـترى المتنافسـين ذهـولًا، فيـم ستسـتخدم هـذه الـكلاب؟ هـل سـتعدو ورائهـم فى السـاحة؟ جـاء الـرد سريعًـا مـن قبـل الحـراس وهـم يجـرون تلـك الـكلاب العنيـدة مـن فصيلـة البيتبـول ليقيدوهـا عـبر سلسـلة معدنيـة طولهـا يبلـغ خمسـة أمتـار تقريبًـا بواحـد مـن القضبـان الحديديـة التـى تحيـط بالسـاحة بشـكل دائرى، وزعـوا الثلاثة كلاب بشـكل متسـاوٍ تقريبًـا عـلى النصـف دائـرة التـى تحيـط بالسـاحة، فصيلـة البيتبـول هـى واحـدة مـن أشرس فصائـل الـكلاب وأخطرها سريـع الغضـب ومتحفز دائـمًا للافـتراس، مـا إن قيـد الحـراس الـكلاب حتـى اندفـع كل كلـب منهـم يجـذب السلسـلة عـلى آخرهـا لعلـه يسـتطيع الوصـول إلى واحـد مـن كلا المتنافسـين، نبـاح الـكلاب اختلـط بصيحـات المتفرجـين مكونًـا مزيجًـا عجيبًـا مـن الجنـون يذهـب العقـل دون خمـور، سرت رعشـة فى جسـد كلا الرجلـين عاصـم وخصمـه، لـن تكـون المواجهـة سـهلة كـما ظنـا، لـن يكـون هنـاك مـوت فقـط بـل ذل وألم أيضًـا، الجماهـير الحـاضرة تـزأر، تشـجع ويبـدو أن هـذا التشـجيع ليـس مـن نصيـب أحدهمـا، إنـه مـن نصيـب الـكلاب، انتهـى الحـراس مـن الإعـداد للمواجهـة ورحلـوا خـارج الأسـوار الحديديـة لتبـدأ جولـة جديـدة، كلا الرجلـين تحفـز للاشـتباك بينـما هيمنـت الشـمس فـوق الـرؤوس، ضاقـت كثـيرًا السـاحة عليهـما وصغـرت المسـاحة التـى سـيتقاتلان فيهـا بعيـدًا عـن عضـات البيتبـول، كل منهـما يحـاول جـذب الآخـر فى تحـدٍ عـبر السلسـلة المعدنيـة، لـف عاصـم السلسـة حـول معصمـه وكذلـك فعـل خصمـه مـرة وراء أخـرى حتـى قـصرت المسـافة بينهـما إلى مـا يقـارب مـتر ونصـف ثـم فجـأة قفـز عاصـم تجاهـه ليـضرب صـدره بكتفـه، سـقط الرجـل عـلى ظهـره بينـما عاصـم ارتمـى فوقـه بعدمـا حـرر السلسـة المعدنيـة مـع الحركـة السـابقة، وجـه لـه لكـمات متتاليـة بيمنـاه

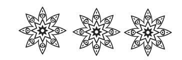
فى الجزء الأيسر من وجهه ثم انتفض الرجل فجأة ليلقى بجسد عاصم وراء رأسه فسقط عاصم أرضًا وبينما يهم الرجل بالنهوض ومحاولة استعادة السيطرة جذبه عاصم فجأة ليضع يده على رقبته وقبل أن يحكم قبضته عليها جاءت ضربة من الرجل بقبضته فى أنف عاصم قوية مؤلمة، جعلت السائل الأحمر ينسال منها بغزارة ثم أتبعها بضربة أخرى أسفل العين اليمنى لعاصم افقدته اتزانه ليركله الرجل بيمناه فى جانبه ليسقط على ركبته بينما وجه أحد الكلاب ينبح فى وجهه لا يفصله عنه سوى نصف متر

فنهض عاصم مسرعًا متجهًا إلى الجهة الأخرى تبعه الرجل بضربة من ذراعه الذى تلقاه عاصم بيسراه وقبض على ذراعه واضعًا إياه تحت باطه ليشل حركة هذا الذراع وبالذراع اليسرى حاول الرجل توجيه ضربة لعاصم فاستقبلها بيمناه وبذلك كلا يديه يشلان حركة خصمه فجذبه عاصم تجاهه بقوة ثم قابل وجهه بضربة من رأسه، كررها ثانية وثالثة لدرجة أوجعته هو نفسه، خارت قوى الرجل وفقد اتزانه فانحنى عاصم غائصًا فى جسد الرجل ثم قام بحمله على كتفيه وراء رأسه ليطيح به تجاه أحد الكلاب ليشتد معها صيحات الحضور وقد اندفع الكلب إليه مكشرًا عن أنيابه ليهرول الرجل حتى أخر الساحة مبتعدًا عنه وقد تمسك بالقضبان الحديدية ليقترب منه كلبًا أخرًا ويقف الرجل فى المنتصف بينهما تمامًا، وكل كلب منهما شد سلسلته عن آخرها وود لو طالت قليلًا حتى ينال نصيبه من لحم هذا الرجل، لاحظ عاصم ذلك فجذب الرجل من السلسة تجاه واحد من الكلاب بينما تشبث خصمه بواحد من القضبان، عاصم يجذبه من الذراع الأخرى حتى هجم الكلب على الذراع المشدودة ويقوم بعضها

فيعود الرجل مندفعًا للوراء باتجاه السور ليباغته كلب من الناحية الأخرى ليجرى الرجل بقفزة متفاديًا الكلب ليقابل الأرض فيطير عاصم عليه جاثيًا على ركبته جالسًا وراء رأسه ويلف السلسة حول رقبته، محاولة ناجحة، حاول إحكامها عليه ولكن الرجل مد يده وراء رأسه جاذبًا عاصم من فروة شعرة، ضربه من قبضته بوجه عاصم، كاد الرجل يختنق وهو متشبث بأذن عاصم، ولكنه سرعان ما جذبه لينقلب عاصم من خلفه إلى أمامه وينفك القيد عن عنق غريمه وبينما ينهض يتلقى ركلة فى بطنه ثم فى رأسه أطاحت به ناحية واحد من الكلاب كاد ينهشه لولا تفاداه ببراعة مستديرًا للخلف ليقفز عاصم كواحد من المصارعين المخضرمين ويغرس كلتا قدميه فى صدر الرجل الذى يعود فجأة للوراء ليلتصق بالقضبان شاعرًا بألم لا مثيل له، ينزاح قليلًا مبتعدًا عن الكلب وبعدها يجد عاصم فى مواجهته وكلب عن اليمين وآخر عن اليسار يصرخان فى جنون، بدا عاصم يتحرك وسط الكلاب بسهولة ويسر وثقة دون أن يمسوه فقد تذكر تدريبات القتال وسط النيران، فلتكن هذه الكلاب هى النيران، سيقاتل دون أن تقلل من براعته ودون أن تذوق لحمه، فقط كل ما كان يحتاجه أن يتكيف مع تلك المسافات بين الكلب والآخر، توالت ضرباته وركلاته فى شتى أنحاء الجسد الآخر ثم أمسكه من رأسه ليصدمه بالقضبان ، ضاعت ملامح الرجل وسط الدماء فى وجهه وسقط مغشيًا عليه، ليقترب منه أحد الكلاب بارزًا أسنانه ليزجره الرجل بقدمه من بقايا وعى أوشك على الغياب، وقف الرجل بينما عاصم يتقافز وسط الساحة يشير له بيده «أن تقدم إلىّ» قام الرجل واقترب منه

حـاول أن ينقـض عليـه ولكنـه يفلـت منـه مـع منحـه قفـزة مصحوبـة بركلـة، بـدا مسـيطرًا ومسـتمتعًا وهـو يشـير لـه بالاقـتراب مـن جديـد وقـد راح عـن عاصـم كل وجـع ومعانـاة منـذ جـاء إلى هـذه الجزيـرة، بـدا كـما لـو كان مولـودًا فى سـاحة قتـال، الجمـوع الحـاضرة كانـت تتابـع باهتـمام وتفاعـل كبيريـن رغـم مـا بـدا لهـم جليًـا مـن تفـوق واضـح مـن طـرف مهيمـن عـلى حسـاب آخـر صـار يترنـح كقـرد سـكران، قـام بمسـكه مـن ملبسـه وكال لـه الضربـات، حتـى سـقط مغشـيًا عليـه فى محيـط أحـد الـكلاب الـذى اقـترب منـه ويبـدو بأنـه أشـفق عليـه، فأخـذ يتشـمم جسـده، وعنـد هـذا الحـد سـيطر عـلى الحاضريـن حالـة مـن التذمـر بعـد رجـوح كفـة أحـد المتنافسـين، لـذا وفى حركـة مفاجئـة قـام أحـد الحـراس بنـاء عـلى إشـارة مـن قائـده بإلقـاء خنجـر فى وسـط السـاحة، وهـى إشـارة واضحـة لعاصـم بـأن ينهـى الـصراع لصالحـه، لكـن وقبـل أن يلتقـط الخنجـر ذهـب إلى الجسـد المكـوم عـلى الأرض وجـره فى إصرار لمركـز الحلبـة بعدهـا التقـط الخنجـر وعندهـا أمسـك بيـد الرجـل الراقـد مـن أطرافهـا وجعلهـا ممـدودة بشـكل رأسـى قبـل أن يقـوم بجـز أربعـة أصابـع بالنصـل الحـاد مـرة واحـدة بشـكل خاطـف كـما يفعـل بائـع المـوز لتتفجـر شـلالات مـن الدمـاء عـلى وجـه الرجـل وجسـده وراح يـصرخ فى هسـتيرية مـن الصدمـة والألم، بينـما عاصـم يتـألم مـن ذكـرى لم تسـطع سـوى ببالـه، لـو علمهـا الحضـور ربـما شـجعوه وصفقـوا لـه تعاطفًـا معـه، ولكنهـم الآن بـدوا متعاطفـين مـع هـذا المقطـوع أصابعـه، شربـت الرمـال دمـاءه حتـى ارتـوت وتلونـت بالأحمـر القانـى، ولكـن عاصـم تذكـر أيضًـا صـوت الرجـل وهـو يقـول مـرة مـن قبـل «أعدمـوه، ليكـون عـبرة لغـيره مـن أسرانـا

وموالينا» تذكر المقدم يحيى وجثته التى لم يجدوها أبدًا ولكن دماءه أغرقت ملابسه لتتعطش روحه للدماء من جديد وهنا فعل ما لم يفعله من قبل حين أنقض على الرجل ولف ذراعه حول رقبته وفى يده الثانية الخنجر، وبسرعة أزاح ذراعه ومر بحد الخنجر سريعًا على رقبة الرجل الذى جحظت عيناه ألمًا بينما يراقب عاصم ذبيحه وهو يسلم روحه ببطء وسط شعورين متناقضين من الجماهير، ما بين مشجع لعاصم ومستنكر له بينما الكلاب توقفت جميعها عن النباح لأول مرة منذ دقائق وهى تراقب الدماء وقد بدا لها الأمر يفوق قدرتها على إلحاق الأذى.



«أنت تعتقد أن ما عشته قبل قليل هو الجحيم، ولكنك مخطئ، هذه ليست إلا وجبة مشهيات.»

غيوم ميسو

(23)

يحيى - فرنسا

ستعود ومعك سالم.. كان هذا عنوانًا مكتوبًا بالخط العريض في صحيفة عمرك لكنك لم تطلع عليه سوى اليوم، حدثًا طال انتظاره، دفعت لأجله الكثير سنواتك عمرك زوجتك وعملك وبلدك.. وها هم يوفون بوعدهم، قابلته في أحد أطراف مارسيليا ومعه رجلين ، ما إن توقفتا سياراتيكما حتى قام الرجل بحمله داخل كيس جلدى طويل له فتحات تهوية كى لا يموت هذا المقيد داخله، حذرك كثيرًا قبل أن يغادرك» لا أنصحك بالعودة به لهذا المنزل، فهو غير مناسب لذلك ولا ينقصك مزيد من الجلبة وإثارة الشكوك، أعلم مقدار غضبك وأقدره، يمكنك التهامه حيًا لو أردت، أو تقطيعه كقطع الناجتس، يمكنك أن تفرمه كذلك حتى يصير وزن أكبر قطعة منه لا يتجاوز جرامًا واحدًا، لكن لا تجعل انتقامك مصحوبًا بنهايتك، لا تخسر نفسك بسبب هذا الحثالة، تمتع بانتقامك وابدأ حياتك من جديد، لا مزيد من الخسائر»

هكذا حدثك، لمست صدقًا وودًا في كلامه بعيدًا عن الرسميات ومتطلبات العمل، هل بدا لك آنذاك كصديق يريد لك الخير

أكثر منها نصيحة عمل؟ أم أن عدم وجود صديق بجوارك هيأ لك ذلك؟ لن تؤثر كثيرًا، الأهم أنك عدت بفريستك، صيدك الثمين، كلا لن تذبحه، لن تنهى عمره، لن تمنحه راحة الموت، لن ترسله لنفس العالم الذى أرسل إليه ابنك، كما أنك لن ترحمه.

فى أيامك التى تلت وفاة آسر، لم يكن يشغل بالك سوى ماذا ستفعل بسالم حين تعثر عليه؟

لقد جالت برأسك طرق تعذيب لم تخطر للنازيين أنفسهم ببال، سيحترق بالنار المتأججة فى صدرك، ستذيقه إياها حتى يثمل من الألم، سيتغذى على صديد جروحك التى لم تندمل، لقد مزق فؤادك أنت وكثيرين، وسيتمزق كل ما فيه مرة وراء مرة دون أن يشارف على الموت، ستستخلص الباقى من عمره لنفسك، لا راحة يذوقها مادمت حيًا، لا نوم يهنأ به على ظهر هذا الكوكب، لم تخبر أحدًا بشأن ما يدور بعقلك، لقد أخذت وقتًا حتى تكون جاهزًا لهذا اللقاء، لم تعرف المنظمة بشأن بيتك الجديد، لقد نقلت كل ما يخصك لمسكن آخر على أطراف الغابة فى مارسيليا حيث الهدوء يهيمن، لا استغاثة تُسمع ولا استنجاد يفيد، لا بد أنك ستتلذذ كثيرًا وتمرح كثيرًا، لقد أعددت عُدتك، وصبرت حتى نضجت دجاجتك وحان وقت التهامها، ولكنك قبل أن تسن سكينك، ستمنحه حقه، هذا هو العدل، ستفى بعهدك الذى أخذته على نفسك بأنك لن تنال منه انتقامًا إلا بعدما يحصل على حقه فى الثأر، ستهديه حسام الميرغنى على طبق من ذهب، حسام الذى كان السبب لوضع كلمة تمت لحياة والده وكان سببًا فى تحويله لمجرم مطارد ثم مجرم عتيد. حسام الذى لولا جريمته الأولى لكان آسر حى يرزق يحظى بحنانك ورعايتك ويحيا سعيدًا فى حضن أمه،

حسام الذى انتظرت كثيرًا وقاومت لذة تعذيبه لأنك تعلم بأن هناك من سيتفنن فى تعذيبه أكثر، حسام الذى تركته مقيدًا مكممًا فى غرفة لشهور لا يعرف فيها أى جرائمه تلك التى أدت به إلى هذا الحال، آن الأوان ليفهم، ولكنه سيدفع ثمن هذا الفهم حين يرى سالم الذى لو ظل ألف عام يخطط ويحاول ما حصل عليه بهذه السهولة، خدمة فايف ستار لا تلقاها حتى فى أحلامك، ليتك عثرت عليه بنصف بساطة عثوره على حسام.

قدت سيارتك المستأجرة الرمادية من طراز سيتروين سى فايف باتجاه المنزل الجديد على أطراف الغابة وشعور بالنشوة يعتريك، تقود بحذر لا مفاجأت غير سارة اليوم، تصل إلى هذا الحى الهادئ، كل بناياته على الجانبين مكونة من طابقين، لا يوجد جيران لك سوى على بعد خمس بنايات، قليلون جدًّا السكان الدائمين هنا وأغلبهم من كبار السن، ستقيم حفلاتك وسط أصوات التلفاز والموسيقى الصاخبة ليس بشكل مزعج أو مبالغ فيه ولكن بما لا يسمح بتسرب صراخ أو نداء. تركن السيارة أمام البوابة الصغيرة للمنزل، تترجل لتفتحها، ثم تقود من جديد لتعبر البوابة وتركن بالداخل، تغلق البوابة وراءك تتجه إلى المدخل مارًا بحديقة صغيرة تمتلىء بأحواض زهور مختلفة الألوان تصعد ثلاث درجات ثم تضع المفتاح فى الباب الخشبى بنى اللون، لينفرج الباب تضغط على زر الإضاءة ليغمر ضوء خفيف الريسيبشن الواسع وتلقى نظرة على الدرج الذى يقود للقبو، حسنًا سيتم الأمر كما تصورته، تعود لحقيبة السيارة، تحمل الكيس الجلدى على كتفك، تضعه على الأرض قبل أن تغلق الباب ثم تعاود حمله متجهًا إلى القبو، تهبط الدرج الخشبى الضيق وحين تفتح

بابـه والإضـاءة الخاصـة بـه تقابـل العـين التـى باتـت مذعـورة دائـما لصاحبهـا المكبـل جيـدًا، لابـد أنـه يـراك مجنونـًا أبكـمًا لا يتفـوه بكلمـة، إنـه حتـى لا يعـرف بمغادرتـه مـصر ووصولـه فرنسـا ولا يتصـور أن يكـون واحـدًا مـن أقـل مـن ثلاثـين فـردًا يسـكنون شـارعًا هادئـًا لا تمـر بـه سـيارة إلا كل سـاعتين عـلى الأقـل.

تضـع الكيـس وتفـرغ محتـواه فى القبـو الـذى تبلـغ مسـاحته أربعـين مـترًا تقريبـًا ليسـقط جسـد لا يـزال غائبـًا عـن الوعـى، ملابسـه قـذرة ورائحتـه توحـى بعـدم تعرضـه للـماء منـذ شـهور، فى البدايـة لا يتبينـه حسـام، سـيأخذ وقتـًا حتـى يتذكـر، تحـاول إفاقـة سـالم دون جـدوى، تأتـى بإنـاء مـن المـاء وتسـكبه عليـه، تخـرج منـه شـهقة طويلـة ويبـدأ فى الإفاقـة، ينظـر إليـك وإلى المكبـل أمامـه «لا يتبـين أيـًّا منكـما ويبـدو أنكـم سـقطتم مـن ذاكرتـه تمامًـا، يبـدو عليـه الخـوف ولكنـه يتماسـك متظاهـرًا بالشـجاعة ليقـول لـك بالإنجليزيـة «اقتلنـى.. اقتلنـى الآن ولا تتلاعـب بـى»

تضحـك حقيقـة دون افتعـال « تتحـدث الإنجليزيـة أيضًـا؟ والـدك كان ليسـعد أكيـد بهـذا قبـل أن يشـنقوه» لـيرد سـالم فى اضطـراب «مـن أنـت؟ ومـاذا تريـد؟»

«سـتعرف لا تقلـق، وسـتتذكر لأنـى لم أنـس فعلتـك أبـدًا، لقـد عشـت سـنوات طـوال بانتظـار هـذه اللحظـة، مـن العسـير أن تنسـى أيضًـا أولى جرائمـك، جريمـة خطـف أتوبيـس مدرسـة بطلابـه، أتتذكـر السـبب أم أذكـرك؟» يصمـت ويطـول صمتـه لتمنحـه قبضـة يـدك فى فكـه العلـوى ويشـعر بمـذاق السـائل الأحمـر «هنـا حـين أسـألك تجيـب، أتفهـم؟» يواصـل الصمـت ذاهـلًا ليتلقـى ضربـة أخـرى أقـوى مـن الأولى صبغـت شـفاه بالـدم «واضـح أنـك صرت بطـىء الفهـم»

ليعاجلـك هلعًـا «نعـم، فهمـت فهمـت»

«تذكرت إذن؟»

«نعم تذكرت»

«أتذكـر أول ضحيـة راحـت بسببك؟» وقبـل أن تهـم بضربـه «نعـم أذكـره» فى فـزع يقولهـا.

«رائع.. أنا والده» تبدو عليه حسرة زائفة بينما أنت تراقبه.

« أتذكـر مـن كان السـبب فى ذلـك؟ الـذى دفعـك للخطـف وجعـل منـك مجرمًـا ولفـق تهمـة لوالـدك وكان السـبب فى شـنقه؟»

«حسـام الميرغنـى؟» قالهـا وعينـه عـلى حسـام الـذى كان يراقـب الحديـث حتـى عثـر عـلى حـل ألغـاز وإجابـات أسـئلة لم تخبـو جذوتهـا منـذ اختطافـه

«غريـب أنـك لم تنتقـم منـه هـو ودفـع ابنـى ثمـن ذنـب كان أصغـر مـن أن يعيـه حتـى، ولكنـى مـع ذلـك لم أتركـه، كلاكـما سـيدفع الثمـن» ثـم تبـدأ يـا يحيـى فى فـك قيـده وتقـول لـه «والآن هـو لـك، يمكنـك أن تلهـو وتقسـو معـه كـما تشـاء، أتـرى لقـد احتفظـت بـه لـك كل هـذا الوقـت، لم يكـن لـدى شـك بـأن لحظتـك قادمـة» تنهـى جملتـك بينـما نظـرات الهلـع تنبعـث مـن عـين حسـام ووجهـه يوشـك عـلى الـصراخ والبـكاء، بينـما سـالم ينظـر إليـه وقـد أدرك حقيقـة الوضـع بعـد أن صـار حـرًا مـن القيـد، تخـرج مـن القبـو وتصعـد الـدرج بينـما توسـلات حسـام تتهـادى إلى أذنـك، تبتعـد ويعلـو صراخـه وعويلـه، الأن تديـر أسـطوانة لمطـرب فرنسـى لا تبـالى باسـمه وإن كان غنـاؤه يحـدث الضجيـج المطلـوب وتذهـب لتسـترخى عـلى أريكـة ناعمـة الملمـس.

وبينـما تغـوص فى الأريكـة مطلقًـا العنـان لخيالـك متصـورًا مـا

يـدور بداخـل القبـو، مسـتمتعًا بالموسـيقى التـى تـسرى فى أرجـاء البيـت لتغمـره كـما يغمـر المـاء إنـاء خـاوى، هـل يمـزق سـالم حسـام؟ هـل يأكلـه بأسـنانه أم يكتفـى بخنقـه؟ كيـف نـال انتقامـه؟ هـل نـال حسـام أخـيرًا جـزاءه؟ لقـد احتفظـت بـه طويـلًا لأجـل تلـك اللحظـة، لـولا أفعالـه القـذرة مـا قـام سـالم بفعلتـه و لكنـت تتنـاول عشـاءك الآن مـع زوجتـك وابنـك، نمـت فى مكانـك، تتابعـت أحلامًـا فى ذهنـك، رأيـت سـالم يلـوك لحـم حسـام بـين أسـنانه والدمـاء تحيـط بفمـه، رأيـت نفسـك وأنـت تنفـرد بسـالم وتتلـذذ بتعذيبـه، كان فى عذابـه راحتـك، ثـم ينتقـل المشـهد لآسر وهـو يلعـب بدراجتـه فى حديقـة متناسـقة الأشـجار والـزروع والشـمس تغمـر المـكان بالـدفء بينـما أنـت وداليـا تتبـادلان الدعابـات وتشـيران إليـه ويشـير إليكـما والسـعادة ترفـرف بجناحـين وتلهـو حولكـم، لم تشـعر بوقـت ولم تحـظ بنـوم هـادئ طـوال سـنوات كتلـك الليلـة، لقـد دفعـت الثمـن غاليًـا ونثـرت البـذور زمنًـا طويـلًا وحـان وقـت جنـى الثـمار، بالتأكيـد لـن تعـود لـك جنتـك، لكـن سـتجد سـلواك، ستسـقط عبئًـا ثقيـلًا عـن كاهلـك، صحيـح أن الثـأر لـن يعيـد إليـك ابنـك لكنـه سـيطفئ نـيران صـدرك.

رحـت فى النـوم لمـدة لا تتبينهـا ولكنـك تسـتيقظ عـلى صـوت الهاتـف، كان كلاوديـو أو مـروان أو أيـا كان اسـمه، إنـه يطلبـك فى مهمة عاجلـة لا تحتمـل التأجيـل عـلى غـير العـادة، تبـدل ملابسـك فى عجالـة ، قميصًـا رماديًـا ذات أكـمام طويلـة، وبنطـالًا مـن الجينـز الأسـود مع حـذاء ريـاضى خفيـف، لا وقـت لمتابعـة مـا يـدور فى القبـو، حـين تعـود سـتهنأ بالمشـهد المنتظـر، تقابلـه فى حانـة صغـيرة بشـارع جانبـى بوسـط مارسـيليا، يطلعـك عـلى تفاصيـل المهمـة ويمنحـك مبلغًـا مـن المـال، تتغيـب عـن القبـو ليومـين لتنجـز مهمتـك، تعـود فى الصبـاح، الموسـيقى

تصدح فى أرجاء المنزل ولا صوت يعلو فوقها، دقائق وتتجه إلى القبو متحسسا سلاحك الجلوك الألمانى، تجحظ عيناك وأنت ترى المشهد الغير متوقع والذى لم يخطر لك ببال والذى يحتاج إلى تفسير.

كان حسام مقيدًا كما كان دائمًا، وسالم يجلس بجواره فى هدوء، حتى ليبدوان كصديقين التقيا بعد غياب، هالك المنظر، كيف يجلسان هكذا؟ لماذا لم يجهز عليه سالم؟ إنه بطريقة ما قاتل والده أو المتسبب الأول فى إعدامه، كيف يتركه دون أن يدق عنقه، دون أن يمسك عنه الهواء، دون أن يخنقه، دون أن يقتلع قلبه من صدره، هل نسى والده؟ أم صار حسام مجرد مجرم لا يفرق عن سالم كثيرًا؟ هل تعاطف معه لأنه شعر بدنو أجله وسوء مصيره على يدك بعد قتله لحسام؟ هل عفا عنه ليفتح لك المجال لتصفح عنه وتغفر له خطأً قديمًا لا يدرك أنه لن يغتفر؟

ما الذى يدور؟ تريد أن تفهم وبسرعة، عقلك يعمل ويفكر وكلاهما ينظر إليك فى خوف، لا يتوقع ردة فعلك التى جاءت هادرة عاصفة لتنزل على كليهما ركلًا وضربًا فى شتى أنحاء جسديهما، ولا صوت سوى صوت توجعهما معًا وصوت ضرباتك الطائشة تطيح بهم ثم تمسك بسالم توسعه ضربًا قبل أن تلقى به قرب الحائط ليرتطم بها ظهره وجزء من كتفه بينما أنت تصرخ وتضرب فى آن واحد وقد أحمر وجهك بالكامل من أثر الانفعال:

- أتظنان أنكما ستخدعانى بهذا الاستسلام؟ سينال كل منكما عقابه، سيتمنى الموت كل يوم ولن يراه بعينيه، القادم فى أيامكما لن يتجاوز حدود هذه الجدران الأربعة، فى كل ليلة عذاب جديد، ستعانيان كما جعلتمانى أعانى، لقد دمرتما حياتى تمامًا والآن جاء

دوركـــما.

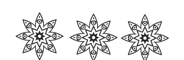
ثـم تمسـك بسـالم مـن رقبتـه وتعتصرهـا طويًـلا وتـبرق عينـاه وكأن روحـه موشـكة عـلى وداع جسـده ولكنـك تدعهـا فى الوقـت المناسـب لتدفعـه عـلى جسـد حسـام المكـوم عـلى الأرض يرتجـف مـن الخـوف، ثـم تهـم بمسـك سـالم بتلابيـه مـن جديـد، وقـد جعلـه حماسـك كطائـر مذبـوح فى يـدك لا يكـف عـن الارتعـاش تلقـى بـه عـلى الجانـب الاخـر ليرتطـم بأحـد الرفـوف لتسـقط عليهـا عـدد مـن الأوانـى العتيقـة بينـما يـصرخ حسـام باكيًـا

- ومـا شـأنى أنـا فى كل هـذا؟ هـذا رجـل اختطـف ولـدك المريـض وتركـه حتـى المـوت، بينـما أنـا لا أفهـم مـا جريمتـى ليتـم سـجنى فى غرفـة طـوال هـذه المـدة، لقـد دمـرت حياتـى دون حتـى أن أعـرف مـن أنـت، كل مـا تظنـه برأسـك ليـس إلا أوهامًـا أوحـى إليـك بهـا هـذا الرجـل، لم ألفـق تهمـة لوالـده كـما حسـبتم، والـده مـن قتـل وسـالم يعلـم ذلـك جيـدًا، أنـت خطفتنـى وحبسـتنى بنـاء عـلى خدعـة انطلـت عليـك، أنـت مـدان لى، وعليـك أن تصـوب خطـأك فـورًا.

لمـاذا تسـمرت فى مكانـك بعـد كلماتـه يـا يحيـى؟ هـل صدقتـه؟ لمـاذا أصـدرت عليـه حكـمًا دون دليـل؟ لـو صـح كلامـه، لمـاذا اندفعـت ومشـيت وراء اتهـام باطـل مـن خاطـف وقاتـل؟ ألهـذا الحـد صرت سـاذجًا؟ أى وزر تحتملـه الآن بعـد أيـام أذقتـه فيهـا العـذاب؟ إنـك حتـى لم تمنحـه الفرصـة ليفهـم، لعلـه لـو فهـم لأوضـح، أنـت قـاضٍ فاشـل كـما كنـت أب وزوج فاشـل، كيـف تتحمـل نفسـك هكـذا مـع هـذا الكـم مـن التخبـط ؟ يبـدو أنـك تسـتحق كل مـا أنـت فيـه.

- هـل مـا يقولـه حسـام صحيـح؟ هـل والـدك هـو مـن قتـل تلـك المـرأة؟ هـل خدعتنـى كـما قتلـت ابنـى؟

ثـم تنقـض عليـه كالفهـد وأنـت تضربـه بقبضة يـدك فى كل جـزء من وجهـه بينـما هـو فى استسـلام تـام، لا يقـاوم ولا يجيـب، الدمـاء تتفجـر مـن وجهـه وتلـون يـدك، لكنـك لا تأبه، فقـط كل مـا يعنيـك ألا يموت، هـذا هـو شـاغلك الأول، لـن يفـر بهـذه البسـاطة، وبعدمـا فرغـت فيـه جـام غضبـك، تركتـه يسـقط أرضًـا، هامـدًا، يتنفـس بصعوبـة، سـتتركه حتـى يفيـق لتعـاود الكـرة مـن جديـد، وقبـل أن تغـادر القبـو تقيـد يديـه خلـف ظهـره وتضـع قطعـة مـن الـورق اللاصـق عـلى فمـه، حتـى لا يتمكـن مـن الـصراخ أو إلحـاق الأذى بحسـام، تغـادر القبـو وصـدرك يعلـو ويهبـط ودقـات قلبـك تنافـس تلـك الموسـيقى علـوًا، تخـرس هـذه الأنغـام المتعاليـة وتلقـى بنفسـك عـلى نفـس الأريكـة لتحـدق فى السـقف وأنـت مذهـول مـن تلـك المفاجـأة، لا عقـاب يكفـى جرمـه بعـد أن قتـل آسر ودفعـك لارتـكاب جريمـة خطـف حسـام، يـا لهـذا الكـم مـن التعـب الـذى يتكـدس برأسـك، كنـت تظـن بأنـك سـترتاح بعـد العثـور عـلى سـالم ولكـن موجـة جديـدة مـن النـدم كانـت بانتظارك تلفـح رأسـك وتـتركك فى دوامـة مـن الألم، لمـاذا لا تمـوت وترتـاح؟ لم يعـد يعنيـك هـذا العـالم بـأسره، لا رغبـة لـك فى مزيـد مـن العيـش، آسر بانتظـارك عـلى الضفـة الأخـرى مـن نهـر عـذب، مياهـه صافيـة يبتسـم ابتسـامة افتقدتهـا عينـاك ووالـدك أيضًـا يقـف بجـواره مـادًا يـده فاتحًـا ذراعيـه لقـد أوحشـته كـما أوحشـك، يشـيران إلى قـارب أبيـض صغـير بمجدافـين خشـبيين مبسـوط طرفيهـما إلى المـاء، لمـاذا لا تغـادر الآن؟ المسـدس بجـوارك ومحشـو بالطلقـات، ضغطـة واحـدة وتنهـى هـذا الـصراع، الخيـار يسـتحيل أن ينتـصر للبقـاء مـع سـالم وحسـام، إنهـما هنـاك والـدك وآسر يلوحـان بسـعادة لـك، فقـط تأخـذ القـارب وتعـبر، تمسـك بالمسـدس وتبتسـم بينـما تراهمـا يدنـوان وتقـترب.



«أنا وهذا العالم لم يعد كلانا بوسعه أن يدع الآخر وشأنه، لا أكف عن محاولة إصلاحه ولا يكف عن تخييب أملي ..»

(24)

روبيرتو روسّى

(2015-2010)

غريب هذا العالم، كل أمر يمكن تجاوزه مهما بدا مريعًا وقت حدوثه، لم تتوقف الحياة على أحد وليتها فعلت بدلًا أن نقاسى بدونه، نعانى فقده، ونبكى غيابه، صرت وحيدًا تمامًا رغم كل هؤلاء المحيطين بى ولا شاغل لهم سوى تحقيق رغبات لم يعد لها وجود، زهدت الحياة بما فيها، ويئست من كل أمل فى التغيير، المنظمة تصطاد المجرمين وساحة القتال تفتك بهم تباعًا ولم تتوقف الجريمة بعد، منذ أخر مرة فى عام 2010 لم أزر الجزيرة، لماذا لا أتجه إليها لعلى أحظى ببعض مشاعر الرضا عن النفس؟ أنا فى أمس الحاجة لتلك اللحظات، قابلت أندرو من جديد فى عام 2013 كبر قليلًا وصار رجلًا ذى بأس ولكنه مازال محتفظًا بنقائه وبراءته، لم يقتصد جهدًا فى توفير سبل راحتى، اطمأننت منه على والده وسألته عن أخبار الساحة.

أخبرنى بأن هناك عشرة سجناء فى الثكنات وأنهم بانتظار عدد آخر قادم هذا الأسبوع، وستقام المواجهات عقب وصولهم، وطلب

منى البقاء حتى مشاهدة هذه العروض، ذكر لى بأن المشهد بات أسطوريًا مع ازدياد أعداد الجماهير.

- يبدو أن جميع أهل الجزيرة حريصون على حضور المباريات؟

- ليسوا وحدهم سيدى، القوارب فى كل مرة تأتى محملة بأناس كثيرين لمشاهدة المتصارعين، أنت لم تسمع صيحات الحماس وهى تتصاعد من الحناجر، الصراخ يصير مدويًا كالبرق

- أى قوارب وأى أناس؟

- هؤلاء السياح الذين يأتون لمشاهدة المباريات، فكرة ممتازة نفذها مستر تونى، أعطت حيوية للمبنى وللفاعليات وجعلت الجميع يلهث مع الأحداث، فى البداية كان أهل الجزيرة يشاهدون وهم صامتون، أما الآن فالكل يردد هتافات ويصب غضبه على هؤلاء المجرمين، لن تصدق روعته حتى ترى بنفسك سيدى.

لم أفهم ما يدور بشكل كامل وقتها يبدو أننى كبرت فعلًا وصرت بطىء الفهم، لقد تركت لتونى دفة السفينة وهو من يقود خاصة تلك الأمور المتعلقة بالجزيرة، يبدو أن هناك مستجدات لا علم لى بها.

بعد يومين وصل تونى إلى الجزيرة، كان أنيقًا واثقًا كما عهدته دومًا، يتحرك فى الجزيرة كصاحب مكان، الجميع يحترمه ويسعد به من أهل الجزيرة، والحراس يأتمرون بأمره، غريب هذا.. المكان ملكى ولكنى أشعر أنى كضيف عديم الأهمية بداخله، لقد تجاوزت السبعين عامًا بالفعل، لكننى مازلت فى وعيى وفى أتم صحة وكل شىء هنا ملكى، أنا من وصلت لهذه الأرض وصنعت هذه الأسطورة على سطح الجزيرة، لو أن هناك طاووسًا

سيمشى مزهوًا بنفسه فلا بد أن يكون أنا، بالطبع لست أغار من تونى، هو ابن أخى ولكن فليتظاهروا ببعض الاحترام، لولا أندرو لشعرت بأنى عابرسبيل غير مرغوب وجوده، تحاملت على كرامتى ودفنت اعتراضى فى صدرى، ولم أفاتحه فى الأمر بالرغم من أنه ينام وأخيه فى الغرفة المجاورة لى وانتظرت حتى يوم المواجهات، من نافذة منزلى القريبة رأيت عشرات تتوافد على بوابات المدرج، رجالًا ونساء من مختلف الأعمار من الثلاثين وحتى الخمسين، ليسوا من أهل الجزيرة بالطبع، من هم؟ وكيف علم هؤلاء بما يدور، كيف سُمح لهم بالحضور من الأساس؟

بصحبة حارسى الخاص اتجهت إلى المقصورة الأمامية للمدرج، استقبلنى تونى وماركو بود مصطنع، وساعدانى فى الجلوس فى صدر المقصورة على المقعد المخصص لى، وجلسا بجانبى، ثم انصرف تونى للحديث مع عدد من الرجال الأغراب، هل هم أصدقائه بالطبع ليس كل هذا العدد، كيف لم يخبرنى بذلك من قبل، كيف واتته الشجاعة ليتصرف كما لو لم أكن موجودًا، جلت ببصرى فى المكان، نظرت إلى ماركو، كان يتفادى النظر إليّ، يدير عينيه فى أى اتجاه غير الذى أنتظره فيه، تابعت ما يدور والجولات تتوالى بين مجرم وأخر، وصوت فى المذياع يعلن اسم المجرم وجريمته قبل أن يدلف المتصارعين، ومع كل ضربة تنتفض الجماهير صياحًا، يبدون كمجموعة من المصطافين، أو أعضاء رحلة، أما على جانبى المدرج وفى أماكن محددة يجلس أهل الجزيرة فى حماس أقل وإن ظل ظاهرًا للعيان، لقد اعتادوا المشهد إلى حد ما بعكس هؤلاء الذين يبدون فى زيارة أولى للمكان.

مرت جولة وأخرى والجميع يهتف بالموت لجميع المشاركين، بعض من الحضور يبدى حماس أكبر عند قتل مجرم ما، يبدو أن

جريمتـه أكثـر مـن بشـاعة مـن غـيره فى نظرهـم، أنظـر إليهـم شـذرًا ، هـؤلاء ضيـوف جـاءوا دون دعـوة منـى أنـا صاحـب المكان واقتحمـوا منـزلى وافترشـوه، بـل ويتمتعـون بـكل مـا أعددتـه مـن عـدة، لا شـك أنـه انتابتنـى رغبـة مـا فى حضـور الجميـع لطقـوس تحقيـق العـدل عـلى هـذه الجزيـرة، ولكـن بنـاءً عـلى رغبتـى وحـدى فى ذلـك.

خمسـة جـولات مـن القتـال تمـت داخـل الحلبـة مـع سـقوط خمسـة مـن المجرمـين صرعـى غارقـين فى دمائهـم وقـد اسـتجابوا للافتـة المرفوعـة عـلى السـارى وقـد تحولـت مسـاحات مـن الرمـال لبقـع حمـراء، حتـمًا سـيتم إزالتهـا وتغييرهـا فى اللقـاءات القادمـة، هنـاك خمسـة منتصريـن، نجـوا مـن المـوت اليـوم، لكنهـم لم ينجـوا مـن الجـراح والإصابـات، لم ينجـوا مـن القسـوة التـى شـهدوها فى عيـون منافسـيهم، لم ينجـوا مـن الرعـب الـذى يخالجهـم مـع الشـعور بـأن لحظاتهـم الأخـيرة تقبـع بانتظارهـم، لم ينجـوا مـن لحظـات مقيتـة مـن الاسـتمرار فى العيـش لأيـام أخـرى فى ظـروف تتماشـى مـع حقاراتهـم فى زنازينهـم الضيقـة، فـات أوان النـدم وحـان وقـت دفـع الثمـن.

هـذا هـو الجـزء الأفضـل مـن اليـوم، ولكـن فى المسـاء كنـت بانتظـار نقـاش حامـى الوطيـس ليـس عـليّ بـل عـلى الأخويـن، الذيـن تصرفـا وكأنهـما بـلا كبـير، وكأن المبنـى بـلا صاحـب. أعطيـت تعليماتـى لهـما بعـدم مغـادرة الجزيـرة اليـوم.

- مـن حكـم فى مالـه فـما ظلـم، وحـين يكـون المـال مـالى والأرض أرضى فـلا يصـح أن تتصرفـا فى أرضى دون اسـتئذانى ، أليـس كذلـك يـا أبنـاء أخـى؟

- نحـن فقـط لا نريـد أن نزعجـك بشـأن أمـور العمـل يـا عـماه .. قالهـا ماركـو

- لقـد قلـت بـأن المـدرج ليـس لـه علاقـة بأنشـطتنا السـياحية، أليـس كذلـك؟

جاء سؤالى استنكاريًا انفعاليًا مدويًا.

- كنـت أظـن أنـه يجـدر بـك شـكرنا عـلى مـا نبذلـه مـن جهـود وتصاريـف للحفـاظ عـلى المؤسسـة، وليـس تأنيبنـا ومعاملتنـا كأطفـال لوثـوا ملابسـهم بالصلصـة

قالها تونى بجفاء واضح وبلهجة باردة زادتنى انفعالًا

- نحـن نعمـل معًـا، ولا يجـب خلـط الأوراق، التجـارة لا علاقـة لهـا بالسـياحة ولا لأحدهمـا علاقـة بالأيـادى البيضـاء، وجميعهـم يجب أن ينـأوا بعيـدًا عـن الجزيـرة، هـل هـذا مفهـوم؟ لم يحـن بعـد وقـت الإعـلان عـن الكولوسـيوم الجديـد.

- تأكـد عمـى بـأن الموضـوع مـازال سرًا وجميـع مـن حـضروا اليـوم ملتزمـون بذلـك

- كيف ذلك؟

- أرجـوك عمـى لا تشـغل بالـك بتلـك التفاصيـل المرهقـة وتأكـد بأننـا لا ننشـغل سـوى بالحفـاظ عـلى كل ممتلكاتـك ومؤسسـتك

- أريد أن أفهم كيف تضمن حفاظ كل هؤلاء على سر المدرج؟

أعقـب سـؤالى صمـت بصحبـة نظـرات متبادلـة بـين ماركـو وتونى، لم أفهـم منهـا شـيئًا سـوى أن هنـاك مزيـد مـن الأمـور لم يخبراننـى بها.

- مـا الـذى يحـدث يجـب أن أفهـم؟ قلتهـا وقـد انتابنـى الحنـق أكثـر عـلى كليهـما.

اتخـذ ماركـو قـراره بالصمـت، لا يقـوى عـلى الإجابـة كـما هـو واضـح، بينـما تونـى يبتلـع ريقـه والكلـمات تغـادر فمـه بصعوبـة.

- والدى كان محقًا، من العسير إبقاء الأمر سرًا كل هذا الوقت

- هل علموا بأمر ساحة القتال؟

ليس ذلك ما أقصد.

ثم صمت من جديد، فاستحثيته على المتابعة

- تحدث تونى، تكلم .

- بعض الأجهزة الأمنية نما لدي عدد من أفرادها علم بشأن الأنشطة الخفية للأيادى البيضاء كاد هذا يكلفنا خسارة رهيبة، وفضيحة كبرى، تمت مراقبة أنشطتنا ووضعت تحت المجهر، كان يجب أن ننقذ ما يمكن إنقاذه فتم شراء سكوتهم، صاروا يروننا ويتظاهرون بالعكس، بل زاد اعتمادنا عليهم فى تسهيل أمورنا، وكانوا مخلصين لنا، حافظين لعهودهم، صاروا يلعبون فى صفوفنا، ولم يكن جائزًا إخفاء أمر كالجزيرة عليهم خاصة مع الاختفاء المتوالى لعدد من المجرمين الذين كانوا قاب قوسين من العثور عليهم، نجاحنا فاق التصور عمى، كان من الصعب تفسير الأمر على غير حقيقته، هؤلاء بحاجة لفهم ما يدور كى يرتبوا أوراقهم وفقًا لمصلحتنا معًا، لكن أن يتم الأمر دون علمهم فذلك سيفتح علينا فيضًا من التحقيقات الغير معلنة حتى يصلوا إلينا ويومًا ما سنكون جميعًا بما فى ذلك أعمالنا الأخرى فى خطر.

سقطت كلماته كالحجارة فوق رأسي، ألقى بى من فوق حصان يعدو، ربطنى بمؤخرة قطار وتركنى أُسحل وراءه، الكيان الذى ظللت لسنوات أبنيه، السر الذى احتفظت به لمواجهة الشر المطلق بات مهددًا، هؤلاء لن يهدأوا حتى يفسدوا ما صنعت، حتى يدمروا ما شيدت، حتى ينسفوا ما وضعت، أعلم هذا وأراه بعينى،

البشر لم تعبث أيديهم بشيء إلا وأجهزوا عليه، لن يتركوا قوانيني ولن يدعوا أفكاري تستمر، لن يكتفوا بمجرد الملاحظة والمشاهدة، سيطلبون التدخل، سيتعللون، سيتحججون حتى يصلوا إلى مساومة مطلوبة، هل أنا أبالغ؟ كلا هذا ما خبرته دومًا من البشر، يتظاهرون بالبحث عن الحقيقة حتى إذا ما وصلوا إليها، طمسوها إن لم يزيفوها، أساتذة فى تزييف البديهى، مهرة فى تحريف المنطق، بارعون فى الخداع.

هذا المغفل تونى، يظن بأن مجرد الدفع لهم سيخرسهم للأبد، زياراتهم للجزيرة ليست بغرض الترفيه فقط بل ولن تكون نهاية المطاف.

- ولماذا جعلت الحراس ملثمين هكذا؟

هنا ضحكا هو وماركو ثم لاحظا مدى حنقى فقال ماركو:

- إن نصف الحراس تقريبًا صار من النساء، ولا يجب أن يراهم المجرمين وإلا تجرأوا عليهم، تخفيهم وراء اللثام يعطيهم رهبة أكثر، لقد كان من العسير أن نترك الحراس من الرجال بلا نساء طوال مدة مكوثهم الطويلة هنا، سيُجنوا بلا شك ولا نريد مشاكل مع أهل الجزيرة، لقد اشتكى الحراس من هذه النقطة وقد اهتدينا لحلها دون ضوضاء.

انتهى حديثى مع الأخوين، لم أعد قادرًا على سماع المزيد، يكفينى ضجيج الشكوك الذى يمرح برأسى والخوف الذى يعبث بصدرى، صعدت إلى غرفتى وأنا أتساءل متى يكف هذا العالم عن إصابتى بالخيبة، يبدو أن كلينا لم يعد بوسعه أن يدع الأخر وشأنه، لا أكف عن محاولة إصلاحه ولا يكف عن تخييب أملى.

❋❋❋

«المجرمون الأقذار ممثلون بشكل منوع وعلى نحو واسع على هذا الكوكب»

بات كونروي

(25)

عاصم

(2013)

لا شك أن هذه الجولة كانت أفضل ما وقع لى على سطح هذه الجزيرة، حتى فى أحلك الظروف يمكن لأمنية عظيمة أن تتحقق، طالما تركت حادثة اختطافى بداخلى غصة، وطالما تشوقت لسحق كل من قابلتهم أثناء ذلك.

عقب القيام بأولى مهماتى مع المنظمة توالت العمليات فى أفريقيا وأمريكا وآسيا، يتبدل الهدف ويتغير المكان والزمان ولكن دورى معروف التصويب فى المكان الذى تحدده لى المنظمة، طلقات فى الرأس أو القلب لمن ينوون التخلص منه مباشرة وذلك يكون محاط بمجموعة من الحراس ويصعب الإمساك به فلا حيلة سوى قتله مباشرة، أو طلقات فى القدم أو الساق أو حتى الكتف وذلك للإيقاع بالضحية ثم يقوم مجموعة من الرجال على الأرض بالتظاهر بمعاونته ثم خطفه إلى حيث تريد المنظمة.

فى هذا الوقت كانت أكثر إقامتى فى إيطاليا، فى منزل خاص

بـى فى أحـد أحيـاء رومـا، كان بمثابـة قاعـدة للانطـلاق إلى حيـث تكـون أهـدافى، كان كل هـدف جديـرًا بالمـوت مسـتحقًا لـه، فى الحقيقـة لا أدرى كيـف تتـم عمليـة الاختيـار ولكنـى تمنيـت لـو تمكنـت مـن المشـاركة فى هـذا الأمـر، مسـتحقى المـوت أكثـر مـن مسـتحقى الحيـاة عـلى هـذه الأرض، لم أفهـم بعـد هـذه القسـوة فى التعـدى عـلى حقـوق الآخريـن، والرغبـة فى الاسـتحواذ عـلى مـا بيـد الآخـر، الحيوانـات لا تقتـل حـين تشـبع ولا تختـزن مـن الطعـام مـا يكفيهـا لقـرون.

بالطبـع لم يمنعنـى عمـلى عـن زيـارة والدتـى بضعـة أيـام شـهريًا لقضـاء أوقـات هادئـة تُعيـد إليّ طيـف حيـاة فى بيـت صغـير مـع أم حنـون ليـس لهـا همًـا سـوى إسـعادى، باتـت حركتهـا قليلـة تقـضى أغلـب أوقاتهـا فى السريـر، تسـاقط شـعرها ونحـل جسـدها وذهبـت عنهـا الميكانيكيـة الآليـة لأعصـاب وجههـا، التناسـق الفطـرى لحركاتهـا وإيماءاتهـا لم يعـد كـما كان، افتقـدت وجههـا الـذى أعرفـه قبـل أن تداهمهـا تلـك الآلام تتحسـن حالتهـا ببـطء ولكـن الخـوف كل الخـوف مـن معـاودة ظهـور هـذا المـرض،

فى فبرايـر مـن عـام 2014 تلقيـت نبـأ وفاتهـا، ماتـت بـين وجـوه أطالـت التحديـق فيهـا ولم يعـد بوسـعها تقديـم العـون، طـرت إليهـا ودفنتهـا فى تـراب أرض غـير أرضهـا، كان نعشـها خفيفًـا طائـرًا، تـرى كـم مـن الآلام احتملتهـا لتصبـح بهـذه الخفـة، رحلـت مـن حياتـى واختفـت كـما تختفـى السـحابة بعـد أن تمطـر السـماء، راحـت أمـى ولم يعـد يسـتطيع المـرض أن يمسـها بسـوء، وصـار بعدهـا العـالم عـصيٌ عـلى العيـش فيـه، لم أكـترث بعدهـا لأى شىء مـن يحيـا ومـن يمـوت، سـئمت مـن البحـث وراء المنظمـة عـن دوافعهـا للقتـل وتحولـتُ لآلـة للقتـل بـما تعنيـه الكلمـة، فقـط تشـير المنظمـة لى عـلى مـن تريـد التخلص

منه ليصير فى خبر كان، وهو ما ندمت عليه لاحقًا، لا بد وأن ما أنا فيه الآن عقابًا على ذلك الاستهتار فى قنص الأرواح، تماديت فى حزنى وغضبى أكثر من اللازم حتى قابلتها فى أحد المطاعم بإيطاليا، إنها ليلى أمها تركية ووالدها إيطالى وكلاهما فارقا الحياة، كما علمت فيما بعد.

كان المطعم مزدحمًا عن آخره، استأذنها الجرسون أن أشاركها الطاولة، كنت محرجًا جدًا، ولكنها بدت شاردة، والطعام أمامها كما هو، يبدو أنها طلبته ولم تذق منه شيئًا

سألتها:

- هل الطعام سىء إلى هذا الحد؟

- لا ليس كذلك.

كانت شاردة وشرودها ملفت، عيناها بلون العسل، شعرها مضفر فى غير اهتمام، تقاطيعها مليحة، جبهتها البيضاء ووجنتيها الحمراوان يكادان يضيئان المكان، أهملت الطعام أنا الآخر واستغرقت فى النظر إليها فى دقائق من الصمت:

- لا أظن أن هناك من يجرؤ على جعلك حزينة بهذا الشكل؟

ابتسمت دون أن تنظر إلىّ وبدأت فى العودة لتناول الطعام

- ظنك فى غير محله

- إذن هو أعمى وبلا قلب.

ابتسمت بعدها وهى تنظر إلىّ.

- لماذا توقفت عن الأكل؟ التحديق فى وجهى لن يغنيك عن الطعام.

- من الحماقة الانشغال بالطعام فى حضورك، هذه الدقائق التى جاءت من القدر لا بد أن تستثمر، بالتأكيد ليس فى مضغ البيتزا

ثم ضحك كلانا

- هكذا الشرقيون ينبهرون بكل شقراء تقابلهم

- كلامك صحيح لو كان فى بلدى، هنا أكثر من أن يُعدوا، إنهم فى كل مكان

بعد قليل من النقاش ارتاح كلانا للآخر وتبادلنا أرقام الهاتف، احتلت مساحة كبيرة فى عقلى، اعتادت عيناى رؤياها، وكان حالى يتبدل للأفضل فى حضورها، أغادر عالمى وأدخل فى عالمها والأجمل أنها صارت تبحث عنى، وفتحت لى قلبها، ظللت مدينًا للمكان الأول الذى جمعنا وللنادل الذى دعانى للجلوس أمامها، لم أعرف حبًا حقيقيًا طوال عمرى، ولكن ليلى تختلف، آنست وحدتى، وأنستنى كثيرًا حزنى على أمى، اكتشفت فى هذا الشتاء أن الأمطار لا تتساقط إلا لتلامس حبيبتى أو لتمنحها قبلة على الجبين، فُتنت بها أيما افتنان، طلبت زواجها ولكنها طلبت منى تأجيل الأمر، إنها بحاجة لمزيد من الوقت لتتأكد من مشاعرها نحوى، لم أحزن، المهم أن تبقى بجوارى أمام عينى وهذا يكفى.

كانت ليلى عادة حزينة على غير إرادتها، والدها قُتل منذ عام والشرطة لم تعثر على قاتله، سألت هل من أعداء له، هل هناك دوافع وراء قتله، لم تدرِ سببًا لقتله، ولكن بالتأكيد هناك سبب جعل أحد يطلق عليه رصاصتين من مسافة خمسة عشر مترًا كما جاء فى التحقيقات، ذكرت لى أن والدها كان بشوشًا دؤوبًا فى العمل، ولكنه فى الأيام الأخيرة من حياته صار قلقًا صموتًا،

بـدأت هـذه المرحلـة عقـب زيـارة أحـد الأفـراد لـه والـذى بالصدفـة رأتـه ليـلى أثنـاء عودتهـا، فى هـذه الليلـة توجـه والدهـا إلى الفـراش ولم يتفـوه بكلمـة، وظـل غريـب الحـال بعـض الشـىء حتـى تـم قتلـه بعـد أسـبوعين. أغلـق التحقيـق دون الوصـول للفاعـل، وظلـت ليـلى تعيـش وحيـدة، لهـا أخ يعيـش فى أمريـكا، أمـا هـى فتعمـل فى معـرض لبيـع اللوحـات، حبهـا للرسـم والفـن تشـكيلى استـحوذ عـلى مسـاحة كبـيرة فى حياتهـا.

ظلـت علاقتنـا هكـذا مـع اسـتمرارى فى العمـل الـذى لا تعـرف عنـه سـوى أنـه يتبـع لمؤسسـة (الأيـادى البيضـاء). وفى إحـدى المكالمات قـررت أن تعـترف لى بحقيقـة مشـاعرها نحـوى ببعـض الـدلال:

- هل يسعدك لو أخبرتك أنك صديق رائع؟

- فقط صديق؟

- أجب عن سؤالى من فضلك!

- أنا أعرف أنى صديق رائع، لم تأتِ بجديد!

- أنت سخيف ولكنك حبيب رائع أيضًا

طـرت مـن الفـرح عقـب هـذه الجملـة، السـعادة بـدأت تعـرف طريقـى، عشـت معهـا شـهرين نخطـط لحياتنـا، أيـن سـنعيش؟ كـم ولدًا سـننجب؟ ومـا هـى أسـماؤهم؟ كانـت تندهـش مـن تفكـيرى، تريدنـى أن أتـرك كل شـىءٍ لوقتـه، لم أهتـم، يكفـى أنهـا معـى وتبادلنـى الحـب، حتـى فى أحـد الأماسـى وبينـما نتنـاول عشـاءنا فى أحـد أرقـى مطاعـم رومـا، قابلـت كلاوديـو كان يجلـس بصحبـة آخـر فى طاولـة مجـاورة، بالطبـع تبادلنـا التحيـة وسـط نظـرات ليـلى، ثـم اسـتكملت الطعـام والحديـث ولكنهـا كانـت شـاردة، اعتقـدت أنـه أمـر عـارض ولكـن

رأسها سافرت لمكان آخر، وطلبت أن نغادر على الفور، فى سيارتى حاولت أن أفهم منها سبب تغييرها المفاجىء، فوجدتها تبكى:

- الرجل الذى كان بصحبة صديقك، هو الرجل الذى زار والدى وتبدل أحواله عقب هذه الزيارة، لا بد أنه هو من قتله.

حاولت تهدئتها دون جدوى، أرادت أن تعرف من صديقى هذا، ومن هو من كان معه؟ أخبرتها أنه ينتمى لنفس المؤسسة ونتقابل أحيانًا، أما مرافقه فلا أعرفه، اسودت ليلتنا فجأة وكذلك الأيام التالية، لا داعى بأن الشك ساورنى أنا نفسى، فأنا أدرى بطبيعة عمل هذه المؤسسة، ولكن هل كان والدها هدفًا لمؤسستنا، لذا تخلصوا منه، وكان والدها محاميًا، فما علاقتهم به وما الداعى لقتله؟

فى أول لقاء لى بكلاوديو، سألته عن الرجل الذى كان بصحبته فى تلك الليلة، تهرب قليلًا وراوغ، لكنى أصريت، فأخبرنى بأنه من الأفضل لى ألا أعرف، زادت شكوكى أكثر فاضطررت لمراقبة كلاوديو نفسه، كان الأمر عسير جدًا، أى خطأ سأدفع ثمنه غاليًا، حتى مر أسبوعين وانقطعت لقاءاتى بليلى واكتفينا بمكالمات جميعها تدور حول هوية هذا الشخص الذى كان بصحبة كلاوديو، ولكن بعد فترة رأيته يقابله من جديد، هنا راقبته هو شخصيًا، حتى عرفت، إنه ماركو أحد المسئولين عن مؤسسة الأيادى البيضاء بشتى أنشطتها، تتبعته حتى وصلت لعنوانه ودرست كل شىء يخصه، ولكن قبلها طلبت من ليلى أن تبتعد، تسافر إلى أى مكان، حتى تزول مخاوفى من تعرضها للخطر، أخبرتنى بأنها ستسافر إلى أخيها فى أمريكا وأعطتنى عنوانه وهاتفه، كنت أمام أمرين،

إمـا يكـون والدهـا مجرمًـا يسـتحق القتـل وهـى لا تعـرف وفى هـذه الحـال مـن المسـتحيل أن أخبرهـا وأصدمهـا فى أبيهـا، وإمـا المؤسسـة تسـتهدف المجرمـين وغـير المجرمـين لأسـباب غـير معروفـة ووقتهـا أنـا مـن سـيصدم فى المؤسسـة.

أن تقتحـم فيـلا محاطـة بهـذا الكـم مـن الحراسـة، وأنـت فى غـير كامـل لياقتـك هـو أمـر غايـة فى الصعوبـة ولكنـى فعلتهـا وانتظرتـه ملثمًا فى غرفتـه فى الظـلام. حـين دخـل وجدنـى، فوجـىء بـى، طلبـت منـه أن يغلـق البـاب خلفـه، اسـتجاب لى، كان مأخـوذًا دون خـوف، عرضـت عليـه صـورة والدهـا فى يـد وفى اليـد الأخـرى مسدسًـا كاتمًـا للصـوت، حقيقـة لم أكـن أنـوى اسـتخدامه، ولكنـى بحاجـة لوسـيلة ضغـط.

- أهلًا عاصم

قالهـا بالإنجليزيـة وسـط ذهـولى، كيـف عرفنـى بهـذه السـهولة، كنـت عـلى وشـك الجنـون .

ولكنه غمغم:

- يبـدو أنـى بحاجـة لتغيـير هـؤلاء الحمقـى مـن الحـراس بالخـارج، فى الحقيقـة لم أظـن أن تفعـل شـىء جنونـى كهـذا، ظننتـك رجلنـا ولـن يؤثـر فيـك أى كلام.

- كيف عرفتنى؟ وهل تعرف هذا الرجل؟

- أنـت تعمـل فى منظمتـى وأنـا مـن يعطـى التعليـمات لكلاوديـو بمـن سـينفذ كل عمليـة، أنـا مـن عينتـك واخـترت لـك مهماتـك بنفسـى، أنـت بـارع فعـلًا

- وهذا الرجل؟

- يجـب أن تشـكرنى لأننـى قتلتـه، لقـد كاد أن يهـد المعبـد عـلى

رؤوسنا، لديه شكوك بشأن منظمتنا ولم يتوقف عن البحث وراءنا والأسوأ من ذلك، أنه قدم هذه الشكوك للسلطات هنا، هل هذا كافٍ لقتله؟ أم كنا ننتظره ليدمرنا جميعًا

كان يتحدث بثقة وهدوء بل وبدا يخطو لإنارة الغرفة من جديد ويتحرك حولى أثناء الحديث مما دفعنى لرفع اللثام، فلم يعد له داعٍ، اقترب منى وهو يبتسم.

- مؤسف أن يكون لقاءنا الأول هنا، ومؤسف أكثر أن يكون الأخير.

قالها بعد أن انتزع منى المسدس انتزاعًا بشكل فاجأنى بعد أن أرخيت يدى نتيجة ما سمعته من مفاجآت، صار مسدس كاتم الصوت بيديه ووجهه لى، لم أتخيل أبدًا أن يتطور الأمر لهذه الدرجة:

- أنت من جئت لتقتحم غرفتى وتهددنى بهذا السلاح، لا أحد يجرؤ على التفكير فى ربع ما فعلته، لقد أنهيت بفعلتك عملك معنا وأنهيت عمرك كذلك، الوداع يا عاصم

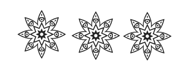
هنا دوى صوت رصاصة عاليًا رجت أنحاء المكان، من سلاح آخر نزعته فى خفة من وراء ظهرى أسفل ملابسى، حملته على سبيل الاحتياط فى حالة فشلت فى دخول المكان أو قابلنى حراسه الشخصيين أو نفذت طلقات المسدس الأول منى، لو لم يكن معى هذا السلاح كنت الآن ميتًا ميتة سريعة، لم أتخيل أبدًا أن تتطور الأمور بهذا الشكل، سقط ماركو والدم ينزف منه بغزارة بالطبع كان من المستحيل الخروج سالمًا عقب هذا الدوى الهائل، تم الإيقاع بى بعد أن أحاطونى من كل اتجاه، وبعد أن أفرغت طلقات كلا السلاحين.

بعـد دقائـق حـضر تونـى ليجـد أخـاه مقتـولًا، بكـى متأثـرًا ثـم سريعًـا وجـه لى اللكـمات بقسـوة وهـم ممسـكين بـى:

- أنـت سـتتمنى ميتـة سريعـة كهـذه ولـن تنالهـا، لـن أهـدأ إلا وأنـا أراك تتلـوى تتـألم تئـن تشـتعل بالنـيران تمامًـا كالعشـب الـذى يحـترق.

بعـد حفلـة تعذيـب وصلـت إلى الجزيـرة، لألقـى مصـيرى عقابًـا عـلى جريمـة لم أنـوِ ارتكابهـا لكنهـا وقعـت بيـدى، الآن علمـت بأنـى أنـال جزائـى لجرائـم ارتكبتهـا تخـدم المنظمـة ولا تخـدم العـدل والعدالـة كـما يدعـون، حتـى لـو كان هنـاك مـن يسـتحق القتـل تطبيقًـا للعـدل، فـلا يجـب أن يتـم ذلـك بيـد مـن تلوثـت أناملهـم بضحايـا أبريـاء.

لـن يغـير النـدم مـن الأمـر شـىء وإن كان أكثـر مـا يحزننـى يقينـى بأنـى لـن أرى ليـلى مـن جديـد.



«تصور حجم ما مات فينا حتى تعودنا على كل ما يجرى حولنا.»

ممدوح علوان

(26)

يحي 2014

برغـم كل شـيء مازلـت حيًـا تـرزق، قاومـت رغبـة شـديدة فى الانتحـار، رغـم مـا يعتريـك مـن يـأس، مـا أصعـب أن تعيـش دون رجـاء، دون أمنيـة تأمـل أن تتحقـق، حقًـا لم يعـد لديـك مـا تطمـح إليـه، ليس هنـاك أمـر قـادر عـلى منـح حياتـك لونًـا مختلفًـا، تسـتمر فى عملـك وتنفـذ مهامـك هنـا وهنـاك، وأنـت لا تـدرى أخـر هـذه الحيـاة، بالطبـع لم يعـد ممكنًـا الاحتفـاظ بحسـام فى نفـس المـكان مـع سـالم، مـا سـيدور بداخـل السـلخانة الموجـودة بالقبـو مـع سـالم يصعـب اطـلاع حسـام عليـه، يكفيـه مـا تعـرض لـه منـذ اختطافـك لـه واحتفاظـك بـه هـذه الفـترة، لقـد دمـرت حياتـه تمامًـا وكل معارفـه احتسـبوه مـع الأمـوات، ولكـن أيضًـا لا يمكـن تصحيـح هـذا الخطـأ بالإفـراج عنـه، هـذا مسـتحيل ، لـذا سـتبقى عليـه مـع تحسـين ظـروف حبسـه، فى غرفـة أخـرى معزولـة قليـلًا، أغلقـت مخارجهـا بشـكل آمـن وضعتـه، خففـت قيـده قليـلًا بسلسـلة معدنيـة أخـف سـمكًا، يمتـد طولهـا حتـى حمـام خـاص بالغرفـة، ضيـق جـدًا بـلا فتحـات عـلى أحـد جدرانـه مـرآة كبـيرة، لا تتناسـب أبـدًا مـع مسـاحة الحـمام، اهتممـت بنوعيـة الطعـام

المقدمــة لــه نوعًــا، لا مانــع مــن تبــادل بعــض الكلــمات معــه، حــاول ذات مــرة أن يطلــب منــك أن تدعــه يذهــب مــع وعــد بعــدم إفشــاء أى سر مــن أسرارك، إجابتــك جــاءت عســيرة الفهــم أو هكــذا فهمــت مــن تعبــيرات وجهــه، حــين قلــت لــه

- خلاصــك لا يكمــن فى هــذه الغرفــة، الخــلاص ينتظرك فى مســاحة بالغــة الضيق.

قلت هذه الجملة وكم تمنيت لو تمكن من فهمها.

مزيــج مــن الخــوف واليــأس وعــدم الفهــم ســيطر عليــه، خاصــة وأن المفهــوم مــن كلامــك يقــترب كثــيرًا مــن القــبر أنــت نفســك لا تعــرف إلى متــى ســتحتفظ بــه هكــذا، ولكــن فى الوضــع الحــالى عليــه البقــاء هنــا مــع عــدم إحــداث أى إزعــاج قــد يــؤدى بــه للعــودة داخــل القبــو ومشــاهدة مــا يــدور بداخلــه، أنــت تعلــم بالطبــع أن حســام الميرغنــى لم يكــن مــلاكًا فى حياتــه وبالطبــع ارتكــب جرائــم تمكــن مــن التهــرب منهــا بفضــل نفــوذه ومالــه، لكنــه كــما تبــين ليــس لــه صلــة بــما جــرى لولــدك، لــذا ســتبقيه معــك حتــى حــين، أمــا ســالم فصراخــه يمــلأ جلبــات المنــزل مصحوبًــا بموســيقى صاخبــة تغطــى عــلى هــذا الــصراخ، يبــدو أنــك شــاهدت الكثــير مــن أفــلام الجاســوسية يــا يحيــى لأنــك اتبعــت معــه أســاليب كثــيرة منهــا، وعــلى ســبيل التنويــع وقــع فى شراك تحديــات مهلكــة كــما يحــدث فى الأفــلام الأمريكيــة، لقــد برعــت كثــيرًا فى إيلامــه، صــارت حياتــه ويــلات متعاقبــة، لقــد جاءتــك الفرصــة ولــن تضيعهــا، ولكــن الأهــم أن تبقيــه حيًــا، لقــد صــار تعذيبــه متعتــك، وصراخــه يطربــك، مــا ألــذ الانتقــام حــين يأتــى عــلى نــار هادئــة، لقــد كرســت القــادم مــن عمــرك لهــذا الغــرض.

استمرت عملياتك مع المنظمة شهورًا أخرى وأنت تحقق نجاحًا وراء نجاح، ثقتك بنفسك كانت عاملًا أساسيًا، ليس هناك ما هو أحب إليك من الإجهاز على مجرم سواء بهدف خطفه أو قتله، كل ما هو من شأنه تخفيف ألم ما أو وضع حد لجريمة ما كان يلاقى حالة من الرضا تنشأ بداخلك، بعض المصائب قد تهون حين يعود الحق لأصحابه أو حين يحصل الجانى على جزائه، فما بالك لو كان هدف المنظمة مواجهة القسوة بالقسوة والعنف بالعنف، ورغم أنك طالما احترت فى أمر هذه المنظمة، خاصة وأن أصحابها غربيين لم يعانوا كما تعانى دول أخرى أقل اقتصاديًا واجتماعيًا، إلا أن تيقنك بأن هناك من يكترث بأمر الضعفاء والحصول على حقهم والانتقام لهم كان له مفعول السحر فى إنجازك لكل مهمة، مع إضفاء لمستك الخاصة وأنت ترى المفاجأة فى عيون أهدافك وأنت تذكرهم بجريمتهم التى يعاقبون عليها، لقد حصلت على حسام واحتجزته لديك دون أن يدرى جريمته، وها أنت يثبت لك بعد فترة براءته مما اتهمه به سالم الملاح، لذا وبعد هذه الصدمة لم تكتف بما تخبرك به المنظمة بشأن هدفك أو حتى ما تجده فى تحريك عن المعلومات التى تمدك بها، كان هناك ما هو أضمن، ما هو أقوى، تلك النظرة التى تراها فى عيونهم حين تفصح لهم عن جريمة ارتكبها، فى هذا الوقت يباغت الهدف بالصدمة وترى فى عينيه اعترافًا ضمنيًا بجريمته وذلك إما بإبداء الندم أو التوسل أو حتى محاولة الفكاك منك وكانت أغرب الأمور التى لم تخطر ببالك حين عرض عليك أحدهم أن تتركه يفر مقابل منحك مالًا وفيرًا يؤمن حياتك ويضمنها حياة كريمة حتى مماتك، جميعهم أدرك أن نهايته موشكة فكان يحاول إنقاذها بواحدة من الوسائل السابقة،

إنها لحظة الحقيقة، لحظة المواجهة، اللحظة التى يتسنى لهم فيها مشاهدة الموت وهو قادم لقبض روحهم، لا مجال للكذب هنا ولا للخداع، حتى جاء تكليفك من قبل المنظمة باغتيال الأيرلندى جيمس لامبارد والذى كان ضابطًا بقوات حفظ السلام بواحدة من الدول الأفريقية الغير مستقرة والتى تشهد حربًا أهلية ونزاعات، هذا الرجل أشرف وشارك فى عدد من الانتهاكات والجرائم التى تمارسها القوات ضد المواطنين الأفارقة، إنهم الموكلون بحمايتهم ولكن عوضًا عن ذلك كانوا أول من نهشوهم، ورغم ضلوعه فى تلك الجريمة الآثمة، إلا إنهم غضوا الطرف عنه، وهو يعيش آمنًا الآن وسط حراسة خاصة بعد ما جنته يده من قتل وعدوان، بالطبع وطنه يوفر له الحماية كى يبقى بعيدًا عن أى عقاب، ولكنه لن يفر بفعلته، كل ما عليك هو قتله، حصلت على عنوانه فى إنجلترا وأماكن تحركاته، تم تحذيرك من الحراسة المشددة التى تحيط به، أى خطأ قد يودى بحياتك، كالعادة تحريت حول تلك المعلومات، وجاءت نتائج بحثك لتؤكد تقرير المنظمة هناك بالفعل جرائم من قبل قوات حفظ السلام ضد المواطنين بتلك الدولة الأفريقية، وقائمة من الجنسيات المشاركة فى هذه القوات بالطبع أيرلندا إحداها، وجيمس لامبارد أحدهم، فلتودع هذه الأرض يا جيمس!

تذهب إلى حيث يعيش، تراقب خطواته، تدرس مسكنه والمنافذ المؤدية إليه والثغرات الأمنية إن وجدت، عادة لا يوجد نظام حراسة بلا ثغرات، فقط عليك أن تنتبه جيدًا لأن أى ثغرة قد تتحول لفخ، إن لم تحسن استغلالها، تتخذ احتياطاتك وتعد أدواتك، لقد فعلتها مرارًا، وستفعلها الآن، كل ما عليك أن تدلف لهذا البرج الشاهق،

تدلف لواحدة من الوحدات السكنية العلوية للطابق الذى يخص جيمس وفى نفس صف شقته، بالتأكيد ما يعلو شقته وما دونها لا يحظون بهذه الحراسة المشددة، فقط الإجراءات المعتادة المتبعة، وهذه لا تشكل أزمة لك فقط بشرط ألا يراك أحد وقت اقتحامك لواحدة منهم.

ومع بدايات العام الجديد وكأمثل ما يكون لشتاء يناير فى انجلترا ووسط درجة حرارة منخفضة للغاية وشعور قارص بالبرودة وريح تجمد الأطراف وتلفح الوجوه بصقيع يكاد يصل لدمائك لولا حركتك السريعة التى تمنحك بعض الدفء، أنت فى أمس الحاجة إليه، أنت الآن فى الشرفة العلوية لشرفة جيمس، أى فى الطابق العاشر كل ما عليك أن تتدلى بحبل مربوط بإحكام للهبوط فى قلب شرفته، هذا الطقس يقيك نظرات قد تحيط بك من شرفات مواجهة، أنت الآن كفأر يزحف على واجهة بناية لا أحد يلحظ وجوده أو يسمع له صوتًا، فقط تشبث جيدًا، لا تحدث جلبة أكثر من اللازم، عالج مزلاج الشرفة بهدوء وحكمة وما أيسر ذلك عليك، ستجلس بانتظاره إن لم يكن بالداخل، وستتعامل معه فى حال وجوده، ستدعه يفهم بجملة مقتضبة وبعدها ستفرغ طلقة فى رأسه من مسدس كاتم الصوت الذى بحوزتك، ظلام مدلهم يجثم على غرفة نومه، إما إنه بالخارج، أو فى أحد الغرف الأخرى يحتسى الشاى أو يشاهد التلفاز، ستنتظر حتى يأتى لغرفة نومه وهو فى أوهن حالة ممكنة لتسليم نفسه لسلطان النوم، ولكنك فقط ستحول الطريق ليجد نفسه فى مواجهة سلطان الموت، لا يستمر انتظارك طويلًا وراء ستارة سميكة فى مواجهة فراشه، تتمايل أطرافها دون أن تهدد تخفيك مع نسمات الهواء المتسربة من الشرفة

الغير مغلقة بإحكام، ولكنه نفس وضعها كما تركها جيمس لقد رأيت صوره وحفظت شكله، فى أواخر الثلاثينيات من العمر، شعره برتقالى وجه ذو بشرة بيضاء حساسة تتناثر عليها حبات النمش، متوسط الطول رشيق، لا تعول كثيرًا على ضعف لياقته أو بطء حركاته فهو أولًا وأخيرًا رجل له خلفية عسكرية يتمتع بلياقة ذهنية وعقلية، لن يكون صيدًا سهلًا كآخرين، لم يطل انتظارك، له زوجة وولدين لم يتجاوزا العاشرة من العمر ولكنه تركهما فى أيرلندا ويهاتفهم بشكل دورى للاطمئنان عليهم، فى تلقائية دخل إلى غرفة نومه، وأنار مصباح الغرفة لتتفرق الأشعة على الأنحاء وتثبت كل قطعة أثاث فى مكانها بعد أن كانت سابحة فى الظلام، يتجه إلى خزانة الملابس يستخرج منها منامة بنية اللون ثقيلة ليرتديها ويخلع بنطاله وقميصه الصوفى ذا الأكمام، ينظر لنفسه للمرآة الموجودة على يمين الفراش قبل أن يذهب مجددًا ليغلق المصباح ويفتح أباجورة صغيرة على الكومود بجوار السرير ويسحب بطانية عريضة حتى وجهه، تمر دقائق بطيئة حسبتها كافية ليغيب عن وعيه، تتسحب خارجًا من خلف الستارة، كل شىء فى مكانه، عدا هذه الإضاءة الخفيفة، تتقدم بخطوات مدروسة حتى فراشه، تخرج المسدس من مغمده، تغرسه فى جانب عنقه، يزيحه بيده وحين يلمسه تسحبه بسرعة بينما هو ينهض على الفور ليجد جسدًا واقفًا أمامه يصيبه بالرعب على مسافة متر، إنه أنت يا يحيى، تنظر له وتوجه له المسدس وتضع إصبعًا بشكل رأسي على شفتيك كى لا ينطق حرفًا، الذعر واضح فى عينيه، يرفع كفيه مستسلمًا وبإنجليزية واضحة وبصوت مرتعش:

– هيا.. أقتلنى.. بسرعة أرجوك، كنت أعلم أنهم لن يتركونى.

ثم يغمض عينيه بعدها انتظارًا لرصاصتك التى تأخرت قليلًا،

لم يطالبـك أحدهـم مـن قبـل بسرعـة قتلـه، جميـع مـن سـبقوه يتوسـلون، يقاومـون، أمـا حالـة الاستسـلام التـام هـذه لم تقابلـك مـن قبـل ، كنـت عـلى وشـك ضغـط الزنـاد قبـل أن تسـأله:

- هل ندمت على فعلتك؟

يفتـح عينيـه ببـطء، فاجـأه سـؤالك ولم يعـرف أيطالبـك بسرعـة قتلـه مـن جديـد أم يجيـب سـؤالك؟! إنـه خائـف وضائـع ولكنـه مـع ذلـك يجيـب فى ثبـات:

- بالطبع لا، لم أندم، لقد أخطأوا وعليهم دفع الثمن

اسـتفزتك إجابتـه بشـكل كامـل دفعتـك لسـحب الزنـاد وأنـت تقـول:

- أى خطأ وأى ثمن هذا؟ أنتم من تعديتم عليهم

يحدق فيك طويلًا وقد اكتسب قليل من الثقة.

- لا أفهـم مـا تقـول، أنـا رجـل شـاهد جرائـم مـن قبـل قـوات حفـظ السـلام ولم أسـتطع السـكوت عنهـا، مـاذا عسـانى أفعـل؟ بالطبـع أبلغـت عنهـم، كنـت أعـرف أنكـم سـتتعقبونى ولكنـى أفضـل عيـش الباقـى مـن عمـرى مطـاردًا عـلى العيـش نادمًـا

ثم يرجع لخوفه من جديد.

- هيا لا تكن أحمقًا، أطلق الرصاصة الآن!

تتراجـع فى ثبـات وأنـت غـير مصـدق، هنـاك مـن يخدعـك إمـا المنظمـة وإمـا هـذا الرجـل، عـلى أيـة حـال مخادعـك لـن ترحمـه، فقـط تتثبـت منـه وتسـأله بحـزم:

- ومـا دمـت بهـذا النبـل فلـماذا هـذه الحراسـة مـن حولـك والتـى لا تفارقـك؟

- الفشـلة بالخـارج الذيـن مكنـوك منـى أو غفلـوا عنـك، إنهـم تابعـون لبرنامـج حمايـة الشـهود، ولكنـى لم أعلـم بانعـدام كفاءتهـم إلى هـذا الحـد حتـى اليـوم، مـن الرائـع أن يواصـل المـرء التعلـم حتـى قبـل موتـه بدقائـق أو ثـوانٍ

تقترب منه بسرعة وقد أذهلك كلامه

- وهل لديك دليل على كلامك؟

- بالطبع

يقـترب مـن الخزانـة، تحـذره، فيبتسـم فى ود، يزيـح بعـض الملابـس لتسـقط مـن خزانـة الملابـس كاشـفة عـن صنـدوق صغـير، خزانـة صغـيرة داخـل خزانـة الملابـس يفتحهـا بـتروٍ قبـل أن يسـحب منهـا بعـض الأوراق ويسـلمها لـك، تقرأهـا سريعًـا فى حـذر بينـما عينـك لا تهـدأ بـين النظـر إليـه وبـين قـراءة الـورق تحسـبًا لأى حركـة غـادرة، لقـد تيقنـت بأنـه لا يتلاعـب معـك، كلامـه صحيـح مائـة فى المائـة وفقًـا لـلأوراق بحوزتـه، بالطبـع لم يجهزهـا لعرضهـا عـلى أول قاتـل يبغـى قتلـه، المنظمـة هـى مـن لعبـت بـك وأرادت توريطـك فى عمليـة قتلـه لصالـح مـن شـهد عليهـم ومـن ورائهـم مـن دول ومسـئولين، بموتـه لا يكـون هنـاك دليـلًا واحـدًا يدينهـم ويفلتـوا مـن العقـاب بـكل يـسر، المفاجـأة أبطـأت تفكـيرك ولم تكـن فى وضـع جيـد، يمكنـه الآن الانقضـاض عليـه، لقـد شـعر بـترددك وهـى فرصـة يعرفهـا أى مقاتـل، ابتعـدت للـوراء مجـددًا، لا تعـرف مـا هـى خطوتـك التاليـة، بالطبـع لـن تقتـل بريئًـأ

- هل تستطيع أن تختفى؟

- ماذا؟

- أنت مطلوب قتلك، لا أدرى الجهة التى تريد قتلك ولكنها مصرة على ذلك، لقد أفلت اليوم من الموت، لن ترانى ثانية ولا أريد أن أسمع خبر موتك فى الأيام القادمة، لا تتأخر، فِر بأقصى ما تستطيع ساقيك!

ثم تعود إلى الشرفة سريعًا، لتتسلق الحبل المتدلى وتتسند على جدار النافذة، تتمنى ألا تفاجأ بما يعرقل هروبك أنت أيضًا فى الطابق العلوى، وتتمنى أكثر ألا تنقلب الدنيا رأسًا على عقب بحثًا عنك بعد أن يستدعى جيمس الرجال المكلفة بحراسته، لقد ارتكبت حماقة يا يحيى بمغادرتك بهذه الطريقة، فما أسهل العثور عليك، لم تتوقف ستؤجل التفكير فى الصدمة التى تلقيتها اليوم إلى ما بعد تأمين رحيلك، أما جيمس فارتكب نفس الحجم من الحماقة حين انتظر طويلًا غير مصدق بأنه قد نجا من موت محقق، جلس يراقبك وأنت تهرب وشعور يسيطر عليه بأنه قد وُلِد من جديد، لقد تأخر كثيرًا فى استيعاب الموقف وحين استفاق اتصل بالرجال المكلفة بحراسته ولكن كنت يا يحيى قد تمكنت من الفرار، تتصل بكلاوديو، تخبره بنجاح العملية، تطلب لقاءه فى اليوم التالى، تستقل الطائرة المتوجهة إلى فرنسا، لا تدرى ماذا تفعل أو ما التصرف الأمثل، لكن المؤكد أن علاقتك بالمنظمة تلفظ أنفاسها الأخيرة.

كم كنت ساذجًا يا يحيى حين سلمت نفسك لهذه المنظمة، ترى كم برىء قتلوه! كم هارب من الموت حصلوا عليه! كم روح أزهقوها! لقد استطاعوا خداعك كثيرًا، هناك أسئلة عليك أن تجد إجابة لها؟ هل هذا أول برىء طلبوا منك اغتياله؟ لو كان لا فمن ممن قتلتهم؟ ولو كان نعم فلماذا الآن؟ من الذى يختار عملياتك

وهـل هنـاك وسـطاء آخريـن غـير كلاوديـو أم أنـه المسئول المبـاشر عقـب أصحـاب المنظمـة؟

فى صباح اليـوم التـالى تلتقيـه فى مارسـيليا، يبـدو عـلى وجهـه القلـق خاصـة وأنـه غـير معتـاد أن تطلبـه للقـاء، تطلـب منـه الذهـاب معـك لمنزلـك الجديـد بعـد أن تقـول:

- لقـد قـررت التخلـص مـن سـالم بعـد مـا اسـتنفذت وسـائل تعذيبـه، لابـد وأن للمؤسسـة طرقهـا أيضًـا للانتقـام، سـأمنحه لـك ولكـن بعـد أن تطلعنـى مـا خططكـم بشـأن أمثالـه.

- الجـزاء مـن جنس العمـل لدينـا يـا يحيـى، سـالم كان يخطـف الأطفـال ويبيـع أعضائهـم البشريـة، هـذا هـو مـا سـنفعله بـه تحديـدًا، سـنأخذ منـه عضـوًا عضـوًا وهـو حـي، وحـين تخرج روحـه لا أظـن سـيبقى الكثـير فقـط جلـد بـشرى وعظـم وأعضـاء ليسـت ذات فائـدة،

- رائع سأسلمه لك الآن، هل من مانع؟

- بالطبع لا، فقط يكون مخدرًا لوقت كافٍ

يلاحظ ابتعادك كثيرًا عن العمار أثناء القيادة ويتساءل ساخرًا :

- هل استأجرت كوخًا فى الغابة أو شيئًا من هذا القبيل؟

- تعلـم المصيبتـين اللتـين لـديّ، ينبغـى توخـى الحـذر ألم يكـن هـذا كلامـك؟

يبتسـم فى قلـق، تـسرع فى القيـادة حتـى تصـل إلى منزلـك الهـادىء والشـارع الـذى ليـس بـه سـواكما، تـتركا سـياراتيكما بالخـارج، ثـم تدلفـان إلى منزلـك الهـادىء، ترحـب بـه، تطلـب منـه الجلـوس فى بهـو المنـزل التقاطًـا للأنفـاس، ومـا إن تهـدأ، تعـد فنجانًـا مـن القهـوة لكليكما تحتسـيها ببـطء وأنـت تطيـل النظـر إليـه، يبـدو متعجـلًا كلاوديـو.

- فور الانتهاء من القهوة سأحمله إلى سيارتك، لن يستيقظ قبل يومين على الأقل.

ولكن لماذا يشعر بثقل رأسه؟ لماذا أضحت الرؤية غير واضحة، لماذا يرى جسدين وثلاثة فى نسخ مكررة منك ترمقه بخبث، هذه القهوة ليست نظيفة، مالذى فعلته يا يحيى؟ ما الذى وضعته فى فنجان القهوة؟ ستندم على ذل.. ؟ لم يستطع كلاوديو إكمال باقى الجملة التى دارت فى رأسه، سقط على رأسه ممددًا بنصف جسده العلوى على الأريكة بينما النصف الأسفل يتدلى بشكل مائل مستندًا على الحذاء، بسرعة تخلع حذاءه وسترته وتجره جرًا نحو القبو، تفتح نور الغرفة فيبدأ سالم المعلق شبه عاريًا بالتململ وهو لا يكاد يتبين شيئًا من فرط ما يلاقيه، يظن أنه على موعد مع وجبة جديدة لا تحتمل من العذاب، ولكنه يلاحظ انشغالك عنه بضيف جديد، إنه ليس حسام، بالطبع لا يعرف كلاوديو ولا ما هى جريمته وإن كان يظن أنه رآه من قبل، لا بد أنها شنيعة لتأتى به إلى هنا، يشاهدك بينما تقيد يديه خلف ظهره ثم تشبك يديه بخطاف متدلى من السقف، كانت الجرعة المخدرة خفيفة، تحاول إفاقته دون جدوى، فتحضر دلوًا من الماء وتسكبه على جسده، لينتفض ويحاول أن يحرر نفسه بلا جدوى.

- ستندم يا يحيى على ذلك كثيرًا

ضربة موجعة فى معدته، تبعتها صرخة قوية من الألم وأنت تضحك.

- لم يُخلق بعد من يهدد يحيى ولكن مع ذلك يمكننى تصحيح هذه المعلومة لك.

لا أحـد يعبـث معـى، ومـن يخدعنـى يدفـع ثمـن ذلـك وكان ذلـك اتفاقـى للعمـل معـك قبـل الانضـمام، جيمـس لم ينتهـك أو يتعـدى عـلى أحـد فى أفريقيـا، فلـماذا أردتـم قتلـه؟

– لن أتحدث هكذا يا يحيى، أنزلنى ويمكننا التفاهم

– لن تملى عليّ تعليماتك مرة أخرى كلاوديو، وستتحدث.

يصمـت بينـما تنظـر لـه فى تحـدٍ ثـم تخطـو خطـوات وتنحنـى لتلتقـط عصـا معدنيـة تضعهـا فى فـرن أمامـك نقلتـه إلى القبـو كأداة مـن أدوات تعذيـب سـالم التـى لا تحتمـل، بينـما تمسـكها مـن طرفهـا، يراقبـك كلاوديـو فى توتـر.

– مـاذا سـتفعل يحيـى؟ لا تتهـور، نحـن نعمـل معًـا وأى خـلاف يمكــن تسـويته.

– فقـط سـترد عـلى إجاباتـى وإلا سـأجعل سـالم يخـبرك أيـن أضـع هـذا السـيخ، لمـاذا أردتـم قتل جيمـس، المنظمـة لا تقتـل إلا من يسـتحق، هكـذا وافقـت عـلى العمـل معكـم، لمـاذا الآن؟ ولمـاذا جيمـس؟

– المنظمـة بحاجـة لحمايـة، هـذه الحمايـة لـن تتوفـر إلا مـن جهـات لهـا طلبـات محـددة، واحـد مـن هـذه الطلبـات كان مقتـل جيمـس.

– وهل هناك جرائم أخرى تندرج تحت هذا البند؟

– مـن الأفضـل لـك ألا تعـرف يحيـى، كلـما قلـت معرفتـك، كان ذلـك أسـلم لـك.

– قلت لك لا أحد يهددنى.

– أنـا لا أهـددك يحيـى، فـك قيـدى وسأنسـى مـا حـدث الآن، أعـدك بذلـك.

- كيم لى يونج الصينى الذى اختطفته وكذلك مالدينوف الروسى أين ذهبوا؟

- قُتلوا.

- أنت كاذب، كان بإمكانكم تكليفى بقتلهم كغيرهم، أعلم أن هناك من يتاجرون بالأعضاء وهؤلاء تأخذون أعضائهم تباعًا وهناك من تصفون دمائهم، ولكن من هو متورط فى قتل عشرات ومئات أين يذهبون كلاوديو؟

- لا تسأل فيما لا يعنيك يحيى، ولا تنس أننا من أحضرنا إليك هذا الكلب الذى تعاملنى مثله.

- وقد دفعت ثمن ذلك، تخليت عن عملى وغادرت بلدى وصرت ميتًا فى نظر الجميع وكان شرطى ألا أُخدع، أنتم من بدأتم، أجب على سؤالى كلاوديو، كل من اختطفتهم لصالحكم ما مصيرهم، هل كانوا مذنبين أم خدعتمونى بشأنهم؟

تصيح فيه بغضب ولا يقابل ذلك إلا بالصمت، فيزداد جنونك تضع السيغ على الأرض وتهم بخلع ملابسه بينما هو يتلوى مقاومًا، وتجذب قميصه وبنطاله وتشدهما بعنف، بينما هو يصرخ «لا يا يحيى لا تفعل!» تمسك بطرف السيغ من جديد وتنظر له بحزم.

«أنت من اخترت ذلك» فيصيح :

- انتظر، سأقول لك كل ما تريد، هناك جزيرة فى المحيط الهادىء، لا تخضع لحكم دولى، جزيرة صغيرة يصعب الوصول إليها، سكانها محدودى العدد، من نحصل عليه حيًا، يذهب إلى هناك، وما يحدث هناك لن تجده فى أى مكان آخر، نهايات بشعة لأناس تجردوا من الرحمة، ترى المنظمة أن هذه هى الطريقة المثلى للانتقام منهم، الموت ألمًا، المؤسسة لا ترحم من يخطىء ويقع فى براثنها

- ولكنها لا تتردد في قتل أبرياء أيضًا!

- هـذا لحمايـة مصالحهـا يـا يحيـى، إنهـا تعتنـى بـالألاف فى كل مـكان، وتنتقـم لهـم أيضًـا، يجـب أن تبقـى، لقـد حاولـت دومًـا إبعـادك عـن تلـك الجرائـم، ولكـن نعانـى نقصًـا الآن فى عـدد الرجـال، وأنـت واحـد مـن أكفأهـم.

- آسـف، كلاوديـو ذلـك لـن يشـفع لـك عنـدى، هنـاك أبريـاء قتلـوا بتعليـمات منـك أو مـن باقـى رجـال المؤسسـة، العدالـة تقتـضى أن تلاقـوا نفـس المصـير

وبينـما تواصـلان الحديـث، لا تنتبـه إلى صـوت الهاتـف المحمـول الخـاص بكلاوديـو والموجـود فى سـترة بذلتـه، والـذى لم يتوقـف عـن الرنين منـذ وصولكـما إلى القبـو ولم تقـرأ الرسـالة التـى أرسـلت إليـه وكان نصهـا

«جيمـس لم يُقتـل، إنـه كـذب عليـك، احـذر منـه، نحـن فى الطريـق إليكـما»

- أتعلـم كلاوديـو، دومًـا تسـاءلت «مـا نهايـة هـذه الحيـاة التـى أحياهـا؟» كنـت أتعجـب مـن اسـتمرارى هكـذا، لقـد حصلـت عـلى سـالم ويمكننـى قتلـه وقتـما شـئت، عسـير الاسـتمرار فى هـذا العمـل وهـذه الحيـاة، لا بـد مـن نهايـة، وجـاءت بـأسرع ممـا أتخيـل وبشـكل لا أتوقعـه، فقـط سـأنتهى منكـما وأتـرك هـذا البلـد وهـذا العمـل وسـأختفى، منظمتـك لـن تعثـر لى عـلى أثـر ثانيـةً.

- لا تقتلنـى يـا يحيـى، يمكننـى مسـاعدتك، يمكننـى إقناعهـم بأنـك مـت، لقـد فعلناهـا مـرة مـن قبـل وسـنفعلها ثانيـة.

كان وجهـه محتقنًـا محمـرًا عينـاه متسـعتان عـن آخرهمـا وهيسـتيريا تنتابـه، هـذا رجـل عـلى مشـارف المـوت يواجهـه بكامـل وعيـه بغتـة.

تومـيء برأسـك أن لا فائـدة، فمـن جديـد يلهـث والـرذاذ يتطايـر مـن فمـه فى محاولـة لإلقـاء مـا بداخلـه مـن كلـمات

- اسـمع يحيـى، لا يـزال لـدى سر صغـير حتـمًا سـيفيدك ، فقـط اتركنـى وسـأخبرك بـه.

- لا اهتم بأى أسرار تخص منظمتك

- إنه لا يخص المنظمة وحدها، يخص شخصًا تعرفه جيدًا.

- من هو؟

لقـد بـدأ بإثـارة فضولـك، لقـد انقطعـت كافـة الخيـوط التـى كانـت تربطـك بـكل معارفـك منـذ زمـن، ولكـن لا تنكـر بأنـك قـد اشـتقت إليهـم جميعًـا، لقـد ماتـوا فى عينيـك مـن قبـل عقـب وفـاة آسر وأنـت كذلـك مِـت فى عـين الجميـع، ولكنـك تشـتاق للحظـة البعـث مـن جديد.

- انطق، كلاوديو

- ليس هكذا يتم التفاوض يا يحيى.

تبـدأ فى إنزالـه مـن الخطـاف ليقـف عـلى الأرض بقدميـه دون أن يحفـظ توازنـه بشـكل كامـل ويسـقط عـلى الأرض، يطلـب منـك فـك قيـود يديـه ولكنـك ترفـض بغضـب:

- إن لم تنطـق الآن سـأضع هـذا السـيغ عـلى رقبتـك، فقـط مـن أجـل أشـياء كثـيرة سـأنتهى مـن أمـرك سريعًـا، يـرى العـزم فى عينيـك فيـدرك بأنـه لا فرصـة ويلعـن الأغبيـاء الذيـن تأخـروا لقـد أخبرهـم قبـل الحضـور بوجـود شـىء غـير اعتيـادى معـك، لديـك شـكوك تجاهـه، يجـب أن يبقـوا عـلى اتصـال معـه، وأى تأخـير فى الـرد يعنـى خطـورة شـديدة، كل مـا كان بحاجـة إليـه كلاوديـو، المزيـد مـن الوقـت حتـى يتمكنـوا مـن الوصـول إليـه، لقـد بـدأ صـبرك فى النفـاذ، لا بـد مـن إثـارة فضولـك لأطـول وقـت ممكـن قبـل أن تقـدم عـلى أى حماقـة

- عاصم!

- عاصم من؟

- عاصم زيدان صديقك؟

عاجلتك صور ومضت فى رأسك بسرعة البرق تخص عاصم، ذلك الوجه الذى كدت أن تنساه، الشاب الذى طالما سعى دائمًا إلى التقرب منك، القناص الذى لم يخطئ مرة واحدة، الشخص الوحيد الذى يمكنك أن تمنحه صفة صديق بالفعل.

- ما له؟ وما صلتك به؟ وكيف عرفت اسمه؟

- صلة وطيدة بالطبع لا تقل عن صلتى بك قبل أن تُجن وتريد قتلى

- ماذا؟

- إنه واحد من أفراد المنظمة، يعمل لحسابها ويصطاد أهدافها مثلك تمامًا، بارعون أنتم حقًا أيها المصريون

- كيف أقنعتموه بالانضمام لكم؟

- لكل منا كعب أخيل، نقطة الضعف التى لا نستطيع معها المقاومة

- أين هو الآن؟

- إنه على سطح هذه الجزيرة، عقب خروجى من هنا يمكننى إبلاغك باسمها ومكانها وكيف تصل إليها، ولا يزال عرضى ساريًا، أخرجنى من هنا يحيى، واختفِ كما شئت، سأخبر المنظمة بموتك، لا تهدر وقتًا ليس فى صالحك

لم تفهم ما يعنيه وليتك فهمت، لقد شتت تركيزك تلك المعلومة التى حصلت عليها بشأن عاصم، أنت بحاجة للتركيز،

بحاجة للتفكير، هل تصدقه بشأن عاصم؟ ماذا لو كان يخدعك من جديد؟ ماذا لو كانت هذه خطتهم فى الحالات المماثلة؟ يجب ألا يراك مترددًا هكذا، تصعد الدرج لتغادر القبو، لدقائق من التفكير قبل اتخاذ قرار نهائى سريع بشأن هذا المنزل وما يحتويه من أوغاد، وبمجرد خروجك من القبو وإغلاق الباب، يهبط على رأسك أخمص بندقية يعقبها ضربات متتالية على جسدك من أيادٍ متحفزة مصممة حتى تسقط فاقدًا الوعى.

يتم تحرير كلاوديو، يأمر بتفتيش المنزل وجلب كل ما يحتويه من أوراق، يحملونك أنت وسالم معهم، كان كلاوديو يعلم أن حسام لا يزال موجودًا هنا داخل المنزل، يبحث عنه، يصعدون إلى غرفة موصدة بالمفتاح، يكسرون الباب، لا يجدون أثرًا له، فقط سلسلة معدنية طويلة وشبابيك موصدة بإحكام مسدودة تمامًا من الداخل ومساحة ضيقة جدًا شبه مربعة لا تتجاوز مترين، على أحد جدرانها قطع من زجاج مهشم يتوسطها شباك صغير الحجم ولكنه يكفى لمرور إنسان، يقود هذا الشباك إلى الحديقة الخارجية إذا ما استطعت القفز ومنها إلى الشارع، بالطبع لم يفهموا أن المرآة كانت تغطى الشباك بالكامل ووراءها وُضع أداة لفك القيد، كان حسام بحاجة لتفسير جملة أخيرة سمعها منك يا يحيى هى «خلاصك فى مساحة بالغة الضيق» وكان لديه كل الوقت ليفهم، لقد هرب من الحمام الضيق بعد أن كسر مرآته ليجد مفتاح القيد وراءها. لقد حل لغز الأحجية وهرب حسام عبر المنفذ الملغز بينما وقعت أنت فى حفرة حفرتها بيديك.



«أيها الغريب إلى أين أنت ذاهب؟
أمامك ظلمة، ووراءك خوف، وفى داخلك قفص!»

أبو حيان التوحيدى

(٢٧)

روبيرتو روسّى

(2014 - 2013)

فى اليوم التالى غادرت الجزيرة، لم أحتمل البقاء وسط هؤلاء، فى طريق العودة أصابتنى وعكة صحية دامت أيامًا وأسابيعًا حتى تجاوزت مرحلة الخطر، دخلت خلالها إلى واحد من المراكز الطبية الشهيرة لعلاج الجلطات بإنجلترا، كنت تحت ملاحظة دائمة، تم اكتشافها مبكرًا وتم التعامل والسيطرة عليها مع وضع قواعد صارمة بالابتعاد عن التوترات النفسية والضغوط العصبية، طوال فترة علاجى كان ماركو دائمًا بجوارى، يطمئن علىّ ويبلغنى تحيات تونى الذى لم يزرنى سوى مرة واحدة لم تتجاوز دقائق، بعد شهور سمح لى الأطباء بالخروج مع الحرص على اتباع التعليمات، طلبت من ماركو العودة إلى إيطاليا وزيارة مؤسستى الخيرية، فطالبنى بالابتعاد عن العمل وضغوطه «تونى يتولى كل شىء، والأمر يسير كما ترغب دومًا» قالها ماركو بلطف.

أعلم ماركو، أنا فقط اشتقت لرؤية صديق قديم، مر زمن طويل على آخر مرة التقيته بها، أريد مقابلة لويجى، ألا يمكننى ذلك؟

- بالطبع عمى، ولكنه لم يعد يعمل بالمؤسسة، لقد ساءت حالته مؤخرًا وصار أسير المنزل يجلس وسط أحفاده.

تأثرت جراء ذلك ولكن يد الزمن لا تغفل أحدًا، ولكنى أصريت على زيارته فى منزله، رتب لى ماركو لقاءً معه فى منزله بروما، وصلت إليه بسيارتى بصحبة حارسى الخاص، طلبت منه انتظارى بالسيارة ، فُتح لى الباب، استقبلتنى ابنته بابتسامة بشوشة هادئة، دعتنى للدخول، أمسكت يدى لمساعدتى كى لا تتعثر خطواتى البطيئة، منزل واسع أنيق مرتب بعناية، لمسات أنثوية رقيقة موجودة بين أثاثاته وديكوراته، أطفال فى أعمار مختلفة يتطلعون بعيون فضولية لهذا الزائر العجوز، وصلنا إلى غرفة لا تقل أناقة أو اتساعًا، تغمرها إضاءة ساطعة، ورجل يجلس على مقعد متحرك، بمجرد دخولنا، استدار صائحًا بصوت ضاحك عالٍ:

«روبيرتو روسّى، صديقى العزيز، افتقدتك كثيرًا، ظننت أنى لن أراك قبل موتى»

«لذا، جئت أراك، لأودعك صديقى العجوز لويجى»

برغم اندهاشى من جلوسه على مقعد متحرك، لكنه لا يزال محتفظًا بروحه المرحة، ولم يكن من المقبول مقابلته بعبوث،

لا يتردد لويجى فى قبول المزاح كما لا يتوقف عن إلقاء النكات، لذا لم يصدمنى حين رد عليّ بضحكة مجلجلة

«يبدو أنك قد تخلصت من الجميع بالخارج، وبحثت فى ذاكرتك، ما هذا الملل؟ من يمكننا قتله الآن؟ هناك عجوزًا أعرفه يدعى لويجى، لما لانتخلص منه لقد أبقيناه طويلًا؟»

صحيح أنه قالها مازحًا وأنا معتاد منه على هذا المزاح، لكن يبدو أنى بصدد معرفة انطباع جديد عنى من صديق حميم، لذا حولت المزاح إلى الجدية « هل هكذا ترانى لويجى؟ هل ترانى قاتلًا؟» لاحظ انزعاجى فهدأت نبرته قائلًا «دومًا كنت أتساءل، إلى أى درجة يحب روبيرتو مشهد الدماء، وكانت فى كل مرة تأتينى إجابتك فى تصرفاتك، لقد قتلت ماتيو وزوجتك، وأنشأت مؤسسة كاملة لسفك الدماء، ولم تكتفِ بهذا بل اشتريت جزيرة أو حتى جزءًا منها وأقمت ساحة قتال لتجلس بالأعلى كإمبراطور رومانى يشاهد الدماء، لم تتوقف يومًا عن إراقتها روبيرتو، أى سادية تلك التى تتمتع بها لتقتل كل من لا يروق لك؟ حتى زوجة أبيك قتلتها وأنت طفل»

صعد الدم إلى رأسى مع جملته الأخيرة كيف علم ذلك؟ إنه يعلم أمر خيانة زوجتى وما تقوم به مؤسساتى ، لكن هذا الحادث البعيد كيف؟ وحين لاحظ اندهاشى غمغم موضحًا «اليسّاندرو روى لى ذلك، كان صديقًا حقيقيًا لم يخفِ عنى شيئًا أبدًا، كان يحبك بصدق روبيرتو ولكنه كان قلقًا عليك، يرى

أنـك تميـل للعنـف فى حـل مشـاكلك الخاصـة، لمـاذا لم تفـر مـع أخيـك دون قتـل زوجـة أبيـك؟ لمـاذا لم تطلـق زوجتـك وتطـرد ماتيـو بـدلًا مـن قتلهـا؟ لمـاذا لم تكتـفِ بمؤسسـة الأيـادى البيضـاء بـدلًا مـن تشـكيل فـرق مـوت تقدمـه طواعيـة للعديديـن؟»

ومضـت أفـكار عديـدة برأسـى بكلماتـه التـى زلزلتنـى لتعطينـى جانبًـا جديـدًا مـن شـخصية أليسّـاندرو ونظرتـه إلى أخيـه الكبـير، هـل كان يرانـى عنيفًـا محبًـا للدمـاء؟ طـردت هـذه الفكـرة قبـل أن تسـيطر عـليَّ وأجبتـه.

«جميعهم يسـتحق الموت، والحياة صارت بدونهم أفضل»

«حياتـك أنـت فقـط التـى صـارت أفضـل روبيرتـو، كان يمكنـك تركهـم لحالهـم، ولكنـك آثـرت تحقيـق رغباتـك، وصـار لديـك مؤسسـة خاصـة بالقتـل، وأرض تقـام عليهـا معـارك، لقـد اسـتدعيت التاريـخ أيضًـا، وأنشـأت مدرجًـا دعـوت لـه العـالم ليتمتـع معـك بمشـاهد الدمـاء، صـار لديـك جيـش مـن المرتزقـة، يتسـلمون قوائـم ينبغـى قتلهـا لحسـاب سـادة العـالم مـن الأوغـاد الأثريـاء «

«مـا هـذا الخـرف لويجـى؟ رجـالى ليسـوا مرتزقـة ولا أحـد عـلى قائمتنـا إلا مـن يتبـين لنـا جرمـه واسـتحقاقه للمـوت ، لا نقتـل لحسـاب أحـد»

«عـار عليـك روبيرتـو أن تكـذب وأنـت فى هـذا السـن، لقـد كانـت الأمـور تتـم أمـام عينـى، والاتفاقـات تعقـد تحـت سـمعى وبـصرى قبـل أن أتقاعـد، عمليـات اغتيـال وقتـل وخطـف لصالـح

أفـراد ودول مختلفـة نظـير حمايـة مؤسسـتك أنـت ورجالـك، بـل إن بعـض الحكومـات تمنحكـم المجرمـين الغـير راغبـين فى إبقائهـم عـلى قيـد الحيـاة لتتخلصـوا منهـم بمعرفتكـم، وفى الأغلـب انتهـى بهـم الحـال عـلى جزيرتـك»

تسـارعت دقـات قلبـى وعلـت نبضاتهـا، ازداد لهاثـى وانتفخـت أوداجـى، لم أخـف مـن المـوت عُمـرى، ولكنـى خفـت أن أمـوت الآن وأنـا أسـمع هـذه الترهـات مـن لويجـى، الـذى يبـدو أن الهـلاوس لعبـت برأسـه العجـوز وجعلتـه يختلـق أوهامًـا جعلهـا حقائقًـا بـل وصدقهـا ليلقيهـا عـلى مسـامعى، خرجـت مـن عنـده وأنـا أكاد أجـن مـن فـرط شـناعة ادعاءاتـه، لم أكِـد طـوال عمـرى لتعمـل مؤسسـاتى لصالـح مجرمـين وتخـدم أغراضهـم بـل وأرفـه عنهـم بتقديـم عـروض قتاليـة حقيقيـة، لـو صـح كلامـه فأنـا المغفـل الأعظـم عـلى سـطح هـذا الكوكـب، أنـا الـذى سـخر مالـه لتحقيـق أهـداف أعدائـه، أنـا مـن وهـب أعمالـه لخدمـة مـن ظللـت طـوال عمـرى احتقرهـم مـن كل قلبـى وألعنهـم ليـل نهـار، لا يمكـن أن يكـون ذلـك صحيحًـا، لـو سـألت ماركـو أو تونـى سـينكران، وربـما يدهشـانى بمبرراتهـما الحمقـاء، ينبغـى أن أتقـصى مـن كلام لويجـى، بعدهـا يمكننـى التفكـير فيـما عـليّ عملـه فى المتبقـى مـن العمـر.

سـحبت أمـوالًا مـن حسـاباتى وتجسسـت عـلى مؤسسـاتى ورشـوت موظفينـى بأمـوال طائلـة لأحصـل عـلى حقائـق لا تقبـل الدحـض، لم يكـذب لويجـى فى أى كلمـة تفـوه بهـا، صـارت

الأيـادى البيضـاء حمـراء بلـون الـدم تـداوى وترعـى فى العلـن وتقتـل لصالـح عصابـات وأفـراد فى الخفـاء، نصـف مسـتهدفيها مـن المجرمـين الذيـن ينبغـى محوهـم مـن تاريـخ البشر والنصـف الآخـر قائمـة مـن تصفيـات جسـدية لأنـاس ليـس لهـم ذنـب سـوى أن لهـم أعـداء يـودون ضمهـم لقائمـة الأمـوات، هـؤلاء الأعـداء ذوو مناصـب، ذوو نفـوذ، ذوو مـال، يدفعـون بسـخاء مقابـل تنفيـذ رغباتهـم وفى المقابـل يتسـترون عـلى كل مـا تمارسـه مؤسسـتى مـن أعـمال تخالـف قوانينهـم الوضيعـة التـى لا تعاقـب إلا الضعيـف، ليـس هـذا فحسـب بـل إن هنـاك حـالات تصـل إلى سـاحة القتـال وتقاتـل لا لسـبب سـوى إرضـاءً لأعدائهـم الذيـن زجـوا بهـم ودفعـوا مقابـل قتلهـم عـلى أرض جزيـرة بعيـدة عـن أعـين الجميـع.

إثـر هـذه الحقائـق دخلـت فى وعـكات صحيـة متتاليـة مـا بـين ذبحـات صدريـة وأمـراض قلبيـة حتـى أصبـت بـورم خبيـث فى عـام 2014 ليهـدد الباقـى مـن عمـرى بينـما يقـف المـوت يرمقنـى مـن بعيـد ملوحًـا لى بيديـه قائـلًا فى سـعادة «اسـتعد، لقـد حـان دورك قريبًـا»

طلبـت مـن الطبيـب إبقـاء هـذا المـرض الأخـير سرًا كـى لا أسـبب إزعاجًـا لأهـلى، كان هـذا السـبب الظاهـر، ولكنـى فى الحقيقـة كنـت أحـاول اقتنـاص لحظـات عمـرى الأخـيرة واسـتغلالها عـلى النحـو الأمثـل، لقـد دنـا المـوت منـى بشـكل غـير مسـبوق وعـليّ أن أسـتعد للرحيـل.

لم يعد ما يدور على سطح هذه الجزيرة سرًا، لقد ذاع صيتها حتى وإن كان على نطاق محدود ولكنه النطاق الذى أخشاه بالتحديد، وصلت إليها الأيادى العابثة، ولكنى لن أدع لهم فرصة استغلال مشروعى لتحقيق مصالح دنيئة وإرضاء لرغبات سادية، مقاليد الأمور لازالت بيدى، أنا الحاكم الوحيد للمدرج وأنا من بيدى رمية الزهر الأخيرة.





ينكسر حتى لو كان ذهبًا

يتحطم حتى لو كان حجرًا

يتمزق حتى لو كان من ريش النعام

لا أحد هنا يعيش إلى الأبد

وكذلك الأمراء إنما من أجل الموت جاءوا

جميعنا سنذهب إلى منطقة السر

وهل ترانا جئنا إلى الأرض عبثًا؟

فقط نترك على الأرض أمنياتنا

شعر مكسيكي

(٢٨)

يحيي - الجزيرة

(أبريل 2015)

وفى زنزانة ضيقة، فى قفص حديدى، برواقٍ ممتد على سطح جزيرة بعيدة تجلس يا يحيى غير مصدق بأن النهاية جاءت أخيرًا، هنا سينتهى الألم ويفنى العذاب، «يظنون أنهم أخذونى إلى الجحيم غير عالمين أنى كنت وما زلت هناك، لا مفر منه إلا بالموت» هكذا كنت تقول لنفسك ممنيًا نفسك بموت قريب، أرض تجمع بين الأخضر والأصفر وسط زرقة المحيط وزئير أمواجه، يا للروعة التى تتمنع على البشر واختارت أبعد مكان، ودعت الحياة فى أوروبا بسمائها الشتوية الثقيلة المتكتلة بالغيوم الرمادية الماطرة العاصفة وانتقلت للموت على جزيرة سمائها زرقاء صافية ترهق الحواس من روعتها، هكذا رأيت الجزيرة وهم يقتادونك إليها، جميلة هى وأجمل لأنها ستشهد موتك، لن تغضب ولن تثور، وهل يغضب المرء من أمرٍ قضى أعوامًا بحثًا عنه؟ ستكون أسعد مقتول على وجه الأرض وعلى جزيرة لم يتح إلا لعدد قليل جدًا من البشر رؤيتها، أى نهاية أسعد من ذلك؟!

ولكـن تذكـر أنـك سـتواجه خصـمًا فى سـاحة قتـال ليـس لـه همًّـا سـوى قتلـك، فقـط كانـت لديـك مشـكلة وحيـدة، مـاذا لـو كان هـذا الخصـم ضعيفًـا أو أوهـن مـن أن يقتلـك؟ مـاذا لـو لم يقـوَ عـلى صرعك، لـو سـقط أمامـك؟ فلتمنحـك الأقـدار هديـة أخـيرة رجـلًا يقاتلـك بشـجاعة ويصرعـك عـن جـدارة، جميـل المـوت وعسـير الاستسـلام، لم تعتـاده أبـدًا، يصيبـك اليـأس أحيانًـا، تتحـلى بالإحبـاط قليـلًا، لكنـك لم تستسـلم أبـدًا فلتقاتـل حتـى المـوت إذن.

قبـل أن تنتقـل مـن فرنسـا إلى الجزيـرة، سـألت كلاوديـو «حقًـا هـل عاصـم انضـم للمنظمـة أم أنـك كنـت تتلاعـب بـى؟» فى البدايـة رفـض أن يجيبـك ولكنـك ضغطـت عليـه «هيـا كلاوديـو، أنـت تعلـم أنـى ميـت وهـذا لقاءنـا الأخـير، ليـس مـن الشـهامة ألا تجيـب مجـرد سـؤال لرجـل عـلى وشـك المـوت»

«لم أخدعــك، عاصــم انضــم للمنظمــة بعــدك، ولكــن قوانــين المنظمـة بـألا يعـرف أبنـاء نفـس البلـد بانتمائهـم للعمـل معنـا، لقـد كان لديـك فى كل عمليـة مسـاعدين مـن جنسـيات مختلفـة، نحـن لا نكـون فِـرق وطنيـة»

«ولماذا أُرسل إلى الجزيرة؟ وهل ما زال حيًا؟»

«خطـأ لا يغتفـر أرسـله إلى هنـاك، لا أظنـه مـازال حيًـا، لا أحـد يبقــى هنــاك حيًــا طويــلًا، هنــاك تلتقــى أعتــى المجرمــين شراســة وأكثرهـم ضراوة، إن نجـوت مـرة، فلـن تنجـو الثانيـة، وإن نجـوت الثانيـة بكثـير مـن الحـظ، فلـن تنجـو الثالثـة إلا بمعجـزة»

حسـنًا رسـالة ليسـت ذات جـدوى وصلتـك فى أيامـك الأخـيرة لتعيـد إليـك ذكـرى إنسـان كان يوليـك اهتمامًـا حقيقيًـا، وخـبرًا مؤسـفًا

يمنحـك دافعًـا جديـدًا للمـوت، لابـد وأنـه كانـت لـه أسـبابه مثلـما كانـت لـك أسبابك، ولكـن العجيـب أنكـما سـتلقيان نفـس المصـير وفى نفـس المـكان.

وحـين وصلـت إلى الجزيـرة وسـكنت واحـدة مـن هـذه الزنازيـن جـف ريقـك فى السـؤال عـن عاصـم دون إجابـة أو حتـى تلميـح.

روبيرتو روسّى

قُتـل ماركـو، كان الأمـل الأخـير لى وقـد تلاشـى، صرت الآن واقفًـا وحـدى فى مواجهـة تونـى الطامـح لاعتـلاء عـرش لم يبـنَ لمثـل طموحاتـه، يهـدد كل مـا عملـت مـن أجلـه، كنـت أنـوى نقـل ملكيـة أغلـب ممتلكاتـى لماركـو، كان لـدى يقـين أنـه سيحسـن اسـتخدامها بعيـدًا عـن تونـى وعنـاده وأفـكاره، ولكـن بموتـه تحطمـت معنوياتـى أكثـر، بموتـه لم يعـد لـدى أى حظـوظ فى مـوت دون عنـاء، كنـت أنـوى أن أزيـح عـن كاهـلى كل مـا ينتابنـى مـن خـوف عـلى مجريـات الأمـور وخاصـة تلـك التـى تخـص «الأيـادى البيضـاء» أو «المـدرج» كلاهمـا بحاجـة لحكمـة، ليسـت موجـودة لـدى تونـى الـذى لا يتـورع عـن فعـل أى شـىء مهـما بـدا غـير منطقـي أو مناقضًـا للغايـة التـى تنشـدها المؤسسـة.

لقـد كنـت دائـمًا وأبـدًا دائـم الاعتـماد عـلى نفسـى وحدهـا، ويجـدر بـى الاسـتمرار فى ذلـك حتـى النفـس الأخـير، قبـل أن أذهـب إلى المـوت، منطقـة الـسر التـى سـتبوح بـكل مـا خفـى علينـا مـن ألغـاز، لقـد اقتربـت مـن الثمانـين عامًـا، يفصلنـى عنهـا أيـام قليلـة، لـن يمهلنـى العمـر أكثـر مـن ذلـك لأجنـب يـدى تلويثهـا بالدمـاء، سـقط تونـى فى المسـتنقع وعـليّ إخراجـه، قبـل أن يجذبنـى معـه، لقـد عشـت عمـرى

بأكمله أعمل على ردمه ولن أنتظر حتى تغوص قدماى فى الوحل على يد شاب طائش ما يهمه هو الزهو والنفوذ، لطالما احتقرت هؤلاء فلن أصنع أحدهم بمالى ولن أتركه يرتع فى أرضى، إنها فرصتى الأخيرة قبل مغادرة هذا العالم، كم هو مؤسف أن تسابق المرض فى النهايات مع أنك كنت دائمًا نِدًا محاربًا، وقهرته فى عديد من المرات، ولكن فى ملاعب أخرى حين احتل أجسادًا عديدة، أما الآن فقد رفع التحدى وشمر ساعديه وهو يثبت قواعده فى جسدك الواهن، عليك التحرك سريعًا قبل أن يسدد قذيفته الأخيرة القاتلة.

لا يزال أمامك فرصة، لا يزال هناك وقت، قليل منه بالفعل لكنه قد يكون كافيًا لإعادة الأمور لنصابها.

تأخذ سفينتك وتبحر بصحبة حارسك الشخصى إلى جنوب المحيط الهادىء تطيل التحديق فى هذا البحر الأزرق الذى يلامس السماء على مد البصر، وبالقرب من شاطىء الجزيرة تستقل واحدة من القوارب لتقودك إليها، شتان بين أول مرة جئت إلى هنا زائرًا وبين هذه المرة، الصحة لم تعد كما كانت ولا الأمانى التى صاحبتك أول مرة، جميعهم تلاشى أو فى الطريق إلى ذلك وهناك فم يبتسم وهو يراقبك «اسرع، المتبقى قليل!» يا لها من وسيلة فريدة للاستمتاع.

وصلت إلى الجزيرة، لا زالت بديعة برغم ما ارتكب على سطحها من جرائم أنا سببها، أنا من لوثت تراب هذه الأرض بدماء لم تستحق ما لاقت من قسوة فى مدرجى، لن أُخلى مسئوليتى لمجرد أنى لم أمر مباشرة بجلبهم أو إلقائهم فى ساحة القتال، أنا من أوكلت العمل لغير ذى ثقة أو بالأحرى لغير ذى

وعـى كافٍ بالأهـداف التـى صمـم مـن أجلهـا الكولوسـيوم الجديـد، لم يكـن الغـرض منـه أبـدًا مجـرد انتـزاع أرواح أو لعـب دور أحـد قـادة رومـا القديمـة والتلـذذ بتعذيـب الأعـداء وإلقائهـم لحيوانـات جائعـة أو حتـى لمجرمـين يريقـون دمـاء بعضعـم البعـض، بـل كان الدافـع الرئيـس وراء بنائـه أن يـذوق المجـرم وحشـية جرمـه، ولكـن أنـا الآن مـن يـذوق عواقـب سـوء تخطيطـه، النـدم فى عمـرى مسـمار أخـير فى نعشـى، علـيّ أن أنزعـه وسـأنام بعدهـا مرتاحًـا داخـل تابـوت.

قابلـت أنـدرو الـذى يحسـن معاملتـى، كـم تمنيـت لـو كان لى ولـد مثلـه بنفـس هـذا النقـاء، وهـذا مسـتحيل الحـدوث إلا لـو نشـأ عـلى نفـس الأرض ذات نفـس البعـد عـن كل شرور البـشر، نعـم نحـن بحاجـة لأرض جديـدة، بخلـق جديـد لم يعرفـوا الكـذب، لم يجربـوا القسـوة، لم يذوقـوا الخيانـة، بالطبـع سـأغادر دون أن يتحقـق حـرف مما أنشـده، علمـت مـن أنـدرو زيـادة أعـداد جـولات القتـال وزيـادة أعـداد الزائريـن، وكانـت المفاجـآة حـين علمـت ببنـاء تونـى لنُـزُل صغـير جـذاب صالـح لإقامـة عـدد غـير قليـل مـن الأفـراد، خدمـة فندقيـة ممتـازة لـزوار المـدرج الذيـن جلبهـم تونـى لعالمـى، بالطبـع كان ذلـك فى مقابـل خدمـات إضافيـة لأهـل الجزيـرة القنوعـين، ليـس ذلـك فحسـب بـل أضـاف خطـط مضـادة يضعهـا تونـى تنسـف مخططـى نحـو عـالم عـادل، طلبـت لقـاء بيكـوى، لم ألتقيـه منـذ فـترة، وصلـت إلى منزلـه مـازال بسـيطًا وأنيقًـا كـما كان، حتـى بيكـوى نفسـه لم يتغـير كثـيرًا غـير أن تجاعيـد أكثـر اتخـذت مكانهـا فى وجهـه وامتـد الشـيب لشـعر حاجبيـه وضاقـت عينـاه أكثـر وازداد السـواد حولهـا قليـلًا وظهـرت بعـض البثـور عـلى يـده وأنـا أصافحـه، بالطبـع حجـم مـا طـرأ عليـه مـن تغيـير لا يقـارن بـما وصلـت أنـا نفسـى إليـه.

- كيف حالك صديقى الطيب؟

- بخير مستر روبيرتو.. قالها بود وابتسامة مهذبة تغلف كلماته

- كما ترى لم تعد الصحة كما كانت، لم يتبقَ لى الكثير فوق هذه الأرض، أردت أن أشكرك على كل ما قدمته لى

- أنت تبالغ بعض الشىء مستر روبيرتو، أراك فى خير حال كما عهدتك

- هدوء الريح مؤقت ولا يعنى عدم وجود عاصفة، فى الحقيقة كنت دائمًا حريصًا على أمن وإسعاد أهل هذه الجزيرة، فى حياتى الطويلة لم أقابل بشرًا بنصف طيبتهم.

- أنت جميل مستر روبيرتو لذلك ترانا كذلك.

- أنا أعنى ما قلته بالحرف صديقى، رجل طاف البلاد شرقًا وغربًا وعاش ثمانية عقود لن يكذب ولن يجامل لأى سبب، ومن هذا المنطلق لى رجاء فى لقائى الأخير بك

- ليس أخيرًا بالتأكيد مستر روبيرتو.

- بل أخير يا صديقى، لن أخدع نفسى، لم أتخيل أبدًا أن أبلغ الستين من العمر والقدر زادنى عشرينًا عليها، يكفينى ما رأيت من ضجر، لست حِمل المزيد، بالطبع وصل إليك مقدار ما بلغ العالم من سواد، حاولت بشتى الطرق وبكل ما أملك تطهير ما استطعت مما دنسه الآخرون، ولكننى ما زرعت أملًا إلا وجنيته شوكًا، وأمنيتى الأخيرة أن أعيد إليك أرضك ومعها كل الشكر الذى يمكن تقديمه من ميت لا يُكن إلا كل الحب لكم ولأرضكم.

بدا عليه الصدمة من كلامى، واعتمر القلق بداخله، لذا بادرته على الفور:

- لا تقلـق مسـتر بيكـوى، حتـى لـو انقـضى آجـلى الآن فقـد كتبـت وصيتـى بتخصيـص جـزء مـن أمـوالى لصالـح الجزيـرة وأهلهـا، كل الخدمـات سـتقدم لكـم كـما هـى دون مقابـل وسـتعود لكـم أرضكـم أيضًـا، لـك مطلـق الحريـة فى اسـتخدامها كيـف تشـاء.

- لا أفهم، هل هناك ما أغضبك منا مستر روبيرتو؟

- أبـدًا، أنتـم أفضـل مـن عـاشرت، لـو كان لى أن أبـدأ مـن جديـد، سأسـتقر هنـا، لكـن القطـار لـن يعـود وسـيتوقف عـما قريـب.

لم يجد ما يقول، كلماتى أثارت صمتًا حزينًا بداخله

- سـيقام خـلال أيـام يـوم أخـير للقتـال، أرجـو أن لا يحـضره أحـد مـن أهـل الجزيـرة، احـرص عـلى ذلـك مسـتر بيكـوى! عِدنـى أن يتغيـب جميـع سـكان الجزيـرة عـن المـدرج فى هـذا اليـوم! مـا سـيحدث أبشـع ممـا يتخيلـوه! أقـضِ عـلى أى فضـول لديهـم أو لديـك! لا أسـئلة، لا إجابـات، لا خطـأ، وفى اليـوم التـالى سـنغادر الجزيـرة وسـتعود كـما كانـت قبـل أن يزورهـا هـذا المخبـول روبيرتـو روسّـى، سـنغادر الجزيـرة بعدهـا وسـيعود كل شـبر فيهـا بـما فى ذلـك هـذا الفنـدق الـذى بنـاه تونـى لأبنائهـا.

بتأثـر بالـغ ونظـرات ارتيـاب اسـتقبل كلماتـى دون أن تطـرف لـه عـين وطـرح السـؤال الوحيـد المتـاح لـه:

- أعدك مستر روبيرتو، ولكن ماذا بالنسبة لأندرو؟

- لـن يُمـس بسـوء، سـيبقى معـى وسـيعود لـك فى هـذا اليـوم بـما يكفيـه طـوال عمـره مـن المـال ومـا يجعلـه سـيد هـذه الأرض.

عـدت إلى منـزلى القريـب مـن المـدرج، لا شـىء يشـغل تفكـيرى

سوى اليوم الأخير للقتال، سيكون يومًا مشهودًا، كم تمنيت لو أهديت البشرية نسخة مصورة مما سيحدث بهذا اليوم لو تمكنت من تسجيل وتصوير كل لحظة فى هذا اليوم، فقط أنا بحاجة لمخرج كبير وفريق تصوير محترف لا تفوته شاردة، كل لقطة ستحمل إثارة غير متوقعة، كل مشهد ستتسارع معه الأنفاس، وانتقالًا من مشهد لآخر لن تجد إلا الإثارة راعيًا رسميًا لهذا اليوم، وبرغم ما أعددته من مفاجآت لهذا اليوم، فلن يطلع عليها غيرى أنا وزمرة الحاضرين، حتى للمياردير مثلى ليست كل الأمنيات متاحة للتنفيذ، هذه الأمنية ثمنها أغلى من كل أموالى بالتأكيد لا يوجد مخرج أو فريق تصوير سيقبل ما أطلبه منهم ولو سلمتهم أموالى ورقة ورقة، واأسفاه سيضيع هذا اليوم ولن تحفظه ذاكرة واحدة لترويه.

استدعيت أندرو، طلبت منه إحصاء عدد السجناء تحت المدرج وجريمة كل منهم، عليه أن يسمع منهم بنفسه وينقل ما قالوه لمقارنته بما جاء فى تقاريرهم هنا، لن أثق بتونى أو رجاله أو باقى الحراس، بعدما اختلط الصالح بالطالح، ينبغى توخى الحذر قبل الإقدام على ما هو مكتوب، لا أريد أبرياء فى المدرج، فقط من بُنى من أجلهم المدرج هم من سيشهدون هذا اليوم، وما دون ذلك فلا القفص مطرحه ولا الجزيرة مكانه.

- أريد قائمة بكل السجناء وجريمة كل منهم، تكون بحوزتى غدًا، وبعد غد حين يصل تونى سيكون بصحبته عدد آخر، ستعد قائمة أخرى مماثلة، ستسمع منهم بنفسك وتطلعنى على الأمر، لا تعتمد على آخرين أندرو.. مفهوم؟

لم يعـد لـدى غـيره، ولا يوجـد مـن هـو أفضـل منـه لأداء تلـك المهمـة.

فى اليـوم التـالى كانـت لـدى قائمـة تضـم عشريـن اسـمًا من جنسـيات مختلفـة، عـشرة منهـم مصاصـين دمـاء، كل منهـم أزهـق مائـة روح عـلى الأقـل، إمـا بالقتـل المبـاشر أو بتجـارة فى السـلاح أو بتعليـمات لسـفك الدمـاء أو للتقصـير المتعمـد المتكـرر لمسـئولية مبـاشرة بحـق ضعفـاء،

ثلاثـة مـن هـؤلاء العـشرة مجرمـين حـرب فاريـن مـن أحـكام بالسـجن مـدى الحيـاة، وحقيقـة لا أفهـم هـذا العقـاب مادامـوا ينـوون الاحتفـاظ بهـم مـن أجـل تعذيبهـم وسـلبهم حريتهـم وكـف أذاهـم عـن الآخريـن. فلـماذا لا يقتلونهـم توفـيرًا لحراسـة ووقـت ومجهـود وأمـوال أولى بهـا ضحاياهـم؟!

تبقـى عـشرة سـجناء أخريـن ثلاثـة منهـم مغتصبـين وهـؤلاء كـم أهـوى مشـاهدتهم يتألمـون، وهنـاك إثنـان خائنـان، أحدهمـا خـان وطنـه فتسـبب فى اقتحـام أرضـه وآخـر خـان صديقـه وشـهد عليـه ظلـمًا وأودى بـه إلى السـجن ظلـمًا ليمـوت هنـاك، تبقـى خمسـة أسـماء هـؤلاء أُحـضروا إلى المـدرج ظلـمًا دون جـرم حقيقـى ارتكبـوه وإنـما جـاءوا فقـط لأن المنظمـة أرادت ذلـك تنفيـذًا لرغبـات أفـراد وأجهـزة أخـرى، بالطبـع ليسـوا خالـين مـن الذنـوب ولكـن ليـس جميعهـم أيضًـا يسـتحق القتـل، ولكـن فى هـذه الحالـة وجـدت أن جميعهـم بالفعـل لا يسـتحق القتـل، لـذا وجهـت أنـدرو بإعـداد قـارب يغـادر الجزيـرة ويسـلم هؤلاء لواحـدة مـن سـفنى، ولكـن ذلـك لـن يحـدث قبـل وصـول تونـى، لا أريـده أن يشـعر باتخـاذ أى إجـراءات غـير معتـادة.

....

قبل اليوم الأخير

فى زنزانة ضيقة تجلس يا يحيى على الأرض، ترتدى بنطالًا قماشيًا مهترئًا وقميصًا عارى الذراعين باليًا، لم تأبه بمحبسك أو بملبسك، لم يشغل بالك سوى لقاء اقترب بآسر تبغيه اليوم قبل الغد، ما زال آسر يناديك، ضحكاته تأنس وحدتك وابتسامته تنير ظلمتك، لم تعد ترى وتسمع سواه، صحوًا أو نائمًا يقول لك فى براءة:

- لماذا تأخرت بابا؟ أنا هنا وحدى

- أنا قادم يا آسر

- هيا، تعال لتهرب معى

يمسك بيدك ويشد ذراعيك، تنهض معه فى سعادة غير مصدق بأنك تلمسه وتحتضن يدك كفه الصغير، فى سلاسة يعبر الجدران ويسحبك لتلحق به، ولكن الجدار يعيقك، تتوقف رغمًا عنك، ينظر لك باكيًا راجيًا ودمعة تنزل على خده الناعم.

- من جديد ستتركنى

تجهش بالبكاء يا يحيى ويختنق صوتك فى حلقك، من أين جئت بكل هذه الدموع التى ملأت مقلتيك، يضغط آسر على يدك من جديد متوسلًا

- أنا خائف بابا.. لا تتركنى بابا.

- أنا قادم آسر

تحاول المرور ثانية لتصطدم بالجدار، تطرق بيدك عليه، تدق برأسك عليه مرة وثانية وثالثة أشد، ينتحب آسر وهو يبتعد بعدما أفلتت يدك من يده وأنت تصرخ

- انتظر آسر

يبتعد ويده على عينيه

- انتظررررر آاااسررر

تصحـو لتجـد عينيـك مملـوءة بالدمـوع وصوتـك متحـشرج مبحـوح مـن الـصراخ، لقـد اشـتقت لـه أيـما اشـتياق، تجلـس مغمض العينـين تنتظـر اللاشـىء، ولكنـك كنـت عـلى موعـد مـع زيـارة غـير متوقعـة، ذلـك حـين أنـارت الأضـواء وسـمعت صـوت المـزلاج وبـاب فى الجـوار يُفتـح، مـا الـذى يحـدث؟ هـل آن آوان القتـال؟ تمـر دقائـق والوضـع كـما هـو حتـى يتوقـف أمـام زنزانتـك الصغـيرة رجـل عجـوز أصلـع الـرأس، محنـى القامـة يتسـند عـلى عصـاه، يتحـرك ببـطء ويصحبـه أحـد الحـراس ولكنـه لم يكـن ملثـمًا كغـيره، هـذا أول حـارس تـرى وجهـه ولدهشـتك كان صاحـب الوجـه الرائـق الـذى تحـدث معـك مـن قبـل وكأنـه منـدوب تحقيـق يبغـى العـدل، يسـتحيل يكـون مثلـه سـجان، يعالـج مزلاجـك ويدلفـان سـويًا إليـك ويقفـان عـلى مسـافة قريبـة تضمـن عـدم اعتدائـك عليهـما، لم تفهـم هـدف الزيـارة:

- كيف حالك يا يحيى؟

تنظر له مليًا فى محاولة للتعرف عليه لعلك التقيته من قبل.

- لا تتعب نفسك، أنت لم ترنى من قبل.

كانـت يتحـدث بإنجليزيـة بطيئـة بصـوت هـادئ واثـق وعينـاه مثبتـة عليـك مـن أسـفل عويناتـه.

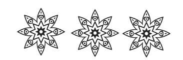
– أنـا روبيرتـو روسّـى، صاحـب الأيـادى البيضـاء، ومالـك هـذا المدرج.

يفغـر فوهـك وأنـت تـرى الرجـل الـذى بنـى إمبراطوريـة اقتصاديـة اجتماعيـة وقـرر معاقبـة المجرمـين قبـل أن يتحـول لواحـد منهـم، سـيرته أسـطورية، لكنـك لم تتخيـل أن يكـون بهـذا الهِـرم.

– فى البدايـة أود أن أعتـذر لـك عـن كل مـا لاقيتـه منـذ القبـض عليـك، وحتـى وصولـك هنـا، أنـت لم تخطـئ فى شـىء، والخطـأ كان خطـأى، لأنـى أوكلـت عمـلًا بهـذه الأهميـة لأشـخاص غـير جديرين بالثقـة، لا أظـن أن منظمتنـا تملـك الكثيريـن مثلـك، لدينـا قـوات خاصـة مـن جنسـيات مختلفـة، ولكنـك الوحيـد الـذى رفضـت ظلـمًا ارتكبتـه المؤسسـة التـى لم يكـن لهـا هـدف سـوى محاربـة الظلـم، هـذا المـدرج بنيتـه لأجـل أن يعيـش أمثالـك ذوو الضمـير اليقـظ فى أمـان، لأن المجرمـين هنـا سـيلقون سـوء المصـير وكان طموحـى فى يـوم مـا أن يعـرف الجميـع عاقبـة إثمـه، ولكـن يبـدو أن ذلـك أصعـب ممـا ظننـت، أمامـك يقـف الآن شـمعة مُطفـأة، رجـل يشـعر بالعـار لأن حلمـه صـار كابوسًـا، أى اعتـذار بالطبـع غـير كافٍ، وإلا نفعـت المجرمـين الآخريـن توسـلاتهم، مـا يدفعنـى لقـول ذلـك إدراكـى بـأن أمثالـك نـادرون، لدرجـة أنـك قـد تعيـش عمـرًا بأكملـه دون أن تقابـل أحدهـم، غـدًا فى جنـح الليـل سـيتم تحريـرك مـن هـذا السـجن، وسـتغادر هـذا المبنـى بغـير رجعـة، هنـاك قـارب سـيأخذك إليـه أنـدرو أنـت وآخريـن، هـذا القـارب سـيصل بـك إلى سـفينة عملاقـة تأخذكـم جميعًـا فى رحلـة طويلـة لطيفـة إلى إيطاليـا،

تفضل هذا الشيك، ستحصل بمقتضاه على تعويض بسيط (مليون يورو) تبدأ بهم من جديد بعيدًا عن المؤسسة فى أى مكان تختاره، اغفر لى ليلتك الأخيرة القادمة هنا، أرجو أن تقضيها فى وضع فكرة مشروع ناجح ينسيك لياليك الأخيرة على الجزيرة.

ثم أشار بإصبعه للفتى الواقف بجواره ليفتح الباب، ثم ودعك بابتسامة ورحل.



«لم يعد هناك وقت للخوف في عز وقت الخطر، أنتم يا من تخافون،
انتهى وقت الخوف وأنتم يا من تأمنون جاء وقت الهلع.»

(٢٩)

- انصت أندرو جيدًا.. غدًا سيأتى تونى، ستُعد لنا العشاء بنفسك، تضع قرصين من تلك الأقراص فى كوب العصير خاصته، ولتتأكد من تناوله لها، إن لم يشربها تضع غيرها فى كوب الشاى؟، حتى لو اضطررت لأن تذيبها له فى كوب الماء، المهم أن يتناولها

- مرحبًا عمى، كيف حالك؟ يسعدنى رؤيتك هنا من جديد.

- أهلا تونى، عمك بخير.

- لسبب لا أعلمه أشعر بأن خير أوقاتك تقضيها هنا، فقط على الجزيرة أراك مبتهجًا فخورًا مقبلًا على الحياة.

- شعلة ذكاء متقدة أنت تونى، لم تخيب ظنى يومًا،

ابتسم تونى لهذا الإطراء من عمه الذى بادله الابتسامة

- هل اطمأننت على ضيوفك؟

- أجل، جميعهم بخير حال.

- من هم يا تونى، هل منهم أصدقاء لك؟

- إطلاقًا، إنهم من يحمون منظمتنا ويحفظون أسرارها

ومن ننفذ لهم بعض الجرائم فى مقابل أن يتركونا وشأننا،

لكنهم لم يكتفوا بذلك بل يأتون ليتلذذوا لا بالعدل بل بالقتل، لو كان العدل يهمهم ذرة ما حرضونا على القتل.. هذا ما أدركه روبيرتو روسى.

طلب من تونى أن يبدل ملابسه لتناول العشاء فالغد يوم حافل، لحسن حظ أندرو كانت شهيته مفتوحة للطعام جراء السفر، شرب العصير وتثاقلت رأسه واستأذن عمه وصعد لغرفة نومه طلبًا للراحة تاركًا الفرصة لأندرو، لينفذ الباقى من الخطة.

وتحت ضوء القمر ذهب أندرو إلى المدرج، كانت له السلطة المطلقة فى التعامل مع كافة الأمور، لا حارس يوقفه ولا مفتاح ليس معه نسخة منه، بل هو من يعطى الأوامر لباقى الحراس، نظرًا لثقة كل من روبيرتو وتونى به، اتجه إلى خمسة أفراد فى خمسة زنازين مختلفة، كانوا يحسبون الدقائق والساعات فى انتظار قدومه باستثناء واحدًا هاله الذهول منذ لقائه بالأمس مع العجوز روبيرتو روسّى اسمه يحيى اشتاق للموت بنفس شوق الآخرين للحياة الذين ينتفضون أملًا للهروب من تحت المقصلة، ماذا لو أخرجوك من قبرك بعد دفنك؟ دور إضافى جديد فى لعبة اسمها الحياة نادرًا ما تمنح مثل هذه الفرص.

غادروا المدرج دون أن يستوقفهم أحد، وساروا بمحاذاة الشاطىء خمسة وأندرو سادسهم حتى وصلوا إلى مجموعة من القوارب يعتليها بعض الصيادين، حيوا أندرو الذى توقف بصحبة الرجال:

– انتظرونى هنا، سأعود بعد ساعة ومعى آخرين، وسيصطحبكم هذا القارب فى الصباح إلى عرض المحيط

هنا نطق أحدهم :

- هل لى من سؤال؟

- ما هو؟

- هل هناك داخل الأقفاص من يُدعى عاصم؟

- نعم، ما علاقتك به.

- إنه مصرى مثلى.

لم يكترث أندرو لجنسية يومًا ما، البشر أصلهم واحد وهم إما جيدون وإما سيئون وهؤلاء يستحقون تواجدهم فى ساحة القتال، لذا بدت له كلمة (مصرى) غير ذات معنى، فلم يعلق، ليسأل يحيى من جديد فى قلق:

- لماذا لم يخرج مثلنا؟ أنا واثق أنه تعرض لظلم.

- وكيف يخرج وقد قتل ابن شقيق مستر روبيرتو

لماذا فعل عاصم ذلك؟ هل علم بانحراف المنظمة فقرر الانتقام؟ أم أنهم سببوا له أذى فقرر معاقبتهم؟ يثق يحيى بأن لدى عاصم أسبابه التى بالتأكيد لن تقنع العجوز، عاصم فى ورطة، عاصم يعلم أن يحيى ميت، هل يستطيع يحيى العودة للمدرج وإنقاذ عاصم وإنقاذ نفسه إن فاته هذا القارب؟ كيف سيقتحم المدرج وسط هذه الحراسة؟ بل وكيف سيخرج من المدرج وكيف سيفر من الجزيرة؟ الأسئلة تداهمه والوقت أيضًا ولا حيلة له سوى اتخاذ قرار وتحمل تبعاته.

....

بعد ساعة عاد أندرو مع مجموعة جديدة ممن لا تستحق

التواجد على سطح الجزيرة، مع حلول بواكير الصباح ستقلهم السفينة كيفما اتفق مازال يحيى بينهم، لم يتخذ قرارًا بعد، على أية حال تركهم أندرو مع القارب وصاحبه، كانت تلك لحظة فريدة للجميع، المنقذين وأندرو، لحظة تستعيد فيها الروح الحياة من خلال هواء منعش يسرى فى الأوصال والآمال.

استعاد الصباح وعيه معلنا قدوم يوم السادس من أبريل الذى جاء مشمسًا جميلًا هواؤه لطيف على سطح الجزيرة.

بعد تناول الضيوف لإفطارهم، عادوا إلى الفندق البسيط فى انتظار تونى، ليصحبهم لساحة القتال، حتمًا سيشهدون إثارة لا مثيل لها.

لكن تونى لم يظهر بعد، تونى نائم على ظهره لن يقوم الآن، أما روبيرتو روسّى فلم ينم، كان يخشى أن يباغته القدر ويخطفه الموت وهو نائم، ذهب أندرو إليه لتلقى التعليمات الأخيرة، وأبلغه أن القارب غادر محملًا بجميع الناجين، وبعدها اتجه إلى مقر إقامة الضيوف ووجه لهم الدعوة لحضور عروض القتال فى قلب الكولوسيوم لأنها بصدد البدء، تعالت الهمسات بين الحاضرين، كيف لا يحضر تونى بنفسه لدعوتهم، اندهشوا من الأمر، ولكنهم انصاعوا لدعوة أندرو الذى اصطحبهم إلى المدرج سيرًا على الأقدام، وتفرق الجمع أثناء السير إلى أحاديث ثنائية وثلاثية جميعها يدور حول ما هم على موعد مع مشاهدته، الانتقال بالزمن، الرجوع للوراء، التلذذ بالتفرد، هؤلاء فقط من حالفهم الحظ وساعدهم النفوذ الطاغى المتمتعين به لمعرفة وزيارة هذه الجزيرة التى يدور بأرضها ما لا يخطر على بال أحد، هذا ليس فيلمًا

مسـليًا أو مسلسـلًا أسـطوريًا، أو حتـى حلبـة مصارعـة تنتهـى بفـوز متصـارع، كلا إنهـا سـاحة قتـال كتلـك التـى كانـت تقـام مـن قـرون فى قلـب رومـا بحضـور الأباطـرة والفرسـان والجنـود وطبقـات الشـعب المختلفـة، لـذة غامـرة تلفهـم، كان عددهـم يقـترب مـن المائـة، تـتراوح أعمارهـم بـين الثلاثـين والسـتين أغلبهـم مـن الرجـال ومـا يقـترب مـن الربـع أو الثلـث مـن النسـاء، أوربيـون هـم وأمريكيـون، لـن تراهـم عـلى الشاشـات، وإنـما يدعـون غيرهـم ليعلنـوا قراراتهـم التـى اتخـذت فى الغـرف المغلقـة ولا تخـدم إلا مصالحهـم وتـضرب بباقـى الأرواح والشـعوب عـرض الحائـط، إنهـم صنـاع القـرار، اللوبـى المسـيطر عـلى العـالم الـذى تستشـعر وجـوده ولا تـدرى كنهـه، يختبئـون فى الظـل ولا يصـل إليهـم النـور ويغرقـون فى النعيـم غـير مبالـين بصرخـات ودمـوع الملايـين فـلا يخدمـون إلا مـن اتبـع أهوائهـم وبـارك ثرائهـم ومصالحهم. وصلـوا إلى المـدرج بصحبـة أنـدرو الـذى فتـح لهـم البوابـات، وسـط مشـاهدة الحـراس الذيـن اتخـذوا مواقعهـم فى انتظـار التعليـمات، وصـل الضيـوف إلى المقصـورة عيونهـم تبحـث عـن تونـى الـذى اختفـى بشـكل لا يليـق..

كانـت السـاحة مفتوحـة عـلى المـدرج فقـط يفصلهـا سـور حجـرى بسـيط، لقـد تـم سـحب السـور المعدنـى الطويـل عقـب دقائـق بـدأت همسـات تـتردد فى ميكرفـون قـوى، يبـدو أن السـماعات تنتـشر فى كل مـكان، ومـن مـكان مـا دخـل رجـل عجـوز إلى قلـب السـاحة بخطوات وئيـدة وابتسـامة عريضـة تعلـو وجهـه وتضاعـف عـدد تجاعيـده ماسـكًا بالميكرفـون وقـال بصـوت عـال يسـتحيل معـه الظـن بأنـه ناجـم عـن رجـل مريـض فى الثمانـين مـن عمـره:

- سـيداتى سـادتى، روبيرتـو روسّـى يرحـب بكـم فى الكولوسـيوم

الجديد، معكم الملياردير الذى لم تره كاميرات ولم يغره الظهور من قبل وكان دومًا يعمل فى الظل، ولكنه اليوم احترامًا لكم واحتفالًا بكم يقرر الظهور بينكم فى يوم سأجعله هو الأجمل لى والأمثل لكم، وتبجيلًا لكم ستقتصر المشاهدة لكم فقط دونًا عن أهل الجزيرة، هذا العرض أعددته خصيصًا لكم، حفلة دم، لم تشهد لها الساحة مثيلًا من قبل، دماء تستحق أن تُراق هنا أنتم على موعد مع المتعة، الإثارة، الجنون، لا خدع، لا حيل، أنصتوا جيدًا وركزوا أبصاركم فكل ما سيدور أمامكم محض حقيقة، سأخذكم معى فى رحلة عبر الزمان والمكان، سنسافر ونحن جلوس ونحلق بعيدًا عن العيون، مرة أخرى وليست أخيرة أرحب بكم والآن سنبدأ فقراتنا ثم انحنى بحركة مسرحية مودعًا لهم حيوه بالتصفيق وصيحات الإعجاب تتعالى بعد خطبته القصيرة، وحين أولاهم ظهره لعنهم فى سره وبصق بصقة أوردها كل حقده تجاههم،وما إن خرج برزت أشواك حديدية من الأرض على أطراف الساحة البيضاوية الرملية تتصاعد ببطء على شكل أسهم متجهة لأعلى لتشكل عائقًا بين الساحة والمدرج.

فُتحت البوابة ثم برزت عربة على شكل صندوق حديدى من وراء المبنى المقابل للكولوسيوم يدفعها أربعة من الحراس مدججين بأسلحة نارية، بالكاد تجاوزت بوابة الساحة الجدارية ثم الحديدية، بينما كانت العيون معلقة على أربعة من المجرمين كل منهم يمسك بناحية من النواحى الأربع فى القفص، وينظر فى قلق للحضور، وحين استقرت العربة فى قلب الساحة، فتح الحراس بابها ليخرج منها المجرمون، أربعة متباينون فى الشكل واللون، أحدهم أسمر طويل حليق الرأس مفتول العضلات يبدو أنه من أصول أفريقية،

و اثنـان آخـران أوروبيـان أو أمريكيـان متوسـطى الطـول ورابـع شرق أسـيوى قصـير القامـة ناعـم الشـعر لكنـه منكـوش كـما هـو واضـح، كانـوا عـراة الصـدر جميعًـا يرتـدون سراويـل مهترئـة، سُـحبت العربـة للخـارج وخـرج معهـا الحـراس وأغلقـوا البوابـة الحديديـة للسـاحة، بينـما وقـف الأربعـة غـير واعـين مـا المطلـوب منهـم يتبادلـون النظـرات فيـما بينهـم وبـين الجمهـور، هنـا جـاء صـوت روبيرتـو عـبر الميكروفـون دون صورتـه:

- والآن جمهـورى العزيـز مـع أولى جولاتنـا القتاليـة، هـؤلاء الأربعة كل منهـم ضحايـاه أكـثر مـن أن تُحصى أو تُعـد وكل منهـم عليـه أن يختار أيواصـل القتـل أم يصـير ضحيـة لأحدهـم؟ كل مـا هـو مطلـوب مـن كل منهـم اليـوم أن يقتـل الثلاثـة الآخريـن، هـذه هـى تذكـرة عبـوره مـن هـذه الجولـة، جولـة رباعيـة، فـرد واحـد فقـط مـن سـيخرج منهـا حيًـا، يعلـو تشـجيع الجمهـور بينـما ينظـر الأربعـة لبعضهـم البعـض وعـلى الفـور يبـدأ القتـال، أوروبـى يقاتـل أسـيوى وأفريقـى يقاتـل الأخـير، كان واضحًـا تفـوق هـذا الأفريقـى عـلى جميعهـم فى البنيـة والطـول، كال الضربـات لغريمـه بينـما الآخـران يتقاتـلان ضربًـا وكل منهـم يـبرح الثانـى ركلًا، ولكنهـما توقفـا حـين لاحظـا تفـوق الأفريقـى الواضـح عـلى الأوروبـى، توقفـا عـن قتـال بعضهـما البعـض، واتجهـا إلى الأفريقـى، أحدهمـا أمسـكه مـن الخلـف مـن رقبتـه والآخـر واجهـه متلقيًـا ضربـات عـدة، الثلاثـة يصرخـون وأصـوات اللكـمات تشـى بقوتهـا، بينـما الرابـع ملقـى فى أحـد الجوانـب يحـاول النهـوض، الأفريقى أقـوى لكـن تشـتت ضرباتـه بـين الاثنـين حتـى تمكنـا منـه، أحدهمـا تعلـق بـه والآخـر جذبـه مـن قدمـه ليسـقطه عـلى الأرض، ثـم أجهـزا عليـه ولـف أحدهـم ذراعـه حـول رقبتـه وأحكـم خنقـه حتـى تركـه

جثـة هامـدة بينـما الرابـع يأتـى مـن خلفهـما ليمسـك بـرأس الأسـيوى ويطيـح بـه بعيـدًا ثـم ينقـض عليـه ويوسـعه ضربًـا، سرعـان مـا شـاركه الأشـقر الآخـر ضربـه لهـذا الآسـيوى حتـى سـالت دمـاؤه مـن أنحـاء متفرقـة فى جسـده وبـات كالعجينـة فى أيديهـما، ليمسـك أحدهمـا بفـروة رأسـه ويجره جـرًا نحـو قضبـان السـور الحديـدى ليصـدم وجهـه بهـا فى قـوة والجماهـير تـصرخ مـع كل ضربـة وقـد بـدت فى غايـة الاسـتمتاع، لم يتبـق سـوى اثنـان وقـد نـال منهـم التعـب ولكـن كل منهـم يسـعى للفـوز لينجـو، كانـت المهمـة أسـهل الآن لكليهـما، طالـت مواجهتهـما بعـض الشـىء حتـى تمكـن أحدهـم مـن سـحق الآخـر، وسـط حمـاس رجـال وصيحـات نسـاء تتظاهـر بالتأثـر، اقتـاد الحـراس الفائـز للخـارج، لتعـود العربـة ومعهـا أربعـة آخـرون فى جولـة جديـدة، بينـما تبقـى ثـلاث جثـث متروكـة داخـل الحلبـة دون سـبب واضـح، ولكـن قبـل فتـح بـاب العربـة يأتـى صـوت روبيرتـو مـن جديـد:

- هـل رأيتـم كيـف اتحـدوا ليتخلصـوا مـن الهـدف الأصعـب، هكـذا دومًـا يفعلـون، بارعـون مبهـرون فى الـشر، ولكننـا الآن لدينـا أربعـة آخـرون، متسـاوون، لنـرى مـاذا سـيفعلون ليخـرج أحدهـم حيًا.

ولكـن قبـل أن تبـدأ المعركـة مـن جديـد، صنـع الحـراس سـياجًا دائريًـا معدنيًـا حـول اثنـين مـن المتصارعـين يتخللـه ثلاثـة طبقـات سـميكة مـن حشـائش صفـراء قطـره عـشرة أمتـار داخـل السـاحة وارتفاعهـا يبلـغ متريـن، ثـم أشـعلوا النـار فى هـذه الحشـائش إيذانـا ببـدء القتـال بـين اثنـين داخـل السـاج واثنـين خارجـه، سـتقاتل لتهـزم الآخـر وتقتلـه أو تلتهـم النـيران أحدكـم إن اقتربتـم منهـا مـن الداخـل أو الخـارج، بـدأ العـراك وسـط أجـواء الجنـون، ولكـن بينـما القتـال عـلى أشـده، كان هنـاك مـن يتقافـز خـارج المبنـى تمامًـا، يتـوارى خلـف

الصخـور والجـدران، يبحـث عـن ثغـرة ليدخـل بهـا إلى المبنـى، كان الوحيـد الـذى يتحـرك فى هـذه المنطقـة الخلفيـة، فأهـل الجزيـرة امتنعـوا عـن حضـور اللقـاء بتعليـمات مـن حاكمهـم بيكـوى، مـا كان لهـم أن يعصوهـا، بينـما عـلى حـواف المبنـى وعـلى أبوابـه يقـف الحـراس ملثمـين بزيهـم بأسـلحتهم، كيـف سيدخل وسـط هـذه الحراسـة المكثفـة؟ كان هـذا السـؤال يتأرجـح فى رأس يحيـى الـذى لم يحتمـل فكـرة الرحيـل عـن الجزيـرة مـع علمـه بوجـود عاصـم حيًـا عـلى أرضهـا، وكـى لا يثـير تسـاؤلات أو شـكوك انتظـر حتـى تحـرك القـارب بمسـافة ليسـت بقليلـة حتـى قفـز إلى المـاء، سـابحًا وسـط أمـواج متلاطمـة لا ترحـم حتـى وصولـه إلى الجزيـرة، ولكـن حتـى لـو دخـل ووصـل إلى عاصـم كيـف سـيخرجان معًـا؟!

لم يتخيـل الحضـور أن تكـون الجـولات عـلى هـذه الدرجـة مـن الإمتـاع غـير عالمـين بـأن روبيرتـو روسـى مـازال فى جعبتـه الكثـير لإمتاعهـم، انتهـت الجولـة الثانيـة بفـوز أحـد المتصارعـين مـن داخـل السـياج وآخـر مـن خارجـه ليلتقيـا فى قلـب السـاحة بعـد أن خفتـت النـيران عقـب التهامهـا الحشـائش، صراع جديـد بـين اثنـين، أحدهمـا فقـط يفـوز والآخـر سـينضم لثـلاث جثـث أخـرى للثـلاث السـابقين فى أرض السـاحة، سـالت دمـاء جديـدة وعلـت آهـات المتصارعـين مـن الألم، ليفـوز أحدهمـا بعـد معانـاة نضحـت عـلى شـكل جـروح فى الوجـه وآلام فى البـدن، وسرعـان مـا عـاد للحلبـة المتصـارع الأول الفائـز مـن اللقـاء الرباعـى الأول ليقـف فى مواجهـة المتصـارع الثانـى الفائـز مـن اللقـاء الرباعـى الثانـى، كان كلاهمـا منهـكًا مصدومًـا وقـد حسـب أنـه نجـا اليـوم ولكـن عليـه مـن جديـد قتـل آخـر فى جولـة قـد تكفـل لـه الحيـاة المزيـد مـن السـاعات أو الأيـام، المـوت يرفـرف فوقهـما، لم

يفصح بعد أيهما ستقبض روحه الآن، التقيا والتحما وسط جثث لقيت حتفها منذ دقائق ولم تغادر الحلبة، كانت الكفتان متساويتان تقريبًا، لذا طال القتال وطال استمتاع الحاضرين، تلطخ وجهيهما بالدماء وتضاعفت الجروح، خارت قواهما، وبدا للعيان أنه ليس بوسعه الآخر قتل منافسه وبمعنى آخر لن يسمح منافس للآخر بقتله، لذا جاءت المساعدة من الخارج، خنجرين حادين ألقيا فى نفس التوقيت لقلب الحلبة، ليطير كلا المتصارعين ممسكًا بخنجر، هكذا ستكون النهاية أسرع، عادت إليهما الروح من جديد وبعث الخنجر فى يديهما رسالة اطمئنان لقلبيهما ولكن كان ما حدث ليس سوى طعنات لا تقتل جعلت دمائهما تسيل وتلون رمال الساحة بالأحمر، لم يتبق موضعًا دون نزف، ولا جزءًا دون ألم، وحين طال بهم الوقت أكثر، قرر أحدهما رمى الخنجر بأقصى ما يستطيع من قوة ودقة تصويب فى صدر الآخر متصورًا نفسه كأحد رماة السهم، ولكن لم يكن سوى أن أصابت كتف منافسه فقط، ليبقى كلا الخنجرين بحوزته، واحد بيده والآخر مغروس بكتفه، تبادلا النظرات للحظة بعدها جرى الأعزل بسرعة ليجهز على الآخر أو يستعيد خنجره، ليقابله خصمه بخنجر فى معدته، سالت معها دماؤه، ولم يكتفِ بذلك، بل أخذ يحرك الخنجر فى قسوة يمينًا ويسارًا داخل جسده، حتى اصطبغ الخنجر ويده وذراعه بالأحمر، المطعون يصرخ من الألم والطاعن يصرخ من الجنون، والصياح يعلو فى المدرج استمتاعًا واشمئزازًا فى نفس الآن، دخل الحراس مصطحبين الفائز تاركين الجثث كما هى فى قلب الساحة وعلى حوافها وقد اصطبغت باللون الأحمر فى أغلب مواضعها. بعدها بدقيقة جاء صوت روبيرتو من جديد»الإثارة لم تنتهِ وهناك المزيد،

فقط تهيئوا لما هو قادم» ثم هدأ الجميع فى لحظة ترقب، وإذ فجأة تنشق أرض الساحة ناثرة كثيرة من الرمال والتراب ليصعق الحاضرين من الذهول، كان الصوت شديد والرجرجة مريعة والاهتزازات فى السور المعدنى واضحة للعيان، تشبث كل جالس بجاره بعد أن شعر بالفزع، ولكن سرعان ما ظهر من الأرض المنشقة صندووق زجاجى متين أرضيته تبلغ مساحتها ثلاثة أمتار، بينما ارتفاعه متران وسقفه من الزجاج أيضًا، لم يكن الصندوق فارغًا بل يحتوى على أربعة من المجرمين لايرتدون إلا شورتًا قصيرًا يوارى عورتهم، استقر الصندوق فى قلب الساحة، وعادت أرضيتها لوضعيتها الأولى، دون أن يلاحظ أحد تجويف دائرى صغير فى أرضية الصندوق الزجاجى، تصفيق حار من جانب الحضور لتلك اللحظة التى أذهلتهم روعتها، وبعضهم يتساءل كيف وصلوا بداخل الصندوق إذا كان مغطًا من جميع الجهات.

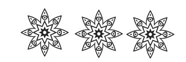
أربعة من المجرمين داخل صندوق، يتلفتون يمينًا ويسارًا، منهم من يعتريه الخوف ومنهم من يسيطر عليه الغضب وكان أكثر الغاضبين وجهًا نعرفه لم تكن تلك مواجهته الأولى على أرض الساحة، طال شعره أكثر وصار كأصحاب الكهف ولكننا مازلنا نميز وجهه الأسمر وعيونه الحانقة، إنه عاصم ، ثم صوت روبيرتو يقول:

- جولة جديدة لأربعة، معهم قليل جدًا من الوقت ليخرجوا من هذا الصندوق، إما أحياء أو أموات، هم من سيحددون.

لم يفهم المحتجزون أو الحاضرون معنى القليل من الوقت ولكن حتمًا سيفهمون، بعد التصفيق وجد عاصم من يسدد له

لكـمات وضربـات واثنـان آخريـن يفعـلان المثـل، لم يسـتعب سريعًـا مـا هـو مطلـوب، لـذا بوغـت بالـضرب مـن وجـه تبـدو عليـه الشراسـة وجسـد كأنـما اسـتعاره مـن خرتيـت، الضربـات متلاحقـة عـلى رأسـه كادت أن تفقـده الوعـى، قبـل أن يلاحـظ الأربعـة تـسرب مـاء بـارد إلى الصنـدوق يلامـس أقدامهـم، انشـغلوا لثـوان عـن القتـال ثـم سرعـان مـا تبدلـت الأمـور بترجيـح كافـة مـن كادا يُهزمـا وكان عاصـم أحدهمـا، أخـذ يـضرب بعنـف، ومـع كل ضربـة تـزداد ثقتـه بنفسـه ويـزداد استرداده لوعيـه ولكـن منسـوب المـاء يرتفـع حتـى وصـل إلى ركبتيهـم، مـن أيـن يأتـى هـذا المـاء؟ القتـال لم يعـد ذا قيمـة مقارنـة بهـذا الخطـر المتنامـى، توقـف قتالهـم، بحثـوا عـن المصـدر الـذى تدخـل منـه المـاء إلى الصنـدوق فـكان عـلى أحدهـم الغطـس فى قـاع الصنـدوق وشـاهد الميـاه وهـى تندفـع مـن تجويـف دائـرى عـبر خرطـوم ميـاه كبـير، كان مـن المسـتحيل سـده، حتـى مـع وضـع كلتـا يديـه، بعـد دقيقـة مـن الفـزع وصـل المـاء إلى صدورهـم، كان المـاء مالحًـا، هـذا المـاء قـادم مـن المحيـط، أهـل الجزيـرة لـن يفرطـوا فى ميـاه الآبـار العذبـة لأجـل هـذه اللعبـة، ولكـن حتـى وإن كانـت عذبـة فـلا فـارق، صـوت تدفـق الميـاه والحالـة التـى انتابتهـم حجبـت عنهـم صـوت العـشرات خـارج الزجـاج وهـم فى قمـة الإثـارة، الميـاه وصلـت إلى رقابهـم وأوشـكت أن تغرقهـم، الآن صـار بإمكانهـم السـباحة داخـل الصنـدوق ولكنهـم بحاجـة إلى الهـواء، عيونهـم تتسـع وهـم يشرأبـون بأعناقهـم فى محاولـة لالتقـاط بعـض الأنفـاس، ولكـن المـاء يرتفـع وصـار يغطـى رؤوسـهم، يطرقـون بأيديهـم عـلى الزجـاج، يسـتغيثون بمـن يتلـذذون برؤيتهـم يتعذبـون، نظراتهـم فزعـة، يتحركـون بهيسـتيريا داخـل الصنـدوق الـذى أمتـلأ عـن آخـره بالمـاء، كل منهـم يحتفـظ بنفـس أخـير داخـل رئتـه،

بعـد أن سـد أنفـه لأنـه لـن يستنشـق سـوى المـاء، ولكنـك مهـما أغلقـت فمـك وأنفـك، فلـن تظـل هكـذا للأبـد، رئتـك لـن تحتمـل، عاصـم الـذى لم يخـش المـوت يسـتغيث بعيـون متسـعة، لم يتهيـأ للمـوت غرقًـا داخـل صنـدوق مـاء، لم يعـرف حجـم الهلـع الـذى كان بانتظـاره، حقًـا طريقـة بشـعة للمـوت، لم تـدع لـه حتـى فرصـة للمحاولـة. بعـد هيسـتيريا انتابـت الأربعـة رجـال اتخـذوا وضعيـة رأسـية داخـل مكعـب الزجـاج وتوقـف الأربعـة عـن الحركـة نهائيًـا وكأنهـم أُصيبـوا بالشـلل التـام، مـرت دقيقـة واثنتـان عـلى هـذا الحـال، نهايـة غريبـة حقًـا يـا عاصـم لم تخطـر لـك ببـال.



«من المهم فى الحياة أن تختم الأشياء بطريقة صحيحة، عندها يمكن التخلى عنها.»

يان مارتل

(٣٠)

لاحت الفرصة ليحيى لينفرد بواحد من الحراس بإحدى البوابات ليوسعه ضربًا ثم سحبه سريعًا بعيدًا عن الأنظار التى قد تباغتهم فى أى وقت، وحين تمكن منه وأفقده الوعى، أخذ سلاحه وملابسه وارتداها ووضع اللثام على وجهه وصارت له مثل هيئته واتخذ مكانه على البوابة، وجد فى الملابس عددًا من المفاتيح، مر به حارس وآخر دون أن يلاحظا الفرق، تبادلا معه كلمات فاكتفى بالإيماءات، ثم سرعان ما انتقل إلى داخل المدرج، كان هناك عدد من الحاضرين، ورأى عدد من المتصارعين، لم يميز من بينهم عاصم، فانتظر بعد أن تعمد الابتعاد عن أى تجمع للحراس، جولة تليها جولة حتى ظهر القفص الزجاجى بداخله أربعة يتصارعون ليس من بينهم عاصم هكذا تصور، ثم يمتلىء الصندوق بالماء ويكادوا يغرقون، الأربعة يحاولون، ولكن ثوان معدودة ويصيرون كأسماك الزينة الميتة. لم يكترث يحيى لأمرهم، لا يعنيه سوى أن يرى عاصم، صحيح أنه لا يعرف بالضبط ما سيفعله وقتها ولكن عليه أن يجده أولًا.

سكن أربعة أجساد تمامًا بعد مرور دقيقتين وأكثر من وصول الماء المالح لسقف الصندوق، الحاضرون انتشوا من الإثارة،

والغرقى توقفوا عن التنفس بعد أن أغرقت أنوفهم الماء، هنا وعلى حين غرة انطلقت أربع قذائف من أربع جهات من أربع أسلحة من أربعة حراس، باتجاه الصندوق، موجهة إلى قلب الصندوق الزجاجى، محدثة انفجار لمكعب الزجاج بعد أن تهشم زجاجه تمامًا ليفرغ ما بداخله من ماء وأجساد، لتغمر الماء أرض الساحة وتمتزج بالرمال والدماء بينما تناثرت الجثث باتجاهات مختلفة مندفعة مع الماء لتنضم بدورها إلى ما سبقها من جثث، لقد بات واضحًا بأن الساحة تحولت إلى مقبرة جماعية لمجرمى العالم، على أية حال لم يكن المشهد داخل الساحة خاطفًا لأبصار الحاضرين مثل المشهد بخارجها، عربة مكشوفة تتحرك ببطء تحمل على ظهرها قفصاً حديديًا بلا سقف ارتفاعه مترًا ونصف وبداخله يقف ثور أسود ضخم يقترب وزنه من أربعمائة كيلو جرام، كان منظره مهيبًا مرعبًا، خاصة لمن يشاهده لأول مرة رؤي العين، دلفت السيارة إلى أحد جوانب الساحة القريبة من الحاضرين، لا يفصلها عنها إلا السور الحديدى ذو القضبان، تبعها عدد من ثمانية رجال، انتهى الحراس من أمر الرجال وتركوهم، أما الثور فكان فى كامل عنفوانه، كتلة من العضلات القوية وقرنان معقوفان مدببان يثيران الرعب حتى فى أكثر القلوب شجاعة، تم حبسه فى الظلام لمدة تجاوزت أربع وعشرين ساعة لإكسابه مزيد من التوتر قبل دخوله الحلبة، نظر الرجال إلى أنفسهم، كانوا عراة الصدور وجميعهم يرتدى سراويل حمراء، بهدف إثارة هذا الحيوان، رغم عدم صحة هذه المعلومة، فالثور لا تميز عيونه هذه الألوان، انسحبت العربة وبقى الثور والرجال داخل ساحة القتال والتى تحولت لحلبة مصارعة ثيران شبيهة تمامًا بتلك التى تقام فى إسبانيا.

فى هـذا التوقيـت بـدأ تونـى الفاقـد للوعـى يتململ فى فراشـه، تأثـير المخـدر أوشـك عـلى الـزوال، إنـه يتقلـب يمينًـا ويسـارًا، رأسـه ثقيلـة وجفنـاه يحمـلان أطنانًـا، يقـاوم الخـدر السـارى بجسـده، يحـاول إفاقـة نفسـه، ولكـن وعيـه لا يطاوعـه، ينـزل بقـدم مـن السريـر وينهض نصـف نهـوض، لقـد بـدأ عقلـه يعمـل، كـم السـاعة الآن؟وحـين رأى عقـارب السـاعة، انتفـض واقفًـا رغـم مـا بـه مـن ألم مصاحـب لهـذه الحركـة المفاجئـة وتذكـر موعـده مـع جـولات القتـال اليـوم ثـم تذكـر ضيوفـه، وانتظارهـم لـه ثـم جلس مـرة أخـرى، عـاود النهـوض ببطء وبشـكل أكثـر حرصًـا، ذهـب إلى الحـمام وأغـرق رأسـه بالمـاء لعلـه يسـتفيق، كان للـماء مفعـول السـحر برأسـه، انتزعتـه مـن غيبوبـة سـقط فيهـا دون سـبب واضـح، أعـد نفسـه سريعًـا وغـير ملابسـه، وإذا بـه يهـم خـارج المنـزل، ليفاجـأ بـأن البـاب موصـد تمامًـا، يحـاول تحريكـه أو كـسره مـن الداخـل، بـاءت محاولاتـه بالفشـل، يبـدو أنـه حبيـس هنـا، وهنـا بـدأ يسـترجع ببطء، إنـه نائـم منـذ عشـاء الأمـس والسـاعة تشـير لمنتصـف اليـوم، هـل حـاول عمـه تنويمـه؟ أم أنـه الإنهـاك فقـط الـذى جعلـه ينـام ثمانـى عـشرة سـاعة متواصلـة، ولكـن هـل الإنهـاك هـو مـن أوصـد البـاب؟ مسـتحيل، جـن جنونـه حـين وصـل لهـذا الاسـتنتاج، ازداد طرقـه عـلى الأبـواب والشـبابيك فى الطابـق الأرضى، لا مجيـب، مـاذا ينتـوى هـذا العجـوز؟ مـا الـذى فعلـه مـع هـؤلاء الضيـوف؟ هـل أسـاء لهـم؟ إنـه لا يقـدر حجـم الخدمـات التـى يقدمونهـا للمؤسسـة فبدونهـم سـتصير فى خـبر كان، يكفـى كشـف أمرهـا للإعـلام مثـلًا ليلاحقهـم العـالم بـأسره، أخـذ يسـب ويلعـن، باحثًـا عـن طريقـة للخـروج مـن هـذا المنـزل وإنقـاذ مـا يمكـن إنقـاذه.

يقـف يحيـى بعيـدًا مشـاهدًا لمـا يـدور داخـل الحلبـة كباقـى الحراس،

كل مـن مكانـه ومـن زاويتـه الخاصـة، أيـن هـو عاصـم؟ لماذا لم يظهـر حتـى الآن؟ إنـه حتـى ليـس بـين المنضمـين الجـدد للحلبـة لمصارعـة الثـور؟ ليـس بيـده سـوى الانتظـار.

كات الثـور متوتـرًا بالفعـل بعـد إنزالـه مـن العربـة يقفـز فى أكثـر من اتجـاه ورأسـه تـدور بسرعـة فى كافـة الاتجاهـات، وكأنـه يـدرى بأنهـم يضمـرون لـه شرًا مـا، ووسـط تحديـق الجميـع، يُنفـخ فجـأة فى بـوق مُحدِثًـا صوتًـا هائـلًا، مُفزِعًـا الجميـع، ليبـدأ الثـور فى الجـرى بينـما ثمانيـة مـن الأفـراد يحاولـون الفـرار، وإذا بالحـراس يلقـون إليهـم بثمانيـة رمـاح وأسـهم ذات سـنان صغـيرة لاسـتخدامها فى طعـن الثـور، إمـا أن يريقـوا دمـه برماحهـم أو يريـق دمهـم بقرونـه، هـرول الرجـال باتجـاه الرمـاح ليتعثـر بعضهـم بجثـث مـن سـبقوهم، ليعـاود النهـوض سريعًـا، حتـى قبـض كل منهـم عـلى رمـح، هنـا بـدأ بعضهـم يتحـلى بالشـجاعة، ويتخذ وضعًـا هجوميًـا فى مواجهـة الثـور، لا داعـى لذكـر الحالـة التـى عليهـا الجمهـور مـن السـعادة، فبعـد أن عـاد بهـم الزمـن للـوراء مئـات السـنين ليتقمصـوا مشـاعر أهـل رومـا القـدام داخـل الكولوسـيوم الجديـد، هـا هـم ينتقلـون أيضًـا فى رحلـة عـبر نفـس المـكان ليجـدوا أنفسـهم فجـأة داخـل حلبـة مصارعـة ثـيران إسـبانية فى مواجهـة بـين ثـور وحفنـة مـن المجرمـين يـا لبراعـة هـذا العجـوز وروعـة هـذا العـرض، لابـد وأن تونـى يُقـود مـن خلـف السـتار كل هـذه الفقـرات، وسـيظهر حتـمًا فى وقـت مـا لينتـزع منهـم الإشـادات وعبـارات الإعجـاب المسـتحقة.

الثـور يواصـل الجـرى فى حـذر باتجـاه أصحـاب الرمـاح، الذيـن يعـدوون بكامـل قوتهـم مـن جديـد متعثريـن بالجثـث، هنـا حـدث مـا لم يتوقعـه أحـد مـن المتفرجـين ضيوفًـا كانـوا أو حُراسـاً، حـين بـدأت بعـض الجثـث فى التحـرك البطـىء بـين رفـع ذراع وبعضهـم بـدأ يزبـد

ويسعل طاردًا كمًا من الماء من فمه مفسحًا الطريق لبعض الهواء، مصارعة الثور تدور من حوله دون أن يعى ذلك، كان أحد هؤلاء عاصم، الذى لم يمت هو والآخرين جراء الغرق فى الماء المالح كما تصور الحاضرون، لو كان الماء عذبًا لاستطاع التسرب إلى مجرى الدم بسهولة لأنه قريب من تركيبه وبالتالى يدخل إلى الرئتين مسببًا تفجيرًا للخلايا وفشل أعضاء الجسم فى غضون أقل من ثلاث دقائق، أما الماء المالح فيحتاج ثلاثة أضعاف هذا الوقت على الأقل لإحداث نفس التأثير المسبب للوفاة وبالتالى تزيد فرص إنقاذ غريق الماء المالح عن غريق الماء العذب، بالطبع الحاضرين لم يفهموا ما حدث وظنوا أنهم عادوا للحياة من جديد عقب موتهم الأكيد.

كان القتال على أشده، الثور يجرى مصدرًا قرنيه باتجاه كل ذى رمح حتى نجح فى غرس قرنيه بصدر أحدهم بعد أن طعنه الأخير برمحه فى لحمه العريض، كان المشهد قاسيًا وأحدهم محمول على قرنى ثور والدماء تنزف بغزارة من جسده، بينما الثور يلف فى المكان كالمجنون معلنًا انتصاره على أحد مصارعيه، صرخات الخوف تتعالى من المصارعين وأحدهم انتابه الجنون فاقترب من الثور ليغرز رمحه فى ظهره، ليلتف له الثور بشكل مفاجىء جعلت المقتول الأول يسقط من فوق قرنى الثور الذى أخذ فى العدو باتجاه طاعنه الجديد ولكنه لم يلحق به، بدأ الغرقى رويدًا فى عودتهم للوعى وسط الصيحات المتعالية الماجنة، ولكنهم كانوا على وشك الموت من جديد إثر دهسة واحدة من الثور، وبالفعل دون قصد يقف الثور بساقيه الأماميتين على أحد الناجين من الغرق ليرديه قتيلًا من جديد. هنا علا الحماس أكثر وأكثر بين المتفرجين، أما

يحيى فأخذ يقترب رويدًا باتجاه أحد الناجين من الغرق داخل الساحة وهو يتساءل داخل نفسه «هل هذا عاصم؟» مشدوهًا وقف وهو يردد «هو، إنه هو» تبًا لغبائه، لقد كاد يموت أمام عينيه دون أن يتعرف عليه لقد غيرته السنين أم غيرته أيام بقائه هنا؟ تعرف عليه بصعوبة حقًا ولكنه أخيرًا وجده. عليه أن يجد وسيلة سريعة لإخراجه من هنا، إنه لا يضمن ما ينويه العجوز بشأن هؤلاء.

وصل تونى للطابق الأول، شبابيكه ونوافذه ليست مغلقة، لكن لا يوجد حتى ماسورة يتسند عليها فى النزول، إما القفز، أو الانتظار حتى يحن عليه هذا المجنون عمه، لم يطق تونى صبرًا، سيموت غيظًا وهو واقف هكذا لا يحرك ساكنًا، المشكلة أنه غير معتاد على قفزة كهذه وحتمًا ستسفر عن إصابة.

نهض عاصم متفاديًا دهسة الثور اللاهث الذى وصل عدد الرماح المغروسة فى بدنه لخمسة رماح ولازال يقاوم رغم ما به من إصابات وكانت حصيلة ضحاياه حتى الآن خمسة رجال، أحدهم من الناجين من الغرق، ليصبح عدد الأحياء من الرجال داخل الحلبة سبعة رجال، ثلاثة ناجين من الغرق وأربعة من مصارعيه، الدماء فى كل مكان والجماهير واقفة على قدميها تزأر مع كل نقطة دم تُسال وتصفق مع كل طعنة صرخاتهم تثير الغيظ فى قلوب كل المتواجدين داخل الحلبة بما فيهم الثور الذى يحاول بقر بطون من يقابله، يحيى يقترب من الساحة بزى الحراس، ينادى على عاصم ولكن صوته لا يصل إليه، ومع تكرار الكر والفر، اقترب عاصم من الناحية التى يقف عندها يحيى، بعيدة نسبيًا عن دخول وخروج الحراس، فكر بأنه لو منحه السلاح الذى معه سيقضى

على الرجال بداخل الحلبة وكذلك الثور ولكنه سيلفت نظر باقى الحراس لينالوا من كليهما، لذا نادى عليه أشار له بخنجر على الأرض بالقرب من موضع قدمه، لم يتبين عاصم لماذا يحاول هذا الحارس الملثم مساعدته؟ يبدو أنه لمزيد من إضفاء الإثارة على الحلبة، مسك بالخنجر الذى هوى من المتقاتلين فى الجولات الأولى، لم ينشغل كثيرًا بهذا الحارس، فالثور الهائج لا يتوقف عن العدو داخل الحلبة وقد مزقه الألم ويعلم أن أى سقوط يعنى الإجهاز عليه وقتله، وعلى عاصم أن يحترس بعد أن نجا بأعجوبة من الهلاك.

ينبغى الذكر أن القتال تحت هذه الشمس وعلى هذه الأرض الرملية المخضبة بالدماء والماء والجثث جعل الحلبة كمستنقع قذر بهت بأوحاله على أجساد الجميع، هذا ما بدا واضحًا لروبيرتو فى حجرته المصفحة التى لم يدخلها سواه منذ افتتاح هذا المبنى والتى يملك وحده مفتاحها، وعلى شاشات تعمل للمرة الأولى منذ افتتاح الكولوسيوم، هذه الشاشات تبث ما تلقطه كاميرتان مثبتتان بشكل غير ظاهر أسفل اللافتة المائلة المعلقة على السارى .. لافتة (اسدِ لنفسك معروفًا ومت بسرعة) إحدى الكاميرتان تنقل ما يدور بالساحة والأخرى تنقل ما يدور بالمدرج.

وبينما عاصم يمسك بالخنجر بيمينه والثور يقترب منه ببطء، تراجع عاصم قليلًا للوراء خطوات وخطوات، كاد يحيى أن يُخرج سلاحه موجهًا طلقاته للثور كاشفًا عن نفسه، ولكن إذا به يُفاجأ بعدد من الحراس يقتربون منه، ويقولون له «هيا، لقد حان الوقت» فزِع يحيى ظنًا منهم أنهم كشفوه وهو يهم بتوجيه السلاح ناحية الثور ولكنه حين استجمع شتات نفسه سريعًا وجدهم فقط يدعونه كرفيق:

- هيا أتريد البقاء هنا حتى الموت؟

لم يفهم ولكنه اضطر ليتبعهم وعيونه وقلبه معلقين بها يدور فى ساحة القتال مع عاصم الذى مازال يتراجع والثور يرمقه بعناد ولعاب يسير من منخاريه وفمه، دقات قلب عاصم تزاد حدتها وسرعتها، سينقض الثور بسرعة البرق وعليه أن يتفاداه بشكل أسرع، هل يستطيع؟ قبل أن يجيب قفز الثور قفزة مباغتة تجاهه، ابتعد عنها عاصم سنتيمترات، ليصطدم قرنى الثور بالسور الحديدى وقبل أن يعتدل الثور يغرس عاصم خنجره فى عنقه، ولكن ذلك لم يؤثر فى ثورة الثور الذى قرر نطح عاصم بقرنيه بأى ثمن، ولكن فى رشاقة كان يفلت عاصم منه حتى صدمه بجانب رأسه ليطيح به أربعة أمتار للوراء، هنا تجرأ المصارعين للاقتراب من الثور الذى كان منشغلًا بعاصم، ليطعنه اثنان من الجانبين، بدأت معها خطواته تتعثر وسوقه الأربعة لا تقوى على حمله والدماء أحالت جسده الأسود إلى الأحمر.

أما يحيى تبع باقى الحراس وهو يتحسس سلاحه، لو طلب منه رفع اللثام سيكشف أمره وقتها سيفرغ ما بجعبة هذا السلاح فى أحشائهم، ولو خسر حياته ثمنًا لذلك راحوا جميعًا خارج المساحة الخارجية المحيطة بالساحة وبعيدًا عن أعين الجميع، اصطفوا صفا أفقيًا واحدًا أمام أندرو الذى كان يمنحهم رزمة من المال وشيكًا موقعًا بإمضاء روبيرتو روسّى، يحصل حامله بمقتضاه على مليون يورو، استلم يحيى الشيك كالباقين ولم يفهم لما يحدث ذلك الآن، ولكن بعدما تسلم الجميع نصيبه، أمرهم أندرو بالانصراف إلى حيث موضع القوارب، إلا ثلاثة بقوا معه، ليس من بينهم يحيى الذى كان عليه الانصراف معهم خارج المبنى بأكمله،

سأل بصوت خفيض زميله الذى بدأ بكشف اللثام عقب خروجه كاشفًا عن وجه أنثى ليباغت يحيى هل من بين الحراس نساء، كيف هذا؟ ولماذا؟ هكذا سأل نفسه، ألذلك لا يتحدثون كى لا يفتضح أمرهم؟ لا وقت للدهشة فسأل:

- سنغادر هكذا؟

- بالطبع إلا لو أردت أن تحولك القنابل إلى أشلاء

وقف يحيى متسمرًا عقب سماع الجملة الأخيرة مدفوعًا بالجنون من وجه المرأة التى ظهرت من خلف هذا اللثام ومن إجابتها لتدفعه رفيقته من جديد دون جدوى

- هيا أيها المجنون

لم يتمالك يحيى نفسه وعاد باتجاه المبنى سريعًا، سيفعل أى شىء لإنقاذ عاصم، لقد قرر هذا المجنون روبيرتو روسى تفجير هذا المبنى

حين شرعت فى بناء هذا المدرج المحاكى لمبنى الكولوسيوم فى إيطاليا، كان أكثر ما يخيفنى أن يُساء استخدامه بشكل أو بآخر بعد مماتى، بالطبع كنت متفائلًا على غير العادة ولم أعلم بأنه سيساء استخدامه وأنا على قيد الحياة وعلى يد أبناء أخى، أقرب الناس إليّ، لا لن أسمح بذلك، لن أكون نوبل الجديد، نوبل هذا العصر الذى اكتشف وسيلة فعالة للردع ولكن أكثر من عانى من هذه الوسيلة هم الأبرياء، أما من صنعت لأجل ردعهم فكانوا هم مستخدميها وفتكوا بها من يعارضهم، وللأسف صارت وسيلة للتدمير والترويع، أى جريمة تلك التى ارتكبها المدعو نوبل فى حق البشر؟ وأين كان عقله وهو يعمل عليها؟ لا لن أكرر هذه المأساة،

البشر لا يُستأمنون، وإن واتتهم الفرصة لممارسة ساديتهم المتوارية خلف قناع زائف فلا يتأخرون، وبمجرد موتى سيستخدم نفس استخدام المدرج القديم، فقط جولات قتال تنال من المأسورين الضعفاء، أو المعارضين، لتتحقق البهجة لأمراء وملوك هذا العصر ذوى السلطة والنفوذ، لن يمنعهم تونى أو غيره بل لعله سيعاونهم على ذلك لأسباب وضيعة، لم أجد حلًا أفضل من التخلص من هذا المبنى الذى سيجلب الويل على أبرياء بعد رحيلى وبإمكانه جلب المشكلات لأهل الجزيرة المسالمين، لن أدعهم يظفرون بتحفتى هذه ليلهوا بها بعد، إنها لعبتى أنا، وأنا الوحيد القادر على تشغيلها بالطريقة الآمنة، لقد عشت حياتى بكاملها من أجل تحقيق ما عجزت عن إنجازه، وسأغادر مدمرًا ما حققته من إنجاز، وثقت فى تونى وماركو لكنهما لم يكونا جديرين بالثقة وجلبا للمدرج حفنة من الأوغاد ليسوا كمقاتلين ولكن كمتفرجين، أى نكتة هذه؟ مجرمين يتسلون باقتتال مجرمين آخرين، لولا ضيق الوقت لحبستهم فى زنازين المدرج ونظمت لكل فرد منهم جولة خاصة من القتال ليكونوا عبرة لمن تسول له نفسه التلاعب بقوانينى، حين وصلت إلى الجزيرة فى الأول من أبريل كان بصحبتى خبير قنابل وعلى متن سفينتنى حملت معى الكمية اللازمة لتحويل هذا المبنى عاليه وسافله إلى رماد، سيتحول لكتلة من النيران فى ثوانٍ معدودة، وضعت المتفجرات فى مفاصل المبنى، سيتدمر كليًة، يا للحمقى إنهم بالخارج يهتفون ويمرحون وهم يجلسون على قنابل موقوتة أسفل المدرج معلقة فى الهيكل الخارجى له تحسب عليهم الدقائق والثوانى المتبقية فى أعمارهم، بالأمس تم تثبيت القنابل فى شتى أنحاء المدرج بمساعدة عدد من الحراس وبعلمهم

جميعًا مع وعد بأن أى إفشاء للأمر لتونى أو لغيره، سيكون نتيجته الحبس بواحدة من الزنازين ليلقى حتفه مع الهالكين، سيخسر حياته وبالطبع سيخسر معها مليون يورو هو ثمن تنفيذ المهمة حتى النهاية، كان أندرو على علم بأغلب التفاصيل، أخبرته بأن الحراس عليهم أن يغادروا فى الواحدة والنصف ظُهرًا إلى حيث القوارب تنتظرهم وسنكون نحن آخر من نغادر المبنى فى الثانية إلا ربع، أى قبل الانفجار بربع ساعة وهى المدة اللازمة للابتعاد مسافة آمنة تفصلنا عن اللهيب.

الساعة 1:35 ظهر السادس من أبريل

تعود يا يحيى مسرعًا باتجاه المبنى والحراس ينظرون تجاهك ويتهامسون «ما هذا المجنون؟» تمر على أبواب المدرج، بابًا وراء باب ولكنك تفاجأ بأنها مغلقة إلا واحدًا، هذا الذى دخل منه أندرو والآخرين وهو الذى سيغادرون منه، تعبره منطلقًا وأنت تملأ رئتيك بالهواء، لم تقابل أندرو أو الآخرين لحسن حظك، تراهم من بعيد، يدفعون عربة أخيرة من المجرمين تجاه الساحة، لقد سقط الثور صريعًا وبقى خمسة رجال يدخلونهم إليهم ويصبح عدد المتقاتلين عشرة أفراد أحدهم عاصم بالطبع، لم يكتفوا بذلك بل ربط كل اثنين ببعضهما البعض بسلسة معدنية قصيرة لا يتجاوز طولها مترين، ليأتى الصوت عبر الميكروفون

- والآن موعدنا مع خمس مواجهات جديدة داخل الحلبة، لنرى من هم الخمسة الفائزين لهذا اليوم الدامى

يصرخ الحاضرون من جديد فى سعادة، لقد ارتوى ظمأهم للدم تمامًا ومازالوا يطلبون المزيد.

بعدها أغلق أندرو البوابة الحديدية للساحة، لينسحب هو ورجاله فى خفة من الساحة كلها ويبقى القتال ثنائيًا فى خمس مواجهات، عاصم يضرب وقد أخذ من الثور هيجانه، هنا يترامى لأذنه من ينادى عليه من خارج الساحة بلغة عربية:

- أسرع يا عاصم أسرع ...!

يتساءل بداخله من هذا، هل هناك عرب بين الحراس؟ يقترب بالمقاتل الآخر الموشك على فقدان الوعى منك يا يحيى، لتكشف أخيرًا عن اللثام، كان فى حالة أوهن من أن يتحمل هذه المفاجأة، عجز لسانه عن الكلام وأنت تطلب منه أن يقترب أكثر، ظل يحدجك باندهاش، لم ترمش عينه التى احتلها الذهول وقد توقف به الزمن أو عاد للوراء، هل مادت الأرض تحت قدميه باتفاق مسبق مع الزمن ليعيدانك إليه، أم أنه جُن ولم يعد يرى إلا الهلاوس؟ تطلب منه أن يرفع السلسلة المعدنية تقذف إليه بمجموعة من ال، يلتقطها ويحاول فك قيده من السلسة بمفتاح تلو الآخر، حتى نجح أخيرًا فى فك القيد، لم يلاحظ الجميع ما حدث ويواصل عاصم القتال دون أن يُبين بأنه قد تحرر، وفى نفس الوقت ينقض من جديد المتقاتلين على بعضهما البعض، عاصم يضرب ويتظاهر بالقتال بينما رأسه مشغولة بألف سؤال وسؤال، صار يحرك غريمه كالدمية فى أى اتجاه، فى هذه الأثناء تهرول يا يحيى باتجاه البوابة تحاول معالجة مزلاجها دون جدوى، لن تجازف برصاصة تلفت الأنظار. تذهب باحثًا عن أى أداة تعينك على إخراج عاصم من الداخل فلا تجد، تزحف على الأرض وتنادى على عاصم من جديد، الذى يراقبك من بعيد

- عاصم، هذا المبنى سينفجر بعد دقائق، حاول أن تتسلق هذه القضبان بسرعة

استمر فى التظاهر بالقتال بينما يقترب من السور، ثم فجأة ينقض على السور يثبت قدمه على كتفك الملتصق بالسور من الخارج

- هيا يا عاصم لقد فعلتها مرارًا من قبل، فر من هؤلاء بالداخل، الجميع بالخارج فر

يزيد حماسه وتنفر عروقه يتشبث بالقضبان الحديدية، يده تتعرق وتزداد محاولاته صعوبة ولكنه يعافر، هناك من يتابعه من الحاضرين بشغف، ويبدو أنه لاحظ عدم وجود الحراس، يلفت الآخرين، الجميع فى المدرج يراقب هذا الذى يحاول الخروج من الحلبة.

....

الساعة 1:40 ظهر السادس من أبريل

بعد خروج جميع الحراس من المبنى ، لم يعد هناك سوى أندرو الذى راح يطرق على الباب المصفح للغرفة التى يراقب منها روبيرتو روسى ما يدور بالساحة:

- هيا يا سيدى، لا بد من الذهاب الآن.

لا رد ، يحاول بمزيد من الطرق وصوته يعلو أكثر

- مستر روبيرتو، الساعة تقترب من الثانية إلا ربع، لا وقت لدينا.

يحاول مرة ثالثة ورابعة وخامسة، لا رد، ولا مجيب، هل رحل

دون انتظارى؟ أم واتته المنية بالداخل؟ الحيرة والقلق يمزقانه ولأول مرة لا يدرى ماذا يفعل، لقد كان دائما ينفذ التعليمات، هل يتركه أم ينتظر؟ المبنى سينفجر الآن. عليه أن يرحل وبسرعة، أسلم ساقيه للريح والدموع تترقرق فى عينيه

....

الساعة 1:45

محاولتين من عاصم لم يحالفه التوفيق فيهما، وكان مصيره فى كل مرة سقوط أليم، وسط صيحات الحاضرين الذين لا يفهمون لماذا يساعد حارس متصارع دون الآخرين، لابد أن هناك مفاجاة ما، وأنت يا يحيى تشد من أزر عاصم من جديد ولكن مع كل سقطة يزداد توترك، انسحاب الحراس بهذا الشكل يعنى قرب الانفجار، لذا ومع المحاولة الثالثة تنهره فى حدة:

- ستقتلنا هكذا، لا وقت لدينا.

يحاول مرة أخرى يتسلق بقدميه الحافية ويتشبث بيديه، يصعد حتى يصل إلى أعلى السور فقط عليه أن يتجاوز السنون المدببة للقضبان بحذر وإلا وخزته ونهشت لحمه، على ارتفاع خمسة أمتار ويزيد عاصم يحاول المرور من الداخل إلى الخارج دون إصابة، ينجح بالفعل فى العبور للجهة الأخرى، هكذا ضمن حتى لو سقط سيسقط بالخارج، ولكن مع تشجيع يحيى له استعاد كثيرًا من قوته، هبط مترًا آخرًا ثم قفز إلى الأرض ليتوجع عاصم، يساعده يحيى على النهوض ويعدوان سريعًا قبل أن يستوقفه عاصم وأنفاسه مقطوعة

- كيف يحدث هذا؟

- لا وقت الآن ستفهم لاحقًا، هذا المبنى سينفجر، لا يوجد إلا باب واحد غير مغلق، علينا الوصول إليه بأقصى سرعة

يغادران الساحة ويجريان خلف المبنى المواجه للمدرج وكثير من أمل يحدوهما فى الخلاص

....

الساعة 1:50

أندرو وصل إلى الباب الوحيد المتاح للخروج، لا يدرى هل سبقه روبيرتو أم لا، لا يدرى أيغلق هذا الباب أم يتركه مفتوحًا، كانت الخطة تقتضى أن يخرجا سويًا ويغلقا الباب ويبتعدا قدر الإمكان، لكنه الآن وحيدًا، حتما سيغادر ولكن يخشى أن يغلق الباب فيأتى روبيرتو خلفه، فلا يستطيع الخروج وبذلك يكون قتله، لذا لم يجد مبررًا لغلقه، الجميع بالداخل مشغول بما يدور فى الساحة، وجميعهم يستحق الموت كما أوضح له روبيرتو

- اهرب أندرو بسرعة، لا وقت

يستمع لصوت عقله ويلبى أغلى نصائحه

....

الساعة 1:52

وصلتما أخيرًا إلى الباب لتجدانه مفتوحًا، تفران دون أن تنظرا للوراء، لتقول يا يحيى وسط لهاثكما:

- هناك قارب سيغادر هذه الجزيرة حاملًا الحراس ، علينا أن نلحق به

- وهل سيسمحون لى بمرافقتهم هكذا؟

وقبل أن تجيب يا يحيى يظهر صوت ثالث

- أتريدان الرحيل هكذا دون توديع تونى؟

جاءت الجملة الأخيرة من تونى الذى ظهر أمامكما بشكل مباغت من حيث لا تعلمان، تفصله مسافة مترين عنكما موجهًا لكما سلاحه الشخصى مسدس من طراز إف إن ليردد عاصم مصدومًا «تونى!» قبل أن يواصل تونى الحديث ممزوجًا بسخرية مقيتة:

- اثنان، أحدهما قتل أخى يفران هكذا دون عناء من هذا الحصن المنيع، لا بد من تغيير الحراس بأكملهم عقابًا على هذا الخطأ الجسيم

ليرد عاصم :

- الحراس فروا وعليك أن تفر أنت أيضًا قبل أن ينفجر هذا المبنى الآن، تونى

- ينفجر!

ثم تعالت ضحكاته المصطنعة، قبل أن يواصل سخريته

- هل تظنان أنفسكما فى واحدة من عمليات قواتكما، أم تريانى طفلًا يمكن الاستهزاء به؟

- لسنا من سنفجره، صاحب المبنى والمنظمة هو من سيفعل.

جاءت الجملة الأخيرة منك يا يحيى لتستفز تونى أكثر ويشهر سلاحه فى وجهيكما.

- أنتما أحمقان وستموتا الآن بيدى.

وبينما يقولها كنت تتحسس سلاحك يا يحيى الذى أخذته من الحارس لتستخرجه قبل أن يلاحظ تونى ذلك فيضغط الزناد

موجهًـا رصاصـة لصـدرك أسـقطتك أرضًـا، ليقفـز عاصـم فى الهـواء عـلى تونـى مطيحًـا بالسـلاح مـن يـده وينقـض عليـه وينهـال عليـه ضربًـا بـكلا ذراعيـه قبـل أن يمسـك مسدسـه ويمنحـه رصاصتـين أرديتـاه قتيـلًا ويهـرول عاصـم باتجاهـك ويجلـس عـلى ركبتيـه فى محاولـة لرفـع رأسـك بعـد أن غطـت الدمـاء صـدرك بالكامـل:

- لن تموت من جديد، لن تتركنى ثانية

تنتبـه لكلماتـه يـا يحيـى وسـط ألمـك، لترفـع كـف يـدك وتربـت عـلى رأسـه الباكـى والدمـوع التـى تفجـرت مـن عينيـه كالشـلال ، ليلقـى برأسـه عـلى كتفـك وهـو يبكـى كالأطفـال

- لأاااااااا، لـن تمـوت يـا يحيـى، لـن تتركنـى ثانيـة، لـن تغيـب مـن جديـد

تخرج الكلمات منك بصعوبة وبطء وأنت تبتسم

- غريـب أنـك تقـول نفـس كلماتـه يـا عاصـم، سـامحنى إنـه ينتظرنـى منـذ زمـن.

- من هذا؟

- آسر، إنـه وراءك الآن بالضبـط، انظـر إليـه، إنـه أخـيرًا يبتسـم.. تقولها وأنـت تلتقـط أنفاسـك بصعوبـة، ينظـر عاصـم وراءه فـلا يجـد أحدًا

- اهرب يا عاصم، ودعنى أذهب معه

لفظهـا فمـك ولفظـت معهـا روحـك، لقـد تمنيـت المـوت كثـيرًا وانتظرتنـى طويـلًا يـا يحيـى ولكـن لم يحـن أجلـك حينهـا، شـهدت عذابـك وألمـك ودموعـك ولم يكـن بإمكانـى التدخـل، وهـا أنـا قـد جئـت فى الموعـد المحـدد لأجلـك دون لحظـة تأخـير واحـدة.

....

الساعة 1:55

عاصم باكيًا:

هل عاد لينقذنى؟ أم جاء ليودعنى؟ كيف وصل إلى هنا ومتى؟ لولا أنى لمست جسده، لحسبتنى أهلوس من الجنون؟ رحل دون أن يخبرنى ودون أن أهنأ بظهوره، لو لم يظهر لكنت مازلت الآن داخل الساحة أقاتل من أجل الظفر بلحظات قبل انفجار قادم قادم، مهما حدث لن أتركه هكذا، سأدفنه هنا قبل أن أرحل لو قدر لى الرحيل، إما أن أموت هنا بجواره أو يكتب لى الخلاص

....

الساعة 1:58

مسكين أندرو، ظن أنى مت بالداخل قبل أن أفر، غير عالم بأنى إلى الموت سأفر، قضيت عمرًا كنت أجبن من أن ارتكب هذا الأمر، الأن بات ضرورة، فالموت يخطو تجاهى، فلا ضير من أن أُسرِع خطوتين إليه، لم أدعِ يومًا أنى مرهف الحس، ولا أظن بوجود نزعة سادية لديّ، كل ما أردته فقط هو العدل، أن ينال كل ظالم ما يستحق .

يقول أحدهم «كل إنسان يقتل ما يحب» وأنا سأقتل هذا المبنى رغم حبى له، كما يقول آخر »من المهم فى الحياة أن تختم الأشياء بطريقة صحيحة ، عندها فقط يمكن التخلى عنها»

وهذه أفضل نهاية لهذا المدرج، أن يتحطم بكل ما يحويه من مجرمين سواء كانوا فى الحلبة أو متفرجين ساديين، هذا هو جزاؤهم الأمثل، من المؤسف أن يكون هؤلاء فقط آخر ضحاياى،

هنـاك ملايـين غيرهـم مـن المجرمـين، يسـتحقون عقـاب أكثـر مـن مجـرد الحبـس أو الإعـدام يسـتحقون جولـة واحـدة عـلى الأقـل داخـل السـاحة، يسـتحقون موتًـا أليـمًا بقـدر مـا سـببوه مـن ألم لأخريـن ، لـذا ظنـى بأننـا كائنـات مـا كان يجـب أن تكـون متواجـدة عـلى سـطح هـذا الكوكـب البائـس، وعـلى البـشر أن يسـارعوا بمسـاعدة أنفسـهم عـلى الانقـراض، عليهـم فـورًا أن يتوقفـوا عـن إعـادة الإنتـاج، لا مواليـد جـدد، لا أحـلام لـن تتحقـق؛ لأنـه مـع كل جيـل جديـد تأتـى حـسرة جديـدة وخيبـة لم يسـبق لهـا مثيـل، لأنـه لـن يحمـل سـوى مزيـد مـن الخسـارة مـن أرواح ومشـاعر ورغبـات وأمنيـات نمـت وازدهـرت ولكنهـا دائـمًا سـتلقى يـدًا بشريـة أخـرى تقتلعهـا مـن جذورهـا لتلقـى بهـا فى أقـرب سـلة مهمـلات أو فى مقلـب كبـير مـن القمامـة يحـوى جميـع القـاذورات بـما فى ذلـك جثـث نتنـة وأنـاس انتهـت صلاحيتهـم وسـيفنون مخلفـين وراءهـم عـددًا مـن المجرمـين الآثمـين الأشرار ليذيقوا آخريـن سـموم أفعالهـم وأهوائهـم المنحرفـة. فـترى المنكوب يبـح صوته مـن الـصراخ دون مجيـب والملهـوف يسـتغيث دون معـين، يـا أسـفى، فلترحمكـم السـماء أيهـا التعسـاء!

أمـا أنـا فسـأغادر منتـصرًا، فالمـوت هـو الانتصـار الأعظـم عـلى الحيـاة، فحـين أمـوت سـأتخلص مـن اليـأس، مـن الإحبـاط، مـن الفقد، مـن المـرض، والأهـم سـأتخلص مـن الحيـاة وأتخلـص مـن المـوت.

كـم وددت لـو عـرف العـالم قصتـى، لـو اتبـع بعـض العاقلـون طريقتـى، فقـط يجربـون. واأسـفاه سـتحترق الكامـيرا وتحترق الشاشـات ولـن أجـد حتـى ذاكـرة واحـدة تحتفـظ بعظمـة يـوم كهـذا لترويـه.

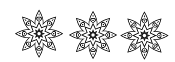
....

الساعة 2:00

انفجـار عظيـم مفاجـئ يـرج سـطح الجزيـرة، ويصيـب أهلهـا بالهلـع، يدمـر مدرجًـا رومانيًـا حديثًـا ويحولـه لكتلـة مـن الحطـام، ويحـرق أجسـادًا بعـد صراخ طـال دون مغيـث، ورعـب دام قبـل أن تصعـد أرواحهـم للسـماء أو تهبـط للجحيـم، ويلقـى بجسـدين أحدهمـا يحمـل الآخـر، عـدة أمتـار فى الهـواء قبـل أن يسـتفيق الحـى ويرمق ألسـنة اللهـب المتصاعـد فى محاولـة لملامسـة السـماء، ويحمـل الآخـر مـن جديـد باحثًـا عـن موضـع يصلـح لقـبر تحـت سـحاب الدخـان المتصاعـد مـن مـدرج يتلاشـى تمامًـا كالعشـب الـذى يحـترق.

تمت بحمد الله

نوفمبر 2016



خالص الشكر للأهل وللأصدقاء الأعزاء الذين لم يتوقف دعمهم ولم يبخلوا بوقتهم ومجهودهم وأرائهم حتى تظهر هذه الرواية وسابقتها بالشكل اللائق، أدام الله نعمة وجودكم فى حياتى

محمد عصمت

محمد على على

محمد هشام

مصطفى عبد التواب

د/ حسين السيد

محمد أبوالنجا

كريم مسعود

شكرعميق وامتنان من القلب لأستاذتى ووالدتى الفاضلة م/ سهام سعيد، وأستاذى الفاضل أ/ محمد عبد اللطيف على ما يحيطانى به من دعم واهتمام يفوق قدرة الكلمات على الوصف.

زوجتى الحبيبة مدين لكِ بحياة أنتِ شمسها وهواؤها

الكاتب فى سطور

- الكاتب من مواليد القاهرة، عام 1983م، تخرج فى كلية الألسن قسم اللغة الألمانية، جامعة عين شمس، عام 2004.
- عمل بمجال الترجمة حيث قام بترجمة بعض الأفلام الوثائقية والأبحاث المتنوعة.
- عمل بمجال التعليم كمدرس للغة الألمانية.
- والآن يعمل رئيس قسم التخطيط بالموارد البشرية للشركة المصرية للاتصالات.
- شارك عام 2013 فى كتابين جماعيين بعنوان
- (شيزوفرينيا الحب)
- (1+99)
- شارك بعام 2014 فى ثلاثة كتب جماعية بعنوان
  - (سكر بنات)
  - (خوف)
  - (3 فاز)
- صدرت له روايته الأولى (سجن الموتى) فى عام 2016

يمكن التواصل مع الكاتب عبر حسابه التالي على الفيس بوك:

https: / /www.facebook.com /ahmed.osama.792



noon_publishing@yahoo.com
0235860372 - 01127772007



حفلة دم

اسد لنفسك معروفًا ومُتْ بسرعة!

سيداتي سادتي، معكم المايسترو الذي لم تره كاميرات، ولم يغره الظهور، وكان دومًا يعمل في الظل، ولكنه اليوم احترامًا لكم واحتفالًا بكم يقرر الظهور بينكم في يوم سأجعله الأجمل لي والأمثل لكم، هذا العرض أعددته خصيصًا لكم.. حفلة دم.. دماء تستحق أن تراق، سآخذكم معي في رحلة عبر الزمان والمكان، سنسافر ونحلق بعيدًا عن العيون، سنطوف العالم ونعود بالزمن للوراء ونحن جلوس، ونواجه ما لم نره قط.. هنا أنتم على موعد مع المتعة، الإثارة، الجنون، لا خدع، لا حيل، أنصتوا جيدًا وركزوا أبصاركم فكل ما سيدور أمامكم محض حقيقة لا خيال، وقبل أن نبدأ فقرتنا لا تنسوا أن ملك الموت جالس الآن بيننا.

تأليف: أسامة علام

